



من موضوعات هذا الكتاب :

- الاسلام وقضية الألوهية — الرسالات الخاصة والرسالة العامة
- لا رهبانية فى الاسلام — الدين المعاملة
- الاسلام والمرأة — الاسلام والرق
- الاسلام والسياسة — الاسلام والاقتصاد
- لماذا اسلمنا ؟ من كلمات المفكرين الغربيين الذين اعتنقوا الاسلام

تأليف

الدكتور أحمد شلبى

دكتوراه من جامعة كمبردج
استاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية
بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة



الناشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى
القاهرة



مقارنة الأديان

٣

الاسلام

من موضوعات هـذا الكتاب :

- الاسلام وقضية الالوهية — الرسالات الخاصة والرسالة العامة
- لا رهبانية فى الاسلام — الدين المعاملة
- الاسلام والمرأة — الاسلام والرق
- الاسلام والسياسة — الاسلام والاقتصاد
- لماذا اسلمنا ؟ من كلمات المفكرين الغربيين الذين اعتنقوا الاسلام .

تأليف

الدكتور أحمد شلبى

دكتوراه من جامعة كمبردج
استاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية
بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الطبعة الثامنة (١٩٨٩) مع زيادات واسعة وتنقيحات مهمة



الناشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى
القاهرة

الطبعة الأولى سنة ١٩٦١

الطبعة الثانية سنة ١٩٦٥

الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٧

الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٣

الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٧

الطبعة السادسة سنة ١٩٧٩

الطبعة السابعة سنة ١٩٨٢

الطبعة الثامنة سنة ١٩٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

«إن الدين عند الله الإسلام»

(آل عمران ١٩)

كتب للمؤلف

أولا : موسـوعة التاريخ الاسـلامى

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة اجزاء لتاريخ العالم الاسـلامى كله من مطلع الاسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى اسـهم بها المسلمون فى ترقية العمران ، وتطوير الفكر البشرى :

١ ــ الجزء الأول : (الطبعة الثانية عشرة)

ــ **مقدمة الموسوعة :** نطاق التاريخ الاسلامى ــ تفسير التاريخ ــ هل التاريخ علم ؟ .. فلسفة التاريخ ــ فائدة التاريخ ــ مراحل تدوين التاريخ ــ قضية الالتزام فى كتابة التاريخ الاسـلامى.
ــ علم التاريخ بين المسيحية والاسلام ...

ــ **تاريخ العرب قبل الاسلام :** البدو والحضر ــ حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ــ **السـيرة النبوية العطـرة : جوانب من السـيرة تدون لأول مـرة**

ــ **الدعـوة الاسـلامية** وفلسـفتها ــ عصر الخلفـاء الراشـدين

٢ ــ الجزء الثانى : (الطبعة الثامنـة)

الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية فى عهدها .

٣ ــ الجزء الثالث : (الطبعة الثامنـة)

الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول ، وبدور المسلمين خلاله فى خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية .

٤ ــ الجزء الرابع : (الطبعة السابعة)

ــ **الأندلس الاسلامية ، وانتقال الحضـارة الاسلامية الى أوربا عن طريقهـا .**
ــ المغرب ــ الجزائر ــ تونس ــ ليبيـا (من مطلع الاسـلام حتى العهد الحاضر) .
ــ السنوسية : مبادئها وتاريخها .

٥ ــ الجزء الخامس : (الطبعة السادسة)

ــ مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر .
(تدوين جديد لتاريخ مصر) .
ــ الحروب الصليبية : دوافعها ــ أدوارها ــ نتائجها .
ــ الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن .

٦ — **الجزء السادس :** (الطبعة الثالثة)

الاســـلام والدول الاســـلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلهـــا الاســـلام حتى الآن :

— دراسة عن وسائل انتشار الاسلام :
مراكز الشمال — هجرات عربية وغير عربية — التجار — الطرق الصوفية — مراكز داخلية .

— الدول الاسلامية قبل الاستعمار الأوربى :
غانة — مالى — صنغى — دول الهوسا — برنو — باجيـــرمى — واداى — الفونج — مقدشو — مملكة الزنج .

— الدول الاسلامية الحالية :
موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيـــا — مالى — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال — جيبوتى .

٧ — **الجزء السابع :** (الطبعة الثالثة)

الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق :

— دول الجزيرة العربية من مطلع الاسلام حتى الآن :
المملكة العربية السعودية — اليمن — جمهورية اليمن الجنوبية — عمان — دولة الامارات العربية — قطر — البحرين — الكويت .

— العراق من مطلع الاسلام حتى الآن .

٨ — **الجزء الثامن :** (الطبعة الثانية)

الاسلام والدول الاسلامية غير العربية بآسيا من مطلع الاسلام حتى الآن :

ايران — افغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ماليزيا — اندونيسيا الأقليات الاسلامية فى الهند والصين وروسيا والفيليبين ..

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر

٩ — **الجزء التاسع :** (الطبعة الثالثة)

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمـــد نجيب — عصر جمـــال عبد الناصر (عصر المظالم والهزائم) .

١٠ — **الجزء العاشر :**

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم ، عصر أنور الســادات . (عصر النجاح فى الشئون الخارجية والفشل فى الشئون الداخلية) .

(ترجمت اكثر اجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات)

كتب للمؤلف

ثانيا : موسوعة النظم والحضارة الاسلامية

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة اجـزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التى جاء بها الاسـلام لهداية البشرية فى شـئون العقيدة ، والسياسة ، والاقتصـاد ، وفى مجـال الحيـاة الاجتماعية والتربوية والعسـكرية ، والتشريعية والقضائية ، كما تبرز جهود المسلمين فى الحضارة التجريبية ،

واجزاؤها هى :

١١ ــ **الجزء الأول : تاريخ المناهج الاسلامية** (الطبعة الرابعة)

مناهج التعليم فى صدر الاسلام ــ انحرافاتها فى عصـور الظلام ــ وجوب تصحيحها (*)

١٢ ــ **الجزء الثانى : الفكر الاسلامى : منابعة وآثاره** (الطبعة السابعة)

١٣ ــ **الجزء الثالث : السـياسة فى الفـكر الاسـلامى** (الطبعة السادسة)

مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة (*)

١٤ ــ **الجزء الرابع : الاقتصـاد فى الفـكر الاسـلامى** (الطبعة السادسة)

مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة ، ومع دراسة شاملة للنقاط التالية :

١ ــ الاسلام والمسلمون فى مواجهة المشكلة الاقتصادية .

٢ ــ مبادىء الاسلام الاقتصادية .

٣ ــ الاسلام والقضايا الاقتصادية الحديثة (شهادات الاستثمار ...) .

٤ ــ من تاريخ الاقتصاد فى الاسلام (بيت المال : موارده ومصارفه ...) .

٥ ــ النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور واثر الفكر الاسلامى فيها .

١٥ ــ الجزء الخامس : التربية الاسلامية (الطبعة الثامنة)

نظمها ــ تاريخها ــ فلسفتها

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، ولمناهج التعليم وامكنته ، ولحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، والاجازات العلمية ، والعقوبات ، والجوائز ، والمكافآت ، وملابس المدرسين ، ونقابة المعلمين ، وتكافؤ الفرص بين التلاميذ ، وتوجيههم حسب مواهبهم ..

١٦ ــ الجزء السادس : المجتمع الاسلامى (الطبعة السابعة)

اسس تكوينه .. اسباب ضعفه .. وسائل نهضته

١٧ ــ الجزء السابع : الحياة الاجتماعية (الطبعة الثالثة)

فى الفكر الاسلامى

ــ فى نطاق الاسرة : كالختان وتحديد النسل وعمل المرأة ...

ــ وفى نطاق المجتمع : كالأفراح والمآتم والموسيقى والغناء ...

١٨ ــ الجزء الثامن : تاريخ التشريع الاسلامى (الطبعة الثالثة)

وتاريخ النظم القضائية فى الاسلام

مع بحوث واسعة عن القرآن الكريم : المصدر الأول للتشريع
ومع دراسة شاملة لمصادر التشريع الأخرى

١٩ ــ الجزء التاسع : الجهاد والنظم العسكرية (الطبعة الثالثة)

فى الفكر الاسلامى (العلاقات الدولية)

بحث علمى يبرز موقف الاسلام من السلم والحرب ، كما يبرز اتجاهات الاسلام فى مشكلات الحرب كالاستعداد للجهاد ووسائله ، واخلاق المجاهد ، والخديعة فى الحروب ، والثبات والفرار ، والرباط ، والتجسس والخيانة ، والهدنة والأسرى ..

٢٠ ــ الجزء العاشر : رحلة حياة (الطبعة الثالثة)

تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الاسلامية

كتب للمؤلف

خامسا : المكتبة الاسلامية لكل الأعمار

١٠٠ جزء من سير عظماء الاسلام ، ومن التاريخ ، والحضارة ، وقصص القرآن : للأولاد والشباب والسيدات والرجال
ظهر منها الأجزاء التالية :

المجموعة الأولى : السيرة النبوية العطرة : (١٦ جزءا)

الطبعة الثانية مع زيادات واسعة وتحسينات شاملة

ج ١ محمد قبل البعثة

ج ٢ من غار حراء .. الى غار ثور (قصة الاسلام فى مكة)

ج ٣ الاسراء والمعراج : دراسة تصحيح للقضاء على الشطحات .

ج ٤ الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها

ج ٥ الرسول الداعية ومربى الدعاة

ج ٦ الرسول فى بيته : ازواجه — اولاده واحفاده — خدمه

ج ٧ الرسول فى بيته : مشكلات الحياة فى بيت الرسول وكيف عالجها

ج ٨ الرسول بين اصحابه — الرسول يربى الفرد المسلم — الرسول يربى المجتمع الاسلامى .

ج ٩ الرسول يربى القضاة ، ويربى القوة العسكرية ، ويربى الولاة والحكام

ج ١٠ الرسول والشباب — الرسول والعمل

ج ١١ توجيهات طبية يقدمها الرسول — مكرمات للرسول — الرسول والمنافقون

ج ١٢ الرسول والنصارى — الرسول واليهود

ج ١٣ الاسلام والقتال ، وهل انتشر الاسلام بالقوة او بالدعوة — غزوة بدر ودراسات جديدة حولها — اهم احداث غزوة بدر

ج ١٤ غزوة احد والهزيمة التى اخافت المنتصر — غزوة الأحزاب وكلمة عن سلمان الفارسى

ج ١٥ صلح الحديبية — كتب الرسول للملوك والرؤساء — غزوة مؤتة وبدء الصراع ضد الروم .

ج ١٦ فتح مكة — غزوة حنين والطائف — غزوة تبوك — الفترة الأخيرة فى حياة الرسول

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة : (٧ اجزاء)

ج ١٧ (١) ابو بكر الصديق : حياته وعصره والمشكلات التى واجهها

ج ١٨ (٢) عمر بن الخطاب والتوسع فى عهده — عمر بانى الدولة الاسلامية

ج ١٩ (٣) عثمان بن عفان : حياته واخلاقه والفتنة فى عهده

ج ٢٠ (٤) على بن أبى طالب : شخصيته وحياته والمشكلات التى واجهها

ج ٢١ (٥) طلحة بن عبيد الله (٦) الزبير بن العوام

ج ٢٢ (٧) سعد بن ابى وقاص (٨) ابو عبيدة بن الجراح

ج ٢٣ (٩) عبد الرحمن بن عوف (١٠) سعيد بن زيد بن عمرو

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية : (٥ اجزاء)

ج ٢٤ نظرة عامة للقرآن الكريم — طريقة الوحى — نزول القرآن وتدوينه — اسماء السور وترتيبها — قراءات القرآن — فضائل القرآن — القرآن والعلم — فضائل قراءة القرآن وحكم التطريب فى ادائه والتكسب به .

ج ٢٥ خصائص القرآن والاصول التى جاء بها لخير الناس فى الدنيا والآخرة — اعجاز القرآن ومظاهر الاعجاز — معجزات الرسل فى ميدان المقارنة .

ج ٢٦ غير العرب والاعجاز البلاغى للقرآن — وجوه الاعجاز فى القرآن — مواجهة واقعية بين العرب والقرآن — التكرار فى القرآن : اسراره واعجازه .

ج ٣٤و٣٥ (ترقيم مؤقت ، وفى الطبعة الثانية ان شاء الله سياخذان رقم ٢٧ و ٢٨ وتتسلسل الأرقام بعد ذلك) .

الأخلاق الاسلامية من القرآن الكريم

جمع الآيات القرآنية عن الأخلاق ، وتصنيفها ، وشرحها شرحا ميسرا

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم : (٧ أجزاء)

ج ٢٧ دراسات عن القصص فى القرآن — قصة أصحاب الكهف .

ج ٢٨ قصة الرجلين والجنتين — قصة ذى القرنين ويأجوج ومأجوج .

ج ٢٩ قصة موسى والخضر — قصة اصحاب الجنة .

ج ٣٠ قصة عزير — قصة أيوب عليه السلام

ج ٣١ قصة قارون — قصة اصحاب الأخدود .

ج ٣٢ قصة اسماعيل عليه السلام .

ج ٣٣ قصة يوسف عليه السلام .

المجموعة الخامسة : الدولة الأموية : تاريخ يحتاج الى انصاف :
(٤ أجزاء)

ج ٣٦ لماذا انحرف المؤرخون بتاريخ الأمويين .
نماذج من عباقرة الأمويين .

ج ٣٧ اتجاهات حضارية من صنع الأمويين .
ج ٣٨ اتساع العالم الاسلامى يد من ايادى الأمويين .
ج ٣٩ نشاط الشيعة فى العهد الأموى ، وقصة استشهاد الأمام الحسين .

المجموعة السادسة : الاسلام والمراة :

ج ٤٠ المراة فى الحضارات القديمة .
المراة فى أوربا خلال العصر الوسيط .
ماذا قدم الاسلام للمراة ؟ .

ج ٤١ سيدات مسلمات : السيدة زينب اخت الامام الحسين .
ج ٤٢ سيدات مسلمات : بنتا الحسين : نفيسة وسكينة .
ج ٤٣ سيدات مسلمات : عائشة بنت طلحة .
ج ٤٤ سيدات مسلمات : رابعة العدوية .
ج ٤٥ زيجات شهيرة فى التاريخ الاسلامى : بوران — قطر الندى .

(الأجزاء التالية ستظهر تباعا ان شاء الله)

(لم تدخل اعداد « المكتبة الاسلامية » ضمن العدد الخاص بكتب للمؤلفة)

كتب للمؤلف

ثالثا : مقـــارنة الأديــــان

سلسلة من الكتب فى مقارنة الأديان ، تعتمـد على ادق المراجـع بمختلف اللغات ، وتمتاز دراستها بالحيدة والعمق ، وتشمل :

٢١ — **الجزء الأول : اليهـودية :** (الطبعة السابعة)

— دراسة لشتى المسائل اليهودية : اليهـود فى التاريخ من عهـد ابراهيم حتى الآن : الصهيونية ، انبياء بنى اسرائيل، عقيدة بنى اسرائيل، يهوه اله بنى اسرائيل ، التعدد والتوحيد فى الفكر اليهودى ، التابوت والهيكل ، الكهنة والقرابين ...

— مصادر الفكر اليهودى : العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء صهيون .

— اليهود فى الظلام : الماسونية ، والروتارى ، الاغتيال ، التجسس ، البابية والبهائية .

— من صور التشريع فى اليهودية .

٢٢ — **الجزء الثانى : المسيحية :** (الطبعة الثامنة)

— المسيح والمسيحية فى نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة .

— بولس واضع المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر .

— شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، المجامع ، طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والاديرة ، خرافة ظهور العذراء فى كنيسة الزيتون ، حركة الاصلاح الدينى ونتائجها ونقدهـا .

٢٣ — **الجزء الثالث : الاســلام :** (الطبعة الثامنة)

— الله فى التفكير الاسلامى ، النبوة فى التفكير الاسلامى ، غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، الدين المعاملة ، المراة فى الاسلام ، الرق وموقف الاسلام منـه ، السياسة والاقتصـاد فى الاسلام .

٢٤ — **الجزء الرابع : اديان الهند الكبرى :** (الطبعة السابعة)

« الهندوسية — الجينية — البوذية »

— تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات فى الهند ، الأديان فى الهند .

— دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا : مهابهارتا : يوجاواسستها ، كيتـا .

— اهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانطلاق والنرفانا ، وحدة الوجـود .

— تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعيها .

كتب للمؤلف

رابعا : كتب فى الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

٢٥ — كيف تكتب بحثا او رسالة (الطبعة السابعة عشرة)

دراسة منهجية لكتابة البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه

كتابان باللغة الانجليزية هما :

٢٦ — ISLAM : Belief - Legislation - Morals

٢٧ — History of Muslim Education

(مكتبة النهضة المصرية)

وكتب باللغة الاندونيسية والماليزية :

٢٨ — Negara dan Pemerintahan Dalam Islam

٢٩ — Masjarakat Islam

٣٠ — Hukum Islam

٣١ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam 1

٣٢ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam 11

٣٣ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam 111

٣٤ — Perbandingan Agama (Jahudi)

٣٥ — Perbandingan Agama (Masihi)

٣٦ — Perbandingan Agama (Islam)

٣٧ — Perbandingan Agama (Agama2 yang Terbeser di India : Hindu-Jaina-Buddha)

٣٨ — Sadjarah Pendidikan Islam

٣٩ — Politik dam Ekonomi Dalan Islam

٤٠ — Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam

٤١ — Perkembangan Keagamaan Dalam Islam dan Masehi

٤٢ — Perang Salib

٤٣ — Kurikulum Islam Dalam Perkembangan Sedjarah

٤٤ — Pengajian Al Quraan

٤٥ — Sedjarad Kehakiman Dalam Islam

(Pustaka National (Singapore))

كتب للمؤلف

سادسا : تعليم اللغة العربية لغير العرب

وقواعد اللغة العربية

— برنامج شامل ميسّر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
— أول سلسلة من نوعها فى المكتبة العربية تملأ هذا الفراغ .
— دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
— تضم هذه السلسة الكتابين التاليين :

٤٦ — تعليم اللغة العربية لغير العرب : (الطبعة الثالثة)

يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى : مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة والتعبير ، فالاملاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقفز بالطالب الى مرحلة متقدمة فى القراءة والمحادثة والكتابة ، مستعملا فى هذه المرحلة موضوعات جذابة من الفكر الاسلامى والعربى اختيرت من امهات الكتب العربية ثم صيغت فى اسلوب مناسب ، مع اسئلة وتمرينات مفيدة .

٤٧ — قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها : (الطبعة الثالثة)

عرض لجميع ابواب النحو العربى بطريقة تربوية سهلة
ودراسة واضحة لأهم ابواب الصرف

هذا الكتاب ضرورى للمثقف العربى وغير العربى

كتب نفدت ولن يعـــاد طبعها

٤٨ — فى قصور الخلفاء العباسيين :
أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .

٤٩ — مصر فى حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :
واكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .

٥٠ — الحكومة والدولة فى الاسلام :
واكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٣ من هذه القائمة .

٥١ — الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحى .

٥٢ — النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور واثر الفكر الاسلامى فيها .
واكثر مادة هذين الكتابين تضمنها الكتاب رقم ١٤ من هذه القائمة .

محتويات الكتـــاب

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع		الصفحة
العبادات امـــور تعبـــدية ليس من الضرورى وضــــــوح فلســـفتها	١٧١	
غير المسلمين فى المجتمع الاســـلامى		١٧٣ — ١٨١
الجزية ولمـــاذا ومتى تدفع	١٧٩	
الدين المعـــــاملة :		١٨٢ — ١٩٧
الرجل الكامل فى القرآن	١٨٣	
الاســـلام والمســـاواة	١٨٤	
الاســـلام والحرية	١٨٧	
الوان اخرى من اخلاق الاسلام	١٩٢	
انتشار الاســـلام بين الدعـــوة والقـــوة :		١٩٧ — ٢١٢
وما الدليل على ذلك ؟ هل انتشر الاسلام بالدعوة او بالقوة ؟	١٩٧	
لماذا حدثت الحروب بين المسلمين وغيرهم ؟	٢٠٣	
علاقة الحالة الاقتصـــادية لـــدى المسلمين بالحروب	٢٠٨	
المـــــراة		٢١٣ — ٢٣٧
مقـــــدمة	٢١٣	
المراة فى غير حمى الاسلام	٢١٦	
فى الامبراطورية الرومانيه	٢١٦	
وعنـــد اليونان	٢١٦	
وفى شرائع الهنـــــد	٢١٦	

الموضـــــــوع		الصفحة

الموضـــــــــوع | الصفحة

الموضـــــــــوع الصفحة

مقـــدمة الطبعة الثامنـة

يارب ••• لك شـكر المدين لك ، المعترف بفضلك ، الذاكر الذى لا ينسى عونك ، والشاكر الذى غمرته نعمك •

يارب ••• أنت الذى وجهتنى لهذه الدراسة ، وقدتنى وأنا أكافح فى خضمها ، وبعثت شعاعاً من نورك فأنار لى السبيل ، فإذا كل غامض يبين ، وكل مغلق ينبلج ، وكل صعب يهـون •

يارب ••• لقد سرت فى الطريق الذى فتحته لى عنايتك ، وكان تأييدك يسير معى ، فتخطيت العقبات الجسام ، ورأيت جهدى يثمر ، وعملى يكبر ، فصدر الجزء بعد الجزء من هـذه السلسلة ، وأقبل الناس عليها إقبالا جعلنى أحس بعظم المسئولية فأواصل الجهد ، وأحس بكبير فضـلك فأكرر الثناء والاعتراف بالجميل •

يارب ، أرجوك مزيداً من العون أبذله لإرضائك ، ومزيداً من التوفيق يدفعنى للمزيد من الشـكر والثناء •

وقـد أسعدنى أن هـذا العلم عرف طريقه لعقول الناس ومكتباتهم وبيوتهم ، فلا يكاد يخـلو بيت من بيـوت المثقفين من كتب « مقـارنة الأديان » ودخل هـذا العلم كثيراً من الجامعات والمعاهد ، وقد شرفت بتدريسـه بكلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر ، وبتدريسه فى معهـد الدراسات الإسلامية • وكان إقبال الطـلاب عليه يفوق كل تفاؤل •

وترجمت أجزاء هـذه السلسلة الى عـدة لغات ، ولذلك نطمع فى مزيد من الانتفاع بهـا فى جوانب الأرض •

وهـذه الطبعة تزدان بكثـير من التحقيقات المهمـة ، وبكثير من الزيادات ، سيراها القارىء فى أمكنتها من هـذا الكتاب ، وبها اعترافات

واسعة دوّنها غير المسلمين عن سماحة الإسلام وعظمته ، وسعة انتشاره في العهـد الحاضر ، وأنه يمثّل أرقى حضارة عرفها الجنس البشرى.

مجلة مسيحية تتحـدث عن الإسلام :

ومن ذلك ما نشرته مجلة « الحقيقة » المسيحية التى تصدر عن أَشْهَر الجماعات المسيحية بأمريكا ، وتطبع أكثر من خمسة ملايين من النسـخ ، توزع على كافة أنحاء العالم ، فقد نشرت هذه المجلة مقالا فى عدد خاص أصـدرته سـنة ١٩٨٣ جـاء فيه : إن الإسـلام أصـبح قوة فعـالة فى العـالم ، وهو ينتشر انتشارا سريعا حتى أصـبح هناك فرد مسـلم من بين كل خمسة أشخاص من سكان العالم ، وهـذا جعل عدد المسلمين يربو على ٨٠٠ مليون نسمة فى خمسة وسبعين قطرا من أقطار العالم •

وركزت تلك المجلة على نقطة انتشار الدين الاسلامى الحنيف انتشارا يفوق انتشار المسيحية فى الأقطار الأفريقية فيما وراء الصحراء ، بنسبة عشرة أضعاف ومضـت المجـلة قائلة : « انه قد حان الوقت لغير المسلمين فى جميع أنحاء العالم أن يطرحوا جانبا الخرافات والأفكار الخاطئة التى حملوها سابقا عن الدين الاسلامى الذى لم يعد مجرد مبادىء وأفـكار وعقائد روحية فحسب بل غـدا ، بالاضافة الى ذلك ، قوة سياسية وثقافية واجتماعية لهـا وزنها الذى لا يمكن غض النظر عنها فى تسـيير مقادير وأمور العالم حاضرا ومستقبلا وأضافت المجـلة إن الاسـلام بالنسـبة لمعتنقيه فى جميع أنحاء العالم ، إنما هو نظام حياة يومية كاملة لا تتجزأ ، وبينما نرى المسيحيين لا يعرفون الطريق الى كنائسهم للتعبد فيها إلا أيام الأحـد لبعضـهم ولفترة وجيزة ، فأن الوضـع يختلف بالنسبة للمسلمين الذين هم على اتصال روحى دائم بالخالق الأعلى يوميا من خـلال أداء فرائض الصـلوات الخمس اليومية وصـلاة الجمعـة التى تعتبر مؤتمرا أسبوعيا لمسلمى العالم يجتمعون فيه للصـلاة وتبادل الآراء حول ما يهمهم فى حياتهم اليومية من قريب أو بعيـد » •

وذكرت المجلة « أن الإسلام بمبادئه وبأنظمته الدينية والتشريعية جعل نسبة الجريمة فى العالم الاسلامى أقل منها بكثير مما هو عليه الحال فى العالم الغربى ، وكذلك الأمراض الاجتماعية التى غدا الغرب يعانى منها بشكل ملحوظ بحيث أصبحت تهدده بالانحلال وبالتفسخ ، كالمسكرات والمشروبات الروحية بأنواعها وتعاطى المخدرات ، ورغم محاولات وضع التشريعات والأنظمة والقوانين الوضعية ، وإنفاق مبالغ مالية هائلة لهذا الغرض ، فإننا نرى العكس تماما بالنسبة للعالم الاسلامى حيث أن الاسلام قد سبق المشرعين الغربيين منذ القرن السابع الميلادى عندما جاءت التشريعات والأنظمة والقوانين الاسلامية السماوية بالحلول الناجحة لمثل تلك الأمراض ونجحت فيها » •

وتجىء هذه الطبعة والمسلمون يتعرضون للكثير من العدوان فى فلسطين ، وفى أفغانستان ، وأرتيريا ، والاتحاد السوفييتى ، ولكن الإسلام فى الوقت نفسه يشقُّ الطريق فى استراليا وكندا والولايات المتحدة الأمريكية ودول أوربا •

واعتقادى أن النصر أو الهزيمة فى أيدى المسلمين ، فاذا عرف المسلم التزاماته ومسئولياته نال النصر والفوز المبين •

واعتقادى أن هذا الكتاب — فى هذا الوقت — سلاح يعرف به المسلم دينه ويعرف واجبه ، وقوة الدين — عند المسلم — ستحمى الدم والمال والعرض ، أما اذا ضعف الدين عند المسلمين فإن دماءهم ستراق ، وتتعرض أموالهم وأعراضهم للعدوان ، ولعلنا بذلك قد ذكّرنا من يحتاج للذكرى •

والله المسئول أن ينفع بهذا الكتاب ، ويجعله وسيلة من وسائل القربى إليه ، والتجمع حول دينه الحنيف ، إنه سميع مجيب •

دكتور أحمد شلبى

المعادى فى ٢٢ من يناير سنة ١٩٨٥

مقـــدمة الطبعـــة الأولى

أوفدتنى جامعة القاهرة والمؤتمر الإسلامى أستاذاً للدراسات الإسلامية بجامعة إندونيسيا ، ثم أسند الىَّ منصب « مدير المركز الثقافى المصرى بجاكرتا » ، ومنذ نزلتُ الأرض الخضراء (إندونيسيا) فى يوليو سنة ١٩٥٥ بدأت أدرس البيئة التى حللتُ بها لأتعرف مطالبها ، وسرعان ما وجـــدت مشكلتين كبيرتين تتطلبان حـــلاً سريعاً ، وأدركت أن نجاحى فى عمـــلى يتوقف على التغلب عليهما ، وهاتان المشكلتان هما :

١ ــ تعليم اللغـــة العربية لغير العرب .

٢ ــ تقـــديم الإســـلام لغير المسلمين .

ويبدو أننا فى العالم العربى لم نهتم قط ، أو على أحسن الظنون لم نهتم اهتماماً كافياً بهاتين المشكلتين ، فقـــد اتجهتْ عناية المربين الى تعليم اللغـــة العربية لأطفالنا العرب فى مدارســـنا العربية ، فظهرت ولا تزال تظهر طرق متعددة لذلك ، أما تعليم اللغـــة العربية لغير العرب فلم ينل من عناية الباحثين ما يستحق الذكر ، وكان الطالب من الباكستان أو إندونيسيا أو إفريقية يأتى للقاهرة ليتعلم اللغـــة العربية ، فلا يجـــد مناصاً من أن يلتحق بالأزهر أو بكلية دار العـــلوم ، حيث يجلس مع الطلبة العرب ، ويتعلم معهم ألفية ابن مالك والخضرى والســـعد فى البلاغة وما ماثلها ، فاذا عاد لبلاده أخـــذ يعلم اللغة العربية كما تعلمها ، فلجأ الى ألفيـــة ابن مالك والى الخضرى ... ، وهيهات أن يجـــد غيرُ العرب فى مثـــل هـــذه الكتب ما يشفى الغـــلة أو يعـــلّم لغـــة القرآن .

هـــذا من جهة اللغة العربية ، ومن جهة الإسلام فقد وقف الأزهر حيال ذلك منبراً عملاقاً ، حمل عبء الثقافة الإسلامية أكثر من ألف عام ، ولكن الأزهر كان كما لا يزال حتى الآن موئلا للمسلمين ، فليس فيه طالب واحد غير مسلم ، وكان المسلم يلتحق به ليتلقى فيه علوم التفسير والحديث

والفقه وما ماثلها ، فاتجاه الأزهر هو تقديم الإسلام للمسلمين ، بل قل إنه تخصّص فى تقديم الإسلام للمسلمين العرب منذ وصد أبوابه فى وجه اللغات الأجنبية ، ولم يضع أساتذة الأزهر وسيلة لتقديم الإسلام لملايين اللادينيين أو لغير المسلمين من أتباع الديانات الأخرى (١) .

ذلك بإيجاز هو الوضع الذى واجهته عندما نزلت إندونيسيا ، وكان علىّ أن أضع — بقدر طاقتى — الدواء لهذا الداء ، فألّفت لتعليم اللغة العربية لغير العرب كتباً لقيت كثيرا من الرواج وأسدَت كثيراً من الخير لسكان إندونيسيا العزيزة ، واتجهت بكل حولى الى ديننا الحنيف أبحث وأكتب رجاء أن أقدمه الى الملايين من سكان الشرق الأقصى عامة وسكان إندونيسيا بصفة خاصة ، فقد قابلت — بجانب المسلمين المثقفين هناك — ملايين البشر الذين اعتنقوا الإسلام اعتناقاً سطحياً دون أن يتعمقوا فيه ، أو وقفوا أمامه مترددين يريدون أن يعرفوه ولا يجدون اليه السبيل ، ومن أجل هذا كتبت مجموعة من الكتب فى التربية الإسلامية ، والحضارة الإسلامية ، والتاريخ الإسلامى ، والمجتمع الاسلامى وغير هذه من الأبحاث الاسلامية .

وكنت فى نفس الوقت معنيًا بإخراج كتاب « المسيحية » من سلسلة « مقارنة الأديان » ، أردت به أن أعرّف بالمسيحية الحقيقية ، وما أدخلته عليها الأجيال من انحراف ، حتى صارت الى وضعها الحالى ، لأوقف بذلك نشاط المبشّرين فى تلك البقاع ، ولما صدر كتاب « المسيحية » لقى إقبالا رائعاً ، وأدّى مهمته خير أداة ، فرغب الىّ كثيرون أن أخرج فى

---

(١) صدر قانون جديد بتطوير الأزهر وجعله جامعة تشمل كل فروع الثقافات ، ولكن هذا القانون — للأسف — لم يشمل مباحث الأزهر الرئيسية وهى اللغة العربية والدراسات الاسلامية ، فلا شك ان دراسة هذين الموضوعين الكبيرين بالأزهر تحتاج الى عناية بل قل ثورة تزيل القديم الواهى وتشيد على اثره نظما جديدة تتناسب مع اهمية هذين الموضوعين ، ومع المسئولية الكبرى التى تحملها مصر أمام العالم الذى يتطلع اليها كأعظم مركز ثقافى اسلامى (اقرأ رأى المؤلف فى قانون تطوير الأزهر بكتابه « رحلة حياة ») .

سلسلة مقارنة الأديان كتاباً عن الإسلام ، يشمل أهم مباحثه واتجاهاته في تركيز ودقة .

وبدأت أفكر في الموضـوع ...

وفي خـلال التفكير أخذت أقرأ ما كتب عن الإسلام في المراجع التي عنيت بمقارنة الأديان ، وهي مراجع قليلة ، وأكثرها من وضع الغربيين ، ومن أهم ما قرأت في هـذا الموضـوع :

Berry : Religions of the World
William Patoun : Great Religions of the World
Encyclopaedia of Religions and Ethies

وقـد بدا لي من القراءة في هـذا الموضـوع أن أغلب ما دونه الغربيون عن الإسلام مجاف للحق ، وأكثره نتيجة لصـدأ تراكم على عيونهم ، فغطى عليهم الإسلام ، وجعلهم يحتدون عليه ، وينسـبون له ألوان النقائص ، ويتلمسون في مسائله العيـوب ...

وعدت أبحث في المراجع العربية فوجدتها قليلة أو نادرة ، فقد إتجه المسلمون منذ أقدم عصورهم كما قلنا آنفا الى العناية بالفقه وأصـوله ، والحديث ومصطلحه ، وتفسير القرآن والاتجاهات فيه ، والتوحيد والمنطق ، وعلوم اللغـة ، ولم يهتموا اهتماما ملحوظا بكتابة كتاب عن الإسلام يشمل مبادئه وأهم مسائله مع مقارنة بعضها بنظائرها في الأديان الأخرى .

وقـد دفعني هذا الى كتابة كتاب عن الإسلام لعله يسهم مع أمثاله من الكتب التي طرقت هـذا الباب في إزالة الصدأ عن العيون ، وفي حسن القيادة والتوجيه ، فاعتقادي أن هذا الموضـوع ينبغي أن يكون في مطلع الدراسات الإسلامية وأساسا من أسسها ، ثم تجيء بعـده الموضوعات السالفة الذكر عن نظم الإسلام وفقهه وتشريعه .

وبدأت أعمل وكنت أظن أول الأمر أن مباحث هـذا الكتاب ستقتبس من كتبي التي أشرت اليها آنفا ، ولكن سرعان ما أدركت أن كتاباً كهذا

لابدَّ فيه من جـديد لم يَسْبِقْ لى أن كتبته فى كتبى السابقة ، إذ أن هـذه الكتب لم تشمل كل ما يلزم إيراده فى كتاب عن « الإسلام » فى موضوع مقارنة الأديان ، فأخذت أكتب الموضوعات الجديدة كموضـوع « الله فى التفكير الإسلامى » و « النبوة » و « دعوة فى الميزان » و « المرأة » و « الرق » وموقف الإسلام منه » ... كما بدأت أختصر ما سبق أن كتبته بإفاضـة كنظام الحكومة فى الفكر الإسلامى وكالنظام الاقتصـادى فى الإسلام ... وجاء هـذا الكتاب نتيجة هـذا الجهـد .

وأشهد لقد حاولت بقوة وثبات أن أجعل هذا البحث علمياً لا دينياً ، أى أن أجعله غير متأثر بعاطفتى واعتناقى لهـذا الدين ، وسرت فيه على النحو الذى أتبعته فى بحث الأديان التى أتممت بحثها ، فكنت أقرأ المراجع الأصلية وأجمع المادة منها وأعرضها دون تحيز . فإن رأى القارئ ما يظنه مخالفاً هذا ، أى إن رأى ثناءً وتقديراً فليدرك أن الحقائق والمقدمات كثيراً ما تقود الى الثناء والتقدير ، فاذا قلت مثلا أن الإسلام انتشر بين جماعات مختلفة اللون واللغة والثقافة بسرعة فائقة لسهولة مبادئه ، فتلك حقيقة من الحقائق التى لم ينكرها أحـد ، واذا مجدت القول بوحدانية الله فلأن أى باحث عالم لابد أن يميل للتوحيد ويحتقر التعدد والأصنام ، فلم يكن الطعنُ قط هدفاً لكاتب يحترم قلمه ويحترم نفسه ، فالهدف هو الحقيقة وحدها ، فاذا عثَرَ عليها الكاتب أعلنها فى سرور وغبطة ، وعلق عليها بما تستحقه من ثناء وتأييد ، أو من معارضة وتفنيد .

وعلى كل حال فتلك المحاولة — محاولة البحث العلمى دون تحيز — كانت هدفى منذ بدأت العمل حتى أتممته ، وأرجو أن تكون هذه المحاولة قد نجحت ، لأنه قد يَشُقُّ على الإنسان أن يخلع نفسه من عقيدته ، ولكنى على كل حال لم أكتب هـذا الكتاب للدفاع عن الإسلام ، وإنما كتبته بحثاً علمياً كرفاقه من الأجزاء الأخرى فى هـذه السلسلة .

* * *

الإسلام دواء لما تعانيه البشرية الآن :

وجدير بنا أن نوجه الآن جهدا كبيراً لشرح الإسلام فى عهد النور الذى أطل على العالم الإسلامى ، وفى عهد الاضطراب الذى تجتازه الإنسانية فى الوقت الحاضر ، والذى أعتقده ويعتقده الكثيرون من المنصفين أن الإسلام فقط هو الذى يحمل الدواء لما أصاب الإنسانية من مشكلات وآلام ، لقد بدأتْ رسالة محمد — كما سنوضح فيما بعد — وكانت مدنيةُ العالم على وشك التفكك والانحلال ، فانقذتْها هذه الرسالة من دمار محقق ، والآن ، نجد التاريخ يعيد نفسه ، فَقَوَى الشر تتحفز للقضاء على الحضارة الإنسانية التى استنفدت ألوانا ضخمة من الجهود لإقامة صرحها ، فلْتَتَقدَّم رسالة محمد مرة أخرى لعلها تنقذ العالم الآن كما أنقذته من قبل .

والإقبال على الإسلام فى العهد الحاضر يقوّى الاعتقاد أن الاسلام دين المستقبل ، وهذه حقيقة يدركها كل باحث فى انتشار الأديان ، فالذى لا شك فيه أن جهود المبشرين بالدين المسيحى أقرب الى الفشل ، إذ أن التكاليف التى يتكلفها هؤلاء المبشرون باهظة لا تناسب ما يحصلون عليه من نتائج ، بيد أن الدين الإسلامى ينتشر ويزدهر دون أن يُعرف دعاته ، ودون أن تتكتل جهود لخدمته ، وقد انتشر الاسلام فى عهد الظلام فما بالك بعهد النور ، ومن الواضح أن الاسلام لا ينتشر فقط فى آسيا وإفريقية ، ولكنه أيضا يشق طريقه فى معاقل المسيحية بأوربا وأمريكا ، وقد أثبتنا فى المقدمة تأكيدا لذلك نشرته مجلة مسيحية .

ويطيب لبعض الناس أن يقتبسوا إحصائيات عن أتباع الديانات المختلفة ، ونقلا عن The World Almanac U.S.A. تبدو الديانات الخمسة الكبرى وأتباعها كما يلى :

١ — المسيحيون ٦٨٢ر٤٠٠ر٠٠٠

٢ — الكنفوشيوس ٣٥٠ر٦٠٠ر٠٠٠

٣ — الهندوس ٢٣٠ر١٥٠ر٠٠٠

٤ — المسلمون ٠٠٠ر١٢٠ر٢٠٩

٥ — البوذيون ٠٠٠ر١٥٠

وهذه الإحصائية واضحة الخطأ من عدة جهات ، ولولا الاتجاه لاحترام الأبحاث العلمية لقلنا إن هذا الخطأ متعمَّد بالنسبة للإسلام ، ولكنا سنحاول أن نصحح هذه الاحصائية معتمدين على باحث أمريكى أيضاً حتى لا نُتَّهَمَ بالمبالغة ، والمرجع الذى سنعتمد عليه مرجع حديث ، هو أطلس التاريخ الإسلامى الذى وضعه Harry W. Hazard وفيه يقرر أن المسلمين فى العهد الحاضر (عند وضع المؤلف سنة ١٩٥٠) ٣٧٠ مليوناً . ومع هذا فلا يزال هذا الرقم أقل بكثير جدا مما يعتقده الباحثون المسلمون ، وعلى كل فإن الرقم الذى وضعه Harard بناء على الاحصائيات التى جمعها يجعل الاسلام ثانى الديانات فى العالم (بعد المسيحية) .

وقد ذكرت المجلة المسيحية التى اقتبسنا فقرات منها فى مقدمة هــذه الطبعة أن المسلمين يبلغ عددهم ٨٠٠ مليون نسمة وهو رقم أقرب للحقيقة .

ثم إن الحقيقة التى يعترف بها المسيحيون أنفسهم أن المسلمين أكثر جــداً من المسيحيين تمسكا بدينهم واحتراماً له ، ولو أخرجنا من أتباع الديانات العالميــة كلَّ الذين يَنْتَسِبون الى الأديان دون أن يحترموها أو ينفّذوا طقوسها ، لتهاوتْ هذه الملايين التى تذكر أمام المسيحية أو الهندوكية أو الكنفوشية أو البوذية ، ولم يبق إلا الإسلام يحمل رقماً فريداً بين أتباع الديانات المختلفة .

لهذه الحقائق أيضاً اتجهت لأن أكتب كتاباً عن الإسلام ، أخدم به دينى وأخدم البشرية كلها ، وكتابة كتاب عن الإسلام فى موضوع مقارنة الأديان تختلف عن كتابة كتاب عن المسيحية فى الموضوع نفسه ، ذلك لأن المسيحين شغلوا أنفسهم بموضوعات غربية استنفدت كل جهد الباحثين ،

حتى بدت المسيحية كلها كأنها بحث عن ألوهية المسيح ، وعن الكتاب المقدس وما حوله من آراء ، وعن الخطيئة الأولى وصلب المسيح للتكفير عن هذه الخطيئة .

ولكنْ كان الإسلام على النقيض من ذلك ، فالله وحده هو الإله ، وليس محمد إلا بشراً رسولا ، والقرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو ثابت لا شبهة حوله ، وهو كلام الله وليس منسوباً لأحد كما نسبت الأناجيل الى متى ومرقص ويوحنا ، ويشمل القرآن الكريم توضيح أساسَىْ الإسلام ، وهما العقيدة الإسلامية وشريعة الاسلام بما فيها من عبادات ومعاملات ، وكلما أخطأ المسلمون طريق الهداية عادوا الى القرآن فوجدوا فيه ما يعيدهم الى النور ، وسيمدنا هذا الذكر الحكيم بزاد وفير فى أبحاثنا التى سنعرض لها .

وبالإضافة الى هذا فليس فى الإسلام اعتقاد بخطيئة توارثها البشر ، لأنه بناء على الفكر الاسلامى لا تزر وازرة وِزْر أخرى ، وليس فى الاسلام سلطات الهية للحاكم ، وبالتالى سوء استعمال هذه السلطات ، ومن أجل هذا يُعْفَى الكاتب عن الاسلام من هذا العناء ، فتتاح له الفرصة ليوجه كل جهوده للحديث عن نظم الاسلام وأفكاره ، وأن يتكلم من أول كلمة الى آخر كلمة عن موضوعات ذات بال .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فالاسلام دين ودولة ومن هنا شمل الحديث عن الاسلام مشكلات الانسان حتى العصر الذى يعيش فيه ، ويقدم الاسلام حلولا لكل هذه المشكلات .

ولا نزاع أن الباحث المنصف سيسرع بالهتاف للاسلام عندما يقارن التفكير الاسلامى فى موضوع « الله » بالتفكير المسيحى أو اليهودى فى الموضوع نفسه ، وكذلك فى موضوع « النبوة » و « الروح والمادة فى

التفكير الاسلامى » و « فلسفة العبادات فى الاســلام » و « المــرأة » و « الدين المعاملة » و « الرق » وغيرها من الموضوعات التى ستظهر جلال الاســلام وعظمته بين سائر الأديان والمعتقدات •

رباه ! حقق بهذا الكتاب الأمل ، واجعله خالصاً لوجهك الكريم •

جاكرتا فى الرابع من ابريل سنة ١٩٦١ •

دكتور أحمد شلبى

* * *

تطور الرسالات
وعمر الجنس البشرى

يدرك الباحث فى مقارنة الأديان حقيقة كبيرة الأهمية ، هى أن الجنس البشرى بدأ كما يبدأ الطفل أقرب الى البدائية والبساطة ، ثم نما الجنس البشرى ونمت أفكاره ، فوصل الى ما يمكن أن نسميه مرحلة صبا البشرية ، ثم نما مرة أخرى فوصل الى مرحلة يمكن أن تعد مرحلة شباب البشرية .

وكانت الرسالات تناسب كل طور من هذه الأطوار ، ولا نزاع أن مصدر الرسالات هو الله العلى العظيم ذو الجاه والسلطان ، ولكنه جلت قدرته كان يعطى الدواء بقدر طاقة المريض ، فكان يعطى البشرية من الهدى والتوجيه ما تحتمله البشرية ، وما يناسب عودها الذى بدأ ضعيفاً ثم اشتد رويداً رويداً حتى اكتمل نموه .

تلك حقيقة واضحة تمام الوضوح لكل من يعنى بدراسة الأديان وعلاقتها بالجنس البشرى ، وقد أشار الأستاذ الإمام محمد عبده الى هذه الحقيقة فى كتابه « رسالة التوحيد » فذكر أن الأديان الأولى خاطبت الحس يوم كانت الإنسانية فى طور الطفولة ، لا يعرف الإنسان فيها إلا ما يقع تحت حسه ، ولا يتناول بذهنه من المعانى ما بعد من لمسه .

فلما سار ركب الإنسانية ، وجربت وكسبت ، وتخالفت واتفقت ، وتقلبت فى السعادة والشقاء أياماً وأياماً ، ونما بها الوجدان ، وبدت العواطف ، جاء دين يتحدث عن الزهادة وعن الصفاء وملكوت الله .

ولكن الإنسانية فى صراعها لم تستطع أن تعيش على الإيثار ، ولم يطل مقامها فى الصفاء ، فراحت تتعارك وحلت القطيعة محل التراحم ، والتخاصم مكان المسالمة ، فجاء دين ينظم الشئون كلها ، ويرعى الحس

والعاطفة ، ويدرس العقلَ والقلبَ ، وينظم للناس شئون دنياهم وآخرتهم (١) .

ويقول الأستاذ سيد قطب فى تفسير قوله تعالى : « مصدقاً لما بين يديه » (٢) : هذا الكتاب الذى نزل بالحق يصدق ما بين يديه من الديانات التى سبقته وامتدت الى زمانه ، يصدقها فى أصولها ، فهو صورة من صور الحق التى جاء بها الرسل مناسبةً لزمانهم ، محققةً لأغراضها فى ذلك الزمان ، وكلما تغيرت الحاجة جاء طور من الديانة جديد ، يتفق فى أصله ويختلف فى فروعه تدرجاً مع الحاجات . مع تصديق اللاحق للسابق فى أصل الوحدانية الكبير (٣) .

وقد قمت — بحكم عملى فى مقارنة الأديان — بدراسة الأديان السماوية أو أكثرها ، وبدراسة الأديان الوضعية أو أشهرها ، وظهرت لى هذه الحقيقة واضحة ، وأريد هنا أن أبرزها وأن أسير معها فى ركب الجنسِ البشرى لأصفه وهو يتطور وتتطور معه الرسالات .

وينبغى أن يكون واضحاً أن الجنس البشرى لم يتطور دفعةً واحدة فى وقت واحد ، وإنما ساعدت عوامل خاصة على تطور جزء من الجنس البشرى ، وبقيت أجزاء أخرى فى تخلفها وتأخرها ، وهكذا دواليك ، وبذلك وصل جزء من البشرية الى مرحلة الشباب ، وكان جزء آخر فى نفس الوقت لا يزال فى مرحلة الصبا ، فى حين كان هناك جزء ثالث لا يزال فى مرحلة الطفولة يعيش عيشة بدائية أو ما يقرب من البدائية .

وربما صح القول أن هذه الأقسام كلها لا تزال تعيش فى العهد الحاضر ، فقد رفعَتْ المدنية بعض أجزاء من الجنس البشرى الى غاية

---

(١) اقرا رسالة التوحيد ص ١٥٤ وما بعدها .
(٢) سورة آل عمران : الآية الثالثة .
(٣) فى ظلال القرآن : الجزء الثالث ص ٥٣ — ٥٤ .

من الرقى ، ولا يزال هناك آخرون يَحْبُون ، نصيبهم فى المدنية محدود ، ومجالهم فى التطور ضئيل ، وبين هؤلاء وأولئك أقسام وأقسام .

الديانات السماوية بالشرق الأوسط ، لماذا ؟

ولعل حقاً أن يقال إن الديانات السماوية تركزت فى منطقة الشرق الأوسط لهذا السبب ، فقد شهدت هذه المنطقة أرقى حضارات العالم منذ أقدم العصور ، وكانت حضاراتها أدبية وعلمية فهيأت شعوبها لتلقى الرسالات ولسنا فى حاجة لنذكر هنا حضارة الفراعنة المتلوّنة الفسيحة ، وكذلك حضارة الفينيقيين ، والبابليين ، والأشوريين .

وفى بعض أجزاء الهند والصين ظهرت حضارات أدبية ، فظهرت بجانبها فلسفات وأفكار اتخذت فيما بعد شكل الدين كالبوذية والكونفوشية .

أما بقاع العالم المتخلفة فقد قامت بها أفكار بسيطة تناسب الطور الذى كان يمر به سكان هذه الأقاليم .

* * *

نعود بعد ذلك للرسالات السماوية لنبين ما سبق أن أشرنا اليه من أنها — وإن كانت قد جاءت لأرقى جماعة بين جماعات البشرية — كانت تختلف فى درجة رقيها تبعاً لعصر المرسل إليهم . وفى هذا المجال يمكن أن نقسّم مراحل هذه الرسالات ثلاثة أقسام تقريباً ، فالقسم الأول يمثل طفولة الجنس البشرى وذلك يشمل الفترة التى عبرتها البشرية من آدم الى نوح حتى ابراهيم ، والقسم الثانى يمثل صبا الجنس البشرى حيث وُجِدَ أنبياء بنى اسرائيل وبخاصة موسى وعيسى ، والقسم الثالث يمثل شباب الجنس البشرى حيث رسالة محمد .

وهناك ملامح خاصة لكل قسم من هذه الأقسام .

المرحلة الأولى :

ففى القسم الأول كانت الدعوة بسيطة ، ومظاهر ذلك تبدو فيما يلى :

١ — الدعوة محـــدودة بجماعة صغيرة هى جماعة الرســـول كجماعة لوط وجماعة ابراهيم ، ولا تتعـــدى هؤلاء لسواهم •

٢ — الدعوة عبارة عن التوحيد وترك عبادة الأوثان والأصـــنام ، دون تنظيمات وتفاصـــيل أخرى ، إلا ما يكون من مرض اجتماعى تتفشّى فتنهى عنـــه الدعوة وتحاربه •

والآيات القرآنية التى تتحـــدث عن هـــذه الرسالات توضّح هـــذين الاتجاهين تمام الإيضاح ، إقرأ هـــذه الآيات :

— لقد أرسلنا نوحاً الى قومه فقال يا قوم اعبـــدوا الله ما لكم من إله غـــيره (١) •

— ولقد أرسلنا نوحـــاً الى قومه إنى لكم نذير مبين ألا تعبـــدوا إلا الله (٢) •

— ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بهـــا من أحـــد من العالمـــين (٣) •

— والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم أعبـــدوا الله ما لـــكم من إله غـــيره ، قـــد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم (٤) •

— والى ثمود أخاهم صـــالحاً (٥) •

— والى عاد أخاهم هـــوداً (٦) •

— وإذ قال ابراهيم لأبيه وقومه (٧) •

---

(١) سورة الأعراف الآية ٥٩ • (٢) سورة هـــود الآية ٢٥ •
(٣) سورة الأعراف الآية ٨٠ •
(٤) سورة الأعراف الآية ٨٤ وسورة هود الآية ٨٤ وسورة الشـــعراء الآية ١٨٣ •
(٥) سورة الأعراف الآية ٧٣ • (٦) سورة هـــود الآية ٥٠ •
(٧) سورة الزخرف الآية ٢٦ •

ومن نتائج بعث الرسول لجماعة خاصة لا يتعداها ، وُجِدَ رسولان لجماعتين فى وقت واحد كابراهيم ولوط ، وكاسحق واسماعيل •

٣ — ليس للدعوة فى ذلك الحين كتب واضحة ، وإنما هى بضع نصائح وقد توجد بعض ألواح أو صحف عامة •

٤ — ليست هناك تواريخ ولا تقريبية لأديان هذه المرحلة ، فمتى كانت ديانة نوح ؟ ومتى كانت ديانة هود ؟ وهل جاء هود قبل ابراهيم أو بعده ؟ لا نعرف بوجه الدقة •

المرحلة الثانية :

ويقف القسم الثانى (صبا الجنس البشرى) بَيْنَ بَيْنَ ؛ ففيه من القسم الأول بعضُ ملامحه ، ولكنْ له ملامحُ أكثرُ تعقيداً وشمولا ، ومظاهر ذلك تبدو فيما يلى :

١ — اتسع نطاق الدعوة فشملت قبيلة متشعبة ذات فروع كبنى اسرائيل (الأسباط) •

٢ — دخلت الدعوةَ بعضُ التفاصيل والتشريعاتِ ، ففى سفر التثنية ما يلى :

— لا يقتل الآباء عن الأولاد ، ولا يقتل الأولاد عن الآباء ، كل إنسان بخطيئته يقتل (١) •

— اذا كانت خصومة بين أناس وتقدموا الى القضاء ليقضى القضاة بينهم ، فليبرروا البارَّ وليحكموا على المذنب (٢) •

---

(١) الاصحاح ٣٤ الفقرة ١٦ .
(٢) ٢٥ : ١ .

— اذا سكن إخوة معاً ومات واحد منهم وليس له ابن فلا تصير امرأة الميت الى خارج لرجل أجنبى ، أخو زوجها يتزوجها ، والبكر الذى يلده يقوم باسم أخيه الميت لئلا يمحى اسمه من اسرائيل (١) •

— لا يكن لك أوزان مختلفة ولا مكاييل مختلفة ، بل وزن واحد صحيح ومكيال واحد صحيح (٢) •

٣ — أصبح للدعوة كتاب هو التوراة أو الانجيل ولكن معانيهما فقط هى الموحى بها وصاغها البشر فى عبارات ، وقد مسَّها التحريف والضياع كما سبق القول عند الكلام عن اليهودية والمسيحية •

٤ — وقد وجدت فى هذه المرحلة تواريخ ولكنها غير دقيقة تماماً •

٥ — ولم يستطع بنو اسرائيل فى أكثر عصور هذه المرحلة أن يفهموا التوحيد فهماً واضحاً ، فَحَسِبَ أكثرُهم وحدانية الله على أن هناك إلهاً واحداً لبنى اسرائيل ، وبجانبه كانت هناك آلهة للشعوب يؤمن الاسرائيليون بوجودها ، ولكنهم يحرمون عبادتها على أبناء جنسهم (٣) •

وظلوا الى ما بعد أيام موسى عليه السلام ينسبون الى الإله أعمال الإنسان وحركاته فذكروا أنه كان يتمشى فى الجنة ، وأنه كان يصارع ويأكل ويشرب ويغشى مركبات الجال (٤) •

---

(١) ٢٥ : ٥ و ٦ •
(٢) ٢٥ : ١٣ — ١٥ •
(٣) الأستاذ عباس العقاد : الله ص ١١٥ •
(٤) المرجع السابق : ص ١٠٤ •

المرحـلة الثالثـة :

أما القسم الثالث (شباب الجنس البشرى) فله ملامح واضحة هى :

١ ــ **اتضحت وحدانية الله وحطمت الأصنام ، وفتح بالإسـلام عهـد جـديد لا يقبل الشرك فى أية صورة من صـوره ، فالصورة الإلهية فى الإسلام « فـكرة تامة » لا تسـمح لعارض من عوارض الشرك والمشابهة ، ولا تجعـل لله مثـيلا فى الحس ولا فى الضمير ، بل له المثـل الأعـلى وليس كمثله شىء** (١) ٠

٢ ــ أصبحت الدعوة عامة لكل البشرية ، وأصبح محمد رسولا للعالمين : « وما أرسناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » (٢) ٠

والدليل على عموم رسالة محمد واضـح تمام الوضوح ؛ فقـد **عمت رسالة محمد الخافقين وشملت الأبيض والأسود والأصـفر ولم يحس أحد من هؤلاء أن الدعوة لا تناسبه ولا أنها مستوردة إليه من صـنف آخر من الناس ، بل أحس كل واحـد أن الدعوة له ، وأنها تنظم كيانه وحياته** ٠

٣ ــ **ختمت الرسالات بدعوة محمد ، والدليل على ذلك واضح للغاية أيضـا ، فقد مرت القرون تلو القرون بعد محمد ، ولم يأت رسول بعـد أن طلع على العالم محمد بن عبد الله ، لقد كانت الرسـالات قبله يتلو بعضـها بعضاً ، بل كان بعضها يعاصر بعضاً كما سـبق القول ، ثم طلع محمـد بقوله إنه خاتم الأنبياء والرسل ، وصدقه الواقع أربعة عشر قرنا وليس مثل ذلك دليل** ٠

٤ ــ **دعوة محمد لها كتاب لا يأتيه الباطـل من بين يديه ولا من خـلفه تنزيل من حـكيم حميد ، فقد مرت السنون ، وكثر أعداء الإسلام ،**

---

(١) المرجع السابق ص ١١٥ ٠

(٢) سورة سبأ الآية ٢٨ ٠

ولكن القرآن بقى دون تحريف أو شبهة تحريف « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون (١) » « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ (٢) » « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين (٣) » .

٥ — يقين الرسول فى هذه المرحلة ثابت كالطود الشامخ ، لم تزعزعه الأحداث ولم تخطر له الشكوك والأوهام ، وكان يهتف فى الشدائد : ربّاه إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى .

٦ — حياة محمد وحياة دعوته كلها وضوح وضوء ونور ، تواريخ محددة ، وأحداث ثابتة ، وتطور مستقيم راسخ .

٧ — ديانة شاملة لأمور الدين وأمور الدنيا ، ذكرت لنا الله تعالى فى علاه ، وصورت لنا جنته وناره ، وأبرزت معالم الخير والشر ، وراحت الى أمور الدنيا تتحدى تفكير العالم بنظم رائعة فى الميراث والسياسة والاقتصاد ، والبيع والشراء ، والوصية والهبة ، والسلم والحرب ، وكل حاجات الإنسان ، كما سنوضحه فيما بعد .

يقول الأستاذ العقاد فى ذلك (٤) : « جاء الإسلام للناس بعد أن بلغوا من التطور فى فهم الدين مرحلة واسعة ، فعرفوا أن الحق الإلهى محصول روحانى وليس بالمحصول الأرضى الذى يرتبط بالتربة كما ترتبط محاصيل الزروع والضروع .

« فالله فى الإسلام هو رب العالمين ، يتساوى عنده الناس ولا يتفاضلون بغير العمل الصالح .

---

(١) سورة الحجر الآية ٩ .
(٢) سورة البروج الآيتان ٢١ — ٢٢ .
(٣) سورة البقرة ، الآية الثانية .
(٤) ما يقال عن الاسلام ص ٥٣ .

« والنبى فى الإسلام هو المبشّر بالهـدى والمنذر من الضلال ، وليس هو بالمنجم الذى يكشـف الطوالع والأسرار ، ولا بصـاحب الخوارق والأعاجيب التى تشـل العقول وتهول الضمائر وتخاطب الناس من حيث يخافون ويعجزون ، ولا تخاطبهم من حيث يعقـلون ويتأملون ويقـدرون على التمييز » •

لقـد تطور العالم ، وأصبح جديراً أن يتلقى أسمى الرسالات فجاءته أسمى الرسالات ، وهى موضوع حديثنا ، وما أمتعه من حـديث •

ليل الإنسانية الطويل

لقد أحاط بالبشرية ظلام حالك قبيل بعثة محمد ، كان ظلاماً مطبقا ، وكان ليلا طويلا ، نشطت فيه الخرافات وانزوت الأفكار الصالحة ، ودبّ الجهل وانكمش العلم ، وعم اليأس وقلّ الأمل ، وأوشكت الإنسانية أن تفقد كل ما حققته الأجيال الطويلة من تقدم ، وأن تتردى فى هوة سحيقة هى الى عالم الحيوان أقرب .

تعال بنا نَجُلْ جولةً سريعة نصور فيها حياة الجنس البشرى آنذاك .

اليهودية :

بنو اسرائيل خصّهم الله بكثير من فضله ، وأرسل لهم منهم عدة من الرسل ليكونوا مصدر هداية ومبعث ضوء ورحمة ، ولكن طبيعة أكثرهم كانت الى الشر أميل ، فراحوا يعتدون ويفسقون دون رادع من ضمير أو خلق ، واستمرءوا الفجور فأنزلوا بأنبيائهم ألوانا من الاعتداءات الأثيمة دوّنتها كتبهم المقدسة (١) وصوّرها القرآن الكريم بقوله : « كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم ، فريقا كذّبوا وفريقا يقتلون » (٢) . وانتقم الله لأنبيائه ورسله من ضللة بنى اسرائيل ومن نسلهم الذين يعلم الله أنهم سيسيرون كأسلافهم طغيانا وسوءَ سيرة ، فجعلهم هدفا يُنْزِل بهم العذاب المهين الى يوم الدين « وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوءَ العذاب » (٣) .

ولم يستطع أنبياء بنى اسرائيل أن يحملوا الهداية الى أكثر هذه القلوب الغلف ، وكان من اهتدى من بنى اسرائيل يسرع الى العودة للضلال كأنما كانت نفوسهم على وعدٍ به ، وعلى نَشْرَة مع الرضوان

(١) انظر صورا منها فى كتاب « اليهودية » للمؤلف .
(٢) سورة المائدة الآية : ٨ .
(٣) سورة الأعراف الآية : ١٦٧ .

والهداية ، فالروايات تقص علينا خبـــر أولئك الذين اتبعـــوا موسى من بنى اسرائيل وأنجاهم الله مما أنزله فرعون بهم من ذل ومهانة ، ولكنهم سرعان ما تخطف أبصارَهم أصـــنامٌ لقوم يعبدونها فيقولون لنبيهم : « اجعــل لنـــا إلهـــاً كما لهم آلهـــة » (١) .

ويدعهم موسى فى رعاية أخيه هرون ويذهب ليتلقى الألواح من ربه ، وفيها لهم نور من الله وهـــدى ، ولكن سرعان ما يتخـــذ هؤلاء من حليهم عجـــلا جســـداً له خوار ، يعبدونه ويسجدون له من دون الله ، وقـــد حـــكى القرآن ذلك فى الآيات الكريمة « واتخـــذ قوم موسى من بعـــده من حليهم عجلا جسداً له خوار ، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ، اتخـــذوه وكانوا ظالمين ، ولما سُقط فى أيديهم ورأوا أنهم ضـــلوا ، قالوا : لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ، ولمـــا رجع موسى الى قومه غضـــبان أســـفاً قال بئسما خلفتمونى من بعـــدى ، أعجلتم أمر ربكم ؟ وألقى الألواح وأخـــذ برأس أخيه يجره اليه . قال : ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بىَ الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين . قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتـــك وأنت أرحم الراحمين . إن الذين اتخذوا العجـــل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيـــا وكذلك نجزى المفترين » (٢) .

وأراد موسى أن يستغفر لقومه وأن يطلب من الله الرحمة ، فاختار سبعين رجـــلا من أتقيائهم ، ولكن هؤلاء هتفوا به : « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » (٣) .

تلك صـــور من ضلالات بنى اسرائيل فى حيـــاة موسى وفى حيـــاة هرون ، أما ضلالاتهم بعـــد ذلك فتكاد تكون سلسلة من البغى ، يقتلون

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٣٨ .
(٢) سورة الأعراف الآيات ١٤٨ — ١٥٦ .
(٣) سورة البقرة الآية ٥٥ .

فيها النبيين ، ويحرفون الكــلم عن مواضــعه ، وهكذا ، حتى خلا التاريخ أو كاد من هــداية روحية يقدمهــا رجــل من بنى اسرائيل الى الجنس البشرى ، أو شعاع من الضوء النفسى يكون فيه للإنسانية هدى أو بصيرة .

وفضّلناهم على العــالمين ؟

كثيرون من الناس لا يفهمون هــذا التعبير القرآنى عن بنى اسرائيل ، وقــد اتجه به اليهود وبأمثاله الى القول بأنهم الشعب المختار ، ووصلوا فى ادعائهم الى القول بأن زواجاً تمّ بين الله واسرائيل (١) .

وبعض الناس يرون أن تفضيل بنى اسرائيل كان على أهل زمانهم ، ومعنى هــذا هو الاقتناع بتفضيلهم ، وذلك ليس مسلّما به بأى وجــه من الوجــوه .

ولو أوردنا الآيات القرآنية كاملة لا تضح لنــا المعنى المراد ، يقول تعــالى : « ولقــد آتينا بنى اسرائيل الكتاب والحــكم والنبوة ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضــلناهم على العالمين ، وآتيناهم بينــات من الأمــر ، فما اختلفوا إلا من بعــد ما جاءهم العــلم ، بغيا بينهم » (٢) والمعنى أن الله منحهم ما لم يمنحه غيرهم من مجموع (التوراة) والحــكم (السلطة) والنبوات الكثيرة وهو بذلك أعطاهم ما لم يعط سواهم آنذاك ، ومع هــذا ضــلوا ، والعجيب أن ضلالهم اتّضح بعد أن جاءهم العلم والنور ، فبدل أن ينتفعوا بالعــلم ضــلوا به ، فكان ذلك بغيا وطغيانا .

وفى آية أخرى يقول تعالى : « قال أغيرَ الله أبغيكم إلهــا ، وهو فضلكم على العالمين » (٣) ويقول المفسرون إن المعنى أن موسى يؤنبهم لأن الله خصّهم بهــذه النعم ثم يطلبون إلهــا غيره .

وعندما نفهم هــذه الآيات على هــذا النحو نجــدها تتناسب مع الآيات التى سبق أن أوردناها وهى قوله تعــالى : « وإذ تأذّن ربك ليبعثن

---

(١) Arthur Hertzberg : Judaism p. 119. وانظر تفاصيل هذا الادعاء فى كتاب اليهودية للمؤلف ص ٢٠٨ وما بعــدها .

(٢) الجاثية ١٦ — ١٧ . (٣) الاعراف ١٣٦ .

عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العــذاب » وقوله « إن الذين اتخــذوا العجــل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين » .

ولو كانوا أفضــل من ســـواهم ما قرَّر الله عليهم فى هاتين الآيتين أن يســـلط عليهم من يسومهم سوء العــذاب الى يوم القيامة ، والذلة فى الحيـــاة الدنيا ، والخزى فى الآخرة .

المسيحية بين الشرق والغرب (*) :

وجاءت المسيحية وقــد تَكَالَبَ اليهود على المــادة ، ورأوا فيها كل مقومات الحياة ، وتفنَّنوا فى خلق الطرق للحصول على المــال وتنميته ، غير مبالين بالوسائل التى يصطنعونها لنجاحهم فى ذلك ، فهانت بهذا القوى الروحيةُ والمثلُ العليـــا ، فاتجهت المسيحية لمعالجة هــذا الداء ، واتجه السيد المسيح عليه السلام الى الدعوة للصـــفاء الروحى والرحمة والتسامح والزهــد ، وخلت المسيحية إلا من لمحات ضــئيلة عن النظم السياسية والاقتصــادية والاجتماعية لا تكاد تذكر ، وأوْلى المسيح عنايته لتطهير النفس والروح ومحاربة الجسم والمــال ، ومما أثر عنـــه فى ذلك قوله :

— سمعتم أنه قيل عين بعين ، وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ، ومن سخَّرك ميلا واحدا فاذهب معـــه اثنين (١) .

لا تقدرون أن تخدموا الله والمــال ، لذلك أقول لكم : لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وما تشربون ، ولا لأجسامكم بما تلبسون (٢) .

(*) عن المسيحية اقرأ كتـــاب « المسيحية » من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف .

(١) انجيل متى : الاصحاح الخامس : الفقرات ٣٨ — ٤٠ .

(٢) انجيل متى : الاصحاح السادس : الفقرة ٢٥ .

— يعسر أن يدخل غنى ملكوت السموات ، وأقول لكم إن مرور جمل فى ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنىٌ ملكوت الله (١) •

كان هـذا هو اتجاه المسيحية فى الشرق : العمل على تطهير الروح وتقوية الصـلة بين الإنسان وخالقه ، أما تنظيمُ الحياة الدنيا وإحكامُ الصـلة بين الفرد والفرد ، فلم ينل من المسيحية عناية تذكر ، وعبرت هـذه الديانة من الشرق الى أوربا فواجهت هناك — مع تجردها من المادة — أناساً شَغَلَتْهم المـادة ، ولا تكاد تنقطع عندهم الحروب وحمـلات السلب والانتقام ، ولمـا اعتنقها هؤلاء أو بعضهم لم يجـدوا فيها عناصرَ كافيةً لتنظيم حياتهم المـادية ، فاتخـذوها وسيلة لصـلة العبد بربه ، وبقيت صـلة الفرد بالفرد خاضـعة للقانون الأرضى الذى يضعه البشر •

وعلى هـذا اتخذت المسيحية ثوب الزهد والتسامح وقنعت بهما ، وكان شعارها « ما لقيصر لقيصر وما لله لله » واتجهت بكُلِّيَّتها الى التطهير الروحى والتهذيب الوجـدانى ، وصاغت نفسها على أسـاس أن الدين صـلةٌ بين العبد والرب ، وأن القانون صـلة بين الفرد والفرد وبين الفرد والدولة •

غير أن ذلك لم يقنع رجال الدين فى بعض العصور ، فكثير منهم مَنْ عشـقوا السـلطة والنفوذ ، وعشقوا أن يدخلوا الحياة العامة لا لإصلاح الحياة العامة ، وإنما ليستفيدوا هم من الجماهير الجاهلة ، ولكن تدخلهم فى الحياة العامة أثار ثائرة الملوك والأمراء ، وقام نزاع بين هاتين القوتين ثم تمّ الوفاق بينهما على حساب الدهماء ، فأخـذت الكنيسة سلطة بيع صـكوك الغفران وإصـدار قرارات الحرمان ، وأصبح الملوك سـادة يملكون الأرض ويملكون رقيق الأرض •

وقبيل بعثة محمد خبا ضوء الطهر والزهد من المسيحية ، بما دخـل عليها من خرافاتٍ وأباطيلَ حتى أصبحت ديانة وثنية • ويقول Sale

(١) انجيل متى : الاصحاح ١٦ الفقرة ٢٣ وانجيل لوقا : الاصـحاح ١٨ الفقرة ٢٠ .

العالم الانجليزى عن نصارى القرن السادس الميلادى « أسرف المسيحيون فى عبادة القديسين والصور المسيحية ، وجد خلاف عن طبيعة المسيح وما اذا كانت مزدوجة أو إلهية تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية كما تتلاشى قطرة من الخل تقع فى بحر عميق لا قرار له » .

هذا فيما يتعلق بالمسيحية ، أما غير الدين من الشئون فى الغرب فقد كان متدهوراً الى أبعد غاية ، لقد كان نظام الإقطاع سائداً ، وفى ظل الإقطاع كان هناك أمراء وعبيد ، فالأمراء يملكون الأرض ورقيق الأرض ، والعبيد يعملون دون أن تكون لهم حقوق أو يقام لهم وزن ، وكانت الحروب لا تكاد تنقطع بين هؤلاء الأمراء بعضهم والبعض الآخر ، وبذلك كانت أوربا تعيش فى ظلام دامس فى جميع نواحيها تقريبا .

الحياة فى فارس :

كانت فارس حتى القرن السابع قبل الميلاد تتبع الفكر الطبيعى فى الأديان ، أى كان هناك من يعبد الشمس أو الأنهار أو الأشجار أو الأبطال ، وجاء زرادشت (٦٦٠ — ٥٨٣ ق . م) مصلحاً اجتماعياً ، اتجه فى تفكيره الى إصلاح اتجاهات مواطنيه الدينية ، فأدمج فى ديانته طائفة من المعبودات الفارسية القديمة بعد تهذيبها ، وانتهى به التفكير الدينى الى القول بإلهين أو مجموعتين من الآلهة ، المجموعة الأولى آلهة خيّرة على رأسها « أهورا مازدا » والمجموعة الثانية مجموعة شريرة يتزعمها « أهرمان » ، والنضال بين هاتين المجموعتين يمثل النضال بين الخير والشر فى الحياة ، ذلك النضال الذى لا ينقضى إلا بعد آلاف السنين حيث ينتصر الخير ويهزم « مازدا » « أهرمان » .

واتجاه زرادشت فيه تعدد آلهة ، وفيه تنويه ، ولكن كثيراً من الباحثين يعدون الزرادشتية دين وتوحيد ، لأن مازدا سيكون وحده فى النهاية بعد أن ينتصر على آلهة الشر .

ورمز زرادشت لمـازدا ببعض المواد الصافية كالنار ، وقال بالبعث والحياة الأخرى والحساب ، حيث ينتهى المرء لنعيم دائم أو عذاب مقيم .

تلك هى الخطوط الرئيسية فى مذهب زرادشت ، ولكن تعاليم زرادشت انهارت بعده ، وأصبحت الثنائية أبرز مظاهرها ، كما اتجه الفرس الى النار يعبدونها ويرونها إلهـاً ، ويستعملونها فى شعائرهم الدينية متناسين أنها كانت فقط رمزاً للصـفاء ، حتى أصبحوا يُعْرفون بأنهم عبدة النار ، وقـد أتاح هـذا للكهنة المجوس الذين كان لهم السلطان الدينى قبـل زرادشت أن يظهروا من جـديد كواسطة بين الناس وبين الآلهة وكمسيطرين على وسائل التطهير ، وكوسائل لإرضـاء الآلهة ، وسرعان ما أحيا الكهنة الطقوس التى كانت موجودة من قبل كعبادة الأصـنام وتقديم القرابين وبخاصـة للإله « مترى » الذى أصـبح أبرز الآلهـة .

ولـما غزا الإسكندر المقدونى فارس فى أواخر القرن الرابع ق . م اختفت الزرادشتية ، وظلت مختفية مدة خمسة قرون ، فلمـا قامت دولة الساسانيين حاول هؤلاء العودة الى الزرادشتية باعتبارها جزءاً من تراث فارس ، ولكن الزرادشتية الساسانية كانت بعيدة كل البعد عن اتجاهات زرادشت ، وكانت تحقق أهـداف الملوك وطغيان الكهنة .

وفى أواخر القرن الثالث المسيحى ظهر « مانى » فى فارس ، وكان ظهوره فى عصر سادت فيه الشـهوة ، فاختط طريقاً يحـارب به هـذه الشهوة الجامحة ، فنادى بحياة العزوبة وعـدم النكاح لحسم مادة الفساد والشر من العـالم ، وذلك بقطع النسـل واستعجال الفناء ، وقـد قتله بهرام سـنة ٢٧٦ م قائلا : إن هـذا خرج لتخريب العالم ، فالواجب أن يبدأ بتخريب نفسـه . وذهب مانى ولكن تعاليمه بقيت بعـده الى ما بعد الفتح الإسـلامى .

وظهر مزدك سنة ٤٨٧ م فاعلن أن الناس ولدوا سواء ، لا فرق بينهم ، وينبغى أن يعيشوا سواء ، ولما كان المال والنساء من اهم الأسباب التى تخلق الفوارق وتسبب الكراهية ، فقد قال مزدك بالشيوعية التامة فيهما ، يقول

الشهرستانى (١) : أحلَّ مزدك النساء وأباح الأموال وجعل النساء شركة بين الناس كاشتراكهم فى المـاء والنار والكلأ ، ولقيت هذه الدعوى قبولا لدى الشبان والمترفين والفجرة ، بل أيدها القصر الإمبراطورى ويقـول الطبرى (٢) : كاتف السفلة مزدك فى دعوته وشايعوه ، فابتلى الناس بهم وقوى أمرهم ، حتى كانوا يدخلون على الرجل داره فيغلبونه على منزله ونسـائه وأمـواله ، لا يستطيع الامتنـاع منهم ، وحمـلوا قبـاذ على الموافقة على ذلك وتوعَّدوه إن رفض ، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى صـاروا لا يعرف الرجل ولده ولا المولود أباه ، ولا يمـلك الرجل شـيئاً ممـا يتَّسـع به .

وادعى ملوك فارس أن دماً إلهياً يجرى فى عروقهم ، وأن فى طبيعتهم عناصر علوية مقدسة ، وصـدَّق الفرس هذه الدعـوى فأنزلوهم منزلة الآلهة ، قدموا لهم القرابين ، وأنشدوا لهم أناشيد الطاعة والعبودية ، واعتقدوا أنهم وحـدهم الذين يجوز لهم أن يلبسوا التـاج ، ويسيطروا على الناس أيا كانت سنهم أو كفاءتهم . وفيما عـدا الأسرة المالكة كان هناك المجتمع الإيرانى بطبقاته الكثيرة التى تقوم هوة واسـعة بين كل اثنتين منهـا ، وكان كل إنسـان فى طبقة لا يستطيع أن يتعـداها الى سواها من الطبقات مهما أوتى من كفاءة خاصـة أو تجارب معينة (٣) .

الأديان فى الصـين :

شهدت الصين فى القرن السادس قبل الميلاد حكيمين شهيرين هما : « لاءوتسى » الذى ينطق اسـمه أحياناً « لوتس » و « كونغ فوتسى » الذى ينطق « كونفشيوس » ، وأولهما أسنُّ بحوالى خمسين سنة تقريباً ، وقـد تقابلا وكان « لاءوتسى » فى شيخوخته و « كونغ فوتسى » فى شبابه

---

(١) الملل والنحـل جـ ١ ص ٨٦ .
(٢) تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ ص ٨٨ .
(٣) انظر كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للسيد أبو الحسن النـدوى ص ٣٣ .

وتدارس الثانى مع الأول بضع مشـــكلات ، ولكن كان لكل منهما اتجـــاه فافترقا ، فقـــد كان الأول داعية قناعة وزهد وتسامح مطلق ، دعا الى مقابلة الســـيئة بالحسنة ، على نحو ما نسبت للمسيح فيما بعد ، أمـــا « كونفشيوس » فكان يدعو الى العـــدالة والاستقامه ، ومقابلة الســـيئة بمثلها ، ومذهب الأول يعرف « بالتاوية أو الطاوية » أما مذهب الثـــانى فيعرف « بالكنفوشـــية » وهو أكثر انتشـــاراً وذيوعاً فى الصين •

ولم يقل كونفوشيوس أنه نبى ولا رســـول ، وإنما كان باحثاً فى الحـــكمة ، وقـــد تناولت أبحاثه الحـــكومة والسياسة والأخلاق والمرأة ، وكان شـــديد التأثر بعقائد قومه الأقدمين ، فاتجه الى عـــدم القول بالجنة أو النـــار والعقـــاب والثواب ، ولم يدرس مشـــكلة ما بعد الموت ، معلناً أن مشـــكلات الحياة يصعب فهمها ، فكيف بمشكلات ما بعد الحياة ؟

وكان الصينيون القدماء يربطون بين الأحـــداث الكونية ، وبين أخلاق الملوك وأخلاق الشعوب ، فالعواصف والفيضانات والزلازل والأوبئـــة وما ماثلها ، ليست عندهم إلا عقاباً لانحراف الأمراء وانحراف الناس ، وقـــد تبنى كونفوشيوس هـــذه الفكرة •

وكان كونفوشيوس ككل صـــينى — تخيفه الأحداث الكونية ، فهو يرتجف من قصف الرعد ، وعصف الرياح ، وهطـــول الأمطار ، وكسوف الشمس وخسوف القمر ، وهو يقابل ذلك بالتعاويذ والقرابين ، يحاول بها أن يقى نفســـه شرور هـــذه الأحـــداث •

وكانت أفـــكاره حقاً حافلة بالدعوة للخير والرحمة والإخلاص وأداء الواجب ، ولكن الصينيين من بعـــده انحرفوا بهذه الدعوة الخيرة واتجهوا الى كونفوشيوس يبنون له الهياكل ويعبدونه ، ويقـــدمون أمـــام تماثيله الذبائح والقرابين ، ويركعون أمام تماثيله ويسجدون ، وبالإضـــافة الى

هـذا ، شـاعت بالصين قبيل الإسلام عبادة الأرواح وبخاصـة أرواح الآباء والأجـداد ، إذ كان الصينيون يعتقدون أن هذه الأرواح تعيش معهم بعـد وفاة أصحابها ، والصينيون يحبون كثرة النسـل ، ولكنهم يمجدون الذكور ، وعندما يبشر أحـدهم بابن يعلق القوس والنشاب على الباب ، دليـل مولد الذكر الذى يحمى العشيرة ويزود عنها الردى ، أما إذا بشر بأنثى علق على بابه مغزلا دليل الخنوع والضـعف •

ومن أهم الأديان التى كانت سائدة فى الصين بجانب الكونفوشية ، الديانة البوذية ، ولكن البوذية أيضاً فقـدت بساطتها ، وتحولت وثنية تحمـل معها الأصـنام حيث سارت ، وتبنى الهياكل ، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت ونزلت ، يقول الأستاذ أتريا : لقد قامت فى ظل البوذية دولة تعنى بمظاهر الآلهة وعبادة التماثيل •

الهنـــد :

يقول السيد أبو الحسن على الحسنى الندوى وكيل ندوة علماء الهند ما يـلى : **انفقت كلمة المؤلفين فى تاريخ الهنـد على أن أحط أدوارها ديانة وخلقاً واجتماعاً كان ذلك العهـد الذى يبتدىء من مستهل القرن السادس الميلادى ، فقـد شاركت الهند فى التدهور الخلقى والاجتماعى الذى شمل الكرة الأرضـية فى هـذه** الحقبة من الزمن ••• وبلغت الوثنية أوجها ، ووصل عدد الآلهة ٣٣٠ مليوناً فقـد أصبح كل شىء رائـع ، وكل شىء جـذاب ، وكل مرفق من مرافق الحيـاة إلهـاً يُعبد ، وهـكذا جاوزت الأصـنام والتماثيل والآلهة الحصر وأربت على العد ، فمنها أشـجار تاريخية ، وأبطال تمثّل فيهم الله ، وجبال تجلى عليهـا بعض آلهتهم ، ومعادن كالذهب والفضـة ادّعوا أن الله تجـلى فيها ، وأنهار وآلات حرب ، وآلات تناسل وحيوانات أشهرها البقرة وغير ذلك ، وقد ارتقت صـناعة نحت التماثيل فى هذا العهد حتى فاق هذا العصر فى ذلك جميع

العصـــور الماضية ، وقد عكفت الطبقات كلها وعكف أهل البلاد من الملك الى الصــعلوك على عبادة الأوثان (١) •

وظهر فى الهند نظام الطبقات فى أبشع صــوره ، فقد ازدهرت فى الهند قبل المسيح بثلاثة قرون الحضارة البرهمية ، ووُضع فيها مرسوم جــديد للمجتمع الهندى ، وأُلّف فيه قانون مدنى وسياسى أصبح رسمياً ومرجعاً دينياً فى حياة البلاد ومدنيتها ، وهو المعروف الآن بـــ « منو دهرما ساسترا » ويقسم هــذا القانون السكان أربع طبقات هى :

١ ـــ البراهمة : وهم طبقة الكهنة ورجال الدين •

٢ ـــ الكشتريا : وهم رجـــال الحرب •

٣ ـــ الوشيا : وهم التجار والصـــناع والزراع •

٤ ـــ الشودرا : وهم طبقة الخـــدم والعبيد •

وقـــد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقاً ألحقتهم بالآلهـــة ، فجعلتهم صـــفوة الله وملوك الخلق ، وملكتهم ما فى العالم لأنهم أفضل الخلائق وسادة الأرض ، ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم ما شاءوا ، لأن العبـــد وما ملكت يده لســـيده •

وقـــد حاولت البوذية القضاء على هـــذه الطبقات ولكنها فشلت ، وسرعان ما انهارت البوذية كذلك ، تقول دائرة المعارف البريطانية فى ذلك ما يلى : لقـــد أصيبت البرهمية والبوذية بالانحطاط ، ودخلت فيهما العادات الساقطة ، وأصبح من العسير التمييز بينهما ؛ لقـــد اندمجت البوذية فى البرهمية وذابت فيهـــا (٢) •

---

(١) انظر كتاب : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٣٨ — ٤١ ، وأقرأ كذلك « اديان الهند الكبرى » للمؤلف ص ٣٢ وما بعدها من الطبعة السابعة .

(٢) اقرأ دائرة المعارف البريطانية : مـــادة بوذا وكتاب « أديان الهنـــد الكبرى » للمؤلف .

العــرب :

فى صــور من وأد البنات ، وسبى النساء ، وعبادة اللات والعــزى ومناة ، وفى حروب لا تنقطع ، وغارات لا تهــدأ ، كان يعيش العرب قبل الإسلام ، ولعل أدق تصــوير وأقصره لحالة العرب فى الجاهلية هو ذلك الذى قرره جعفر بن أبى طالب أمام النجاشى ملك الحبشـــة حينما سأله عن دين الإسلام وعن الرســول محمد ، قال جعفر : أيها الملك ؛ كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبــد الأصــنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجــوار ، ويأكل القوى منــا الضــعيف [1] .

الاســلام جاء والعالم على حافة الهــاوية :

تلك صورة سريعة مجملة للعالم قبيل شروق الإسلام ، تلك الحالة التى وصفها الأستاذ Dinson فى كتابه Emotions as the Basis of Civilization **بقوله : فى القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى ، لأن العقائد التى كانت تـعين على إقامة الحضــارة قــد انهارت ، ولم يك ثـمّ ما يعتد به مما يقوم مقامها ، وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التى تكلف بناؤها جهود أربعـــة آلاف ســنة مشرفة على التفكك والانحــلال ، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية الى ما كانت عليه من الهمجية ، إذ القبائل تتحارب وتتشاجر ، لا قانون ولا قـيـَم ، أما النظم التى خلـّفتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلاً من الاتحاد والنظــام ، وكانت المدنية كشجرة ضــخمة متفرعة امتد ظلها الى العالم كله ، واقفة تترنح وقــد تسرب اليها العطب حتى اللبــاب .**

وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى كان خــير دواء لهــذا الدواء .

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ١ ص ٢١٣ .

أنقذ الإسلام الماضي، والأمل أن ينقذ المستقبل :

وفى نفس المعنى الذى ذكره Dinson يتحدث المفكر الإسلامى رجاء غارودى الفرنسى الذى اعتنق الإسلام حديثا بعد جولة بين اللادينية والمسيحية والشيوعية ، يقول سيادته : (١) •

لقد أنقذ الإسلام عند مولده العالم من الانحطاط الشامل ، فإن الامبراطوريات التى كانت تسود العالم قد تفككت وانحلت كالامبراطورية البيزنطية والفارسية وكالهند والشمال الافريقى وأسبانيا ، وجاء القرآن فأعلن بكل قوة قيام عالم جديد دعامته الإيمان بالله ورعاية الإنسان •

ويستمر جارودى فيذكر أن هذه المساهمة يمكن للاسلام اليوم أن يقدمها فى سبيل خلق مستقبل يتسم بالإنسانية فى عالم اتجه للأثرة والانفرادية ، ولا يمكن أن يُتْرَكَ المستقبل للعالم الغربى فقد هيمن خمسة قرون على مقدرات البشرية فاتجه للإبادة أكثر جدا مما اتجه للتعمير ، وفى ظل حضارة الغرب أو نار حضارة الغرب يموت الملايين جوعا كل عام لأن الغرب اتجه لتصنيع أطنان المتفجرات وتخزينها ، ولأنه فى مستوى العقيدة ذوى التفكير فى الخالق الأعظم ، فأصبحت الحياة للحياة فقط ، ثم إن العلاقات الداخلية صارت مبنية على العنف والصراع طلباً للهيمنة ، وعلى الصعيد الثقافى أصبح الجهد العلمى بدون غاية ، وكل هذا يأخذ الزمام من الغرب على نحو ما حدث فى مطلع الاسلام عندما كانت أكبر امبراطوريتين فى العالم تترنحان وتتجهان للتدهور ، فجاء الاسلام وانتصر عليهما جميعا فى فترة قصيرة ، وهذا الحدث يتجدد الآن ، فإن العالم ينقسم الى كتلتين كبيرتين فى

---

(٢) محاضرة فى تونس نشرت بمجلة الصباح (١٩٨٣/١/١٢) بتصرف .

الشرق والغرب ، وكل منهما تناصر مذهبا يخالف المذهب الآخر ، ولكن المذهبين يتجهان للأفول والى طريق مسدود ، وكل منهما يغير من مقاييسه من حين لآخر دون جدوى ، وهذا التغيير إحساس بالافلاس •

ولا وسيلة لإنقاذ البشرية إلا أن يتخلص المسلمون مما ألمّ بهم من ضعف خلال القرون الأخيرة ، وأن يستعيدوا الزمام لقيادة المجتمع البشرى •

مطلع الفجر

قبيل مولد محمد كان ليل البشرية قد طال ، وكان الجنس البشرى قد مرّ بألوان من التجارب والخبرات أوقفته حائراً أمام كثير من مشكلات الحياة ومشكلات ما بعد الحياة ، ولكنها فى الوقت نفسه هيأته ليتلقى رسالة تنظم له هذه الشئون وتعالج له ما بدا من مشكلات ، ووقفت الإنسانية ترقب مطلع الفجر ، وأخذت تقلب وجهها ذات اليمين وذات الشمال ، باحثة عن الأمل الذى يقود الإنسانية الى الهدى ، وباحثة عن شعاع الضوء الذى يزيل طبقات الظلام المتراكم •

وانبثق الفجر من هناك ، من مكة ، المدينة المقدسة التى تربض فى منتصف الطريق الواصل بين شمالى الجزيرة العربية وجنوبيها تقريباً ، ولم يكن أحد يعرف حينما ولد محمد أن هذا الوليد اليتيم سيكون ذلك الأمل الذى ترقبه الملايين ، والذى سيهدى البشرية الى سواء السبيل •

وولد محمد فى ضوء التاريخ ، لا شكوك حول أسرته ، ولا غموض حول تاريخ مولده ، ولا ظلام حول نشأته ، ولا تردد حول بعثته ومبادئه ، وإنما هى وضوح كلها ، ويقين كلها ، يؤمن به من يشاء ، ويكفر به من يشاء ، ولكنه على كل حال كفران ناشىء عن التحدى أو العصبية ، أو سبب مماثل من الأسباب ، وليس ناشئا عن الجهل أو الغموض • ويقول غوستاف لوبون (١) عن حياة محمد ووضوحها : اذا استثنينا محمداً لا تجدنا مطلعين على حياة مؤسس ديانة اطلاعا صحيحا •

تعال بنا نقص طرفاً من سيرة محمد نستقصيها مما كتبناه عنه بتفصيل وإطناب فى المظان التاريخية المخصصة لذلك (٢) •

---

(١) حضارة الهندص ٣٤٤ .

(٢) اقرأ الجزء الأول من « موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية » للمؤلف ففيه دراسة كاملة عن السيرة النبوية العطرة .

انتقل السلطان فى مكة من خزاعة الى قريش سنة ٤٤٠م وكان قصىُّ الجدُّ الرابع للرسول قد تزوج بفتاة من خزاعه كان لابيها السلطان على مكه ، فمهد له ذلك ان يستولى على السلطان بعد موت هذا الأب واضمحلال قوة خزاعة أمام قريش الناهضة .

وقصىّ هذا هو الذى بنى دار الندوة ليجتمع فيها أهل مكة للتشاور فيما بينهم تحت إشرافه ، وهو الذى رتب وظائف الكعبة وحدد مدلولاتها ، وهذه الوظائف هى السقاية والرفادة واللواء والحجابة (١) .

وبعد قصىّ انحدرت وظائف الكعبة الى أولاده فأحفاده ، وكان هاشم بن عبد مناف بن قصىّ من أكثر أحفاد قصى حظاً ، فقد آلت له السقاية والرفادة ، وتولاها بعده أخوه المطلب ثم عبد المطلب بن هاشم جد الرسول الذى عز شأنه وذاع صيته ، وأصبح مرجع كل الأمور بمكة ، وفى عهده كان عام الفيل حيث هجم أبرهة بالفيلة يريد تدمير البيت الحرام وتخريبه ، ولكن الهزيمة حاقت به وكتِبَ للكعبة النجاة . وفى هذا العام ولد محمد .

ومحمد حفيد عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وكان لعبد المطلب مجموعة من الأبناء تزيد عن العشرة ، وكان من بينهم ابنه عبد الله أبو محمد ، وكان عبد الله أحب أبناء عبد المطلب اليه ، وكان شاباً جميلا تَغلِبُ عليه الوداعة والخير ، وقد زوَّجه والده فى سن مبكرة من فتاة قرشية فى ميعة الصبا ، هى آمنة بنت وهب ، والتقى الزوجان الشابان التقاء قصيراً تكونت فيه نطفة طفل قدر له أن يكون فى قمة القادة والمشاهير ، وافترق الزوجان افتراقاً لم يتم بعده لقاء ، فقد سافر عبد الله فى تجارة أبيه الى المدينة فالشام ، ولما عاد سقط مريضاً بالمدينة ومات هناك .

---

(١) انظر مدلولات هذه الوظائف فى الجزء الأول من « موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية » للمؤلف ص ١١٨ — ١١٩ من الطبعة الثانية عشرة .

لقــد كان حَرِيًا بقلب آمنــة أن يتحطم ، ولكن التاريخ يثبت لنــا هــدوء آمنة فى غمرة الحزن ، ورضاها مع الأسى ؛ وقد وجــدت آمنــة سلواها فى جنينها ثم ولدته فأنِسَتْ به ، وأصبح دنياها الذى نسيت له وبه كل شىء ، ولكن آمنــة سرعان ما ماتت وطفلها فى السادسة من عمره ، وكأنمــا أراد الله أن يتولى هو تنشئة الطفل ، وقــد عبر القرآن عن هذا المعنى بقوله : « أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيما فآوَىٰ (١) » وعبر عنه الرسول بقوله : « أدَّبَنى رَبى فأحْسَنَ تَأدِيبى » •

وتولى عبد المطلب الإشراف على حفيده الحبيب ، ولكن عبد المطلب أيضاً مات بعــد ســنتين من آمنــة فتولى أبو طالب بن عبد المطــلب كفــالة محمــد •

وواجه محمد الحياة فى ظــل عمــه أبى طالب ، تربى فى بيتــه ، وساعده فى أعماله ، ثم سافر معــه الى الشــام متاجراً قبــل أن يبلغ الحــلم ، وعندما كان فى الرابعة عشرة من عمره وقعت حرب الفجــار الرابعــة ، وقــد حضرها الرسول ، ويروى عنه قوله : « كنت أنبل على أعمامى يوم الفجار وأنا ابن أربع عشرة ســنة » •

أخــلاق محمد قبــلَ البعثــة :

وتقــدم محمد نحو الشباب ، ولكنه كان طرازاً وحيداً ، لم يَشْرَكْ أترابه فيما اعتادوه من لهو وعبث ، فلم يشرب الخمــر ، ولم يَغْشَ مجالس الميسر ، ولم يســجد لصــنم قط ، وكان حليف الأمانة وحليف الصــدق حتى عرفه الناس بالصادق الأمين •

صــلته بالســيدة خديجــة :

وتاجر محمد فى مــال خديجة بنت خويلد ، وسافر فى هــذه التجارة

---

(١) سورة الضحى الآية السادسة .

الى الشـــام ، وصحبه ميسرة غلامُ خديجة ، وقــد ربحت هذه التجارة ربحاً عظيما وكانت سبب ارتباط بين محمد وخديجة ، وقــد تَوَّج هــذا الارتباط بزواجه منها وهو فى الخامسة والعشرين وهى امرأة فى الأربعين من عمرها على أصح الأقوال ، وكانت قــد تزوجت قبله مرتين .

محمــد فى غــار حــراء :

وقــد هيأ مــال خديجة للرسول فرصة ليتفرغ للفــكر الذى كان يراوده ، فقــد كان محمد كثيراً ما يخلو لنفسه ويفكر فى الكون ومَبْدَئِه ونهايته ، ولكن السعى للمعاش كان يقطع عليه فكره ويحول دون استمراره فى هــذه اللذة العقلية التى كان ينعم بهــا ، بَيْدَ أن حياته الجــديدة مع خــديجة الغنية ضمنت له فراغ الوقت ، ومنحه تقدمُ سنه مزيداً من العمق ، ومنحته أخلاقه الحســنة مزيداً من الصــفاء ، وشملته عناية الله فرأى أن يخــلو لله ، وشجعته زوجته الصالحة على رغبته ، فكانت تُعِدُّ له الطعــام فيأخــذه ويذهب الى غار حراء ، حيث يخــلو ليفكر فى الكون وخالقه ، والموت ومصــير الناس بعــده ، وهــكذا ؛ صَفَتْ نفس الرســول فأصبحت رؤاه تتحقق ولا تكاد تتخلّف .

بــدء الوحى :

وظل محمد يخــلو ويفكر حتى نزل عليه جبريل يوم الاثنين السابع عشر من شهر رمضــان ودار بينهما هــذا الحوار القصــير :

— اقــرأ .

— ما أنا بقارئ .

— اقــرأ .

— ما أنا بقارئ .

— اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم (١) .

وكانت هذه أول آيات من القرآن الكريم ، ومن الملاحظ أن هذه الآيات لم تكلف محمداً بدعوة ، ولم تخبره برسالة ، ولم تكن إلا شيئاً غير عادى ، لم يدرك محمد كنهه ، ولذلك أسرع الى البيت خائفاً مذعوراً .

وانقطع جبريل عن الرسول مدة بعد ذلك ، وكان الرسول يترقبه فى الغار وخارج الغار ، وبعد فترة من الانتظار طالت على محمد ، ظهر له جبريل مرة أخرى ، وكان محمد سائراً بالقرب من منزله ، فظهرت عليه رعدة وفزع ، وسارع الى بيته فى حالة من الخشية ، وقال لأهله : دثرونى دثرونى ! فدثروه . ولكن جبريل جاءه وهو فى هذه الحال وألقى إليه نداء ربه : « يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر (٢) » ، وأدرك محمد بهذه الآيات ما يراد منه ، فهب ينذر الناس ، وبدأت بهذه الآيات مراحل الدعوة للدين الجديد ، وافتتحت هذه الآيات للإنسانية عصراً جديداً هو عصر النور وعصر السلام والإسلام .

محمد فى المدينة :

وبدأ محمد دعوته بمكة ، ولكن الدعوة تعثرت ووقفت قوى الشر فى طريقها ، ولكن محمداً بحث عن طريق آخر تنطلق منه دعوة الإسلام ، فهاجر الى يثرب ، وحاولت القوة العاشمة أن تلحق به وأن تحطم بالمدينة الدعوة المهاجرة من مكة ، ولكن محمداً قاوم بالقوة ، وخاض معارك حاسمة مع المعتدين ، كتب له فى نهايتها النصر المبين ، وعلا صوت الحق ، ودخل الناس فى الدين أفواجاً ، وعندما استكمل محمد الثالثة والستين

---

(١) سورة العلق الآيات ١ — ٥ .
(٢) سورة المدثر الآيات ١ — ٧ .

كان عَلَمُ الإسلام يخفق على الجزيرة العربية كلها ، وأصبح لهذه الجزيرة التى كانت أشتاتاً متنافرة دينٌ واحد ، ورئيس واحد ، وغاية مثلى تقودها ، وأفكار سامية توجهها ؛ ثم انطلقت هذه القوة من حدود الجزيرة بعد وفاة محمد فاتجهت الى أرقى الممالك التى عرفها ذلك التاريخ ، فخرّت هذه بسرعة مذهلة أمام الزحف الإسلامى الذى لم يطق الباطل أن يوقفه ، ولم يمض قرن من الزمان حتى كان الإسلام يخفق فى الأندلس ويزفرف على السند ، ويشمل بخارى وينساب الى قلب إفريقية ، ويعم ما بين هذه البلاد من بقاع .

لمحة عن أخلاق الرسول :

ولنعد الى محمد نبى الإسلام لنذكر جملة أخرى من صفاته قبل أن نستمر فى حديثنا عن موضوعات هذا الكتاب .

لقد بُعِثَ محمد وتبعه بعض الناس ، وعاداه آخرون ، ولكن أعداءه لم يستطيعوا أن يجدوا فى أخلاقه مطعناً ، ولم يستطيعوا أن يزعموا أن فيه نقيصة ، أو ثلمة .

وعظم شأن الإسلام وانتشر ، وكبر سلطان محمد باعتباره الرئيس الدينى والرئيس السياسى ، ولكن مظاهر السلطان لم تعرف طريقها إليه ، فقد ظل يحلب شاته ، ويرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم نفسه ، ويأكل مع الخادم ، ولم ير أصحابه فيه إلا رائداً وصديقاً ، كان ينهاهم عن الوقوف له اذا أقبل عليهم ، وكان يجلس معهم كواحد منهم ، واذا قدم وهم جالسون اتخذ مكانه حيث انتهى به المجلس ، وكان يمازحهم ويداعب صبيانهم ويجلسهم فى حجره ، ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويعود المرضى فى أقصى المدينة (١) .

---

(١) أفاض الامام الغزالى فى وصفه لأخلاق الرسول فى اكثر من موضع بكتاب الاحياء ، انظر كذلك زاد المعاد ١ : ٣٤ — ٤٧ . وانظر الجزء الأول من موسوعة التاريخ للمؤلف .

ولم تقف سماحة نفسه عند أتباعه ، بل امتدت الى أهل الكتاب ، فكان يتقبل دعوتهم ، ويحسن استقبالهم ، وقد فرش عباءته لنصارى نجران عندما وفدوا عليه وطلب منهم الجلوس عليها ، وكان يزور مرضاهم ويشيع جنازاتهم .

وكان زاهداً فى الدنيا ، يؤثر على نفسه ولو كانت به خصاصة ، وكان لا يدخر شيئاً لغده ، حتى لقد توفى وقد رهن درعه عند يهودى فى قوت عياله ، وكان شديد الزهد فى الحياة المادية ، اتخذ فراشاً خشناً ، وطعاماً بسيطاً ، بل لقد عانى الجوع أكثر من مرة ، وكان زهده فى اللباس كزهده فى الطعام .

وكان لامع الذكاء ، عميق التفكير ، سريع البديهة ، وكانت تحيط به أحياناً مشكلات جسيمة ولكنه لم ينهزم أمام واحدة منها ، بل كان يبحث عن الحلول فى وقت تقف فيه العقول عن التفكير ، وحسبك أن تذكر موقفه عندما حلت به الهزائم فى غزوة أحد ، وخر صفوة من أتباعه ، وتشتت شمل جيشه ، ومسه هو الضر ، وسقط فى حفرة والدم ينزف منه ، ونادى منادى قريش أن محمداً قد مات ، فأراد أحد المسلمين أن يكذبه ، وأن يصيح بأن محمداً لا يزال حياً ، ولكن الرسول أسكته فقد أدرك — وهو فى حاله تلك — أن خبر وفاته سيوقف نشاط المنتصرين ، ويضمن السلامة لكثير من أتباعه ، وهذا ما كان .

ومحمد — ككل مصلح وكل رسول — كان له أعداء ، ولا يزال له أعداء ، ولكن أحداً من هؤلاء لم يستطع أن يجرح أخلاقه ؛ أو أن يجد فى صفاته ما ينال منه . وكثير من المستشرقين الحانقين على الإسلام يذكر أن نجاح محمد كان نتيجة — لا لصدق دعوته — بل لذكائه ، وخلقه ، وحسن معالجته للأمور ، وتفوقه الذهنى والخلقى على رجالات عصره .

ومن خصائص الدين الذى جاء على يد محمد التوحيدُ المطلق الذى لا هوادة فيه ، وخـلوُّه من التعقيدات اللاهوتية ، وبعدُه عن الكهنـة والقرابين ، وقد اتخـذ محمد كل الاحتياط ليحول دون تأليهه بعد مماته ؛ كما أن من أهم خصائص هـذا الدين إصراره على أن المسلمين جميعاً إخوة متساوون تماما ، مهما اختلفت ألوانهم أو أجناسهم أو مراكزهم (١) .

رحم الله محمداً ! لقد كان نفحة سماوية أمدها الله بالتأييد ، وحباها كريم الصـفات ونبيل السجايا ، ومنح العالم على يده دينـاً جـديراً بأن يكون خاتم الأديان ، لمـا يكفله لمعتنقيه من تنظيم أمور الدين وأمور الدنيـا .

---

(١) Wells : موجز تاريخ العالم ص ٢٠٢ .

دعــوة فى الميـــزان

قال محمد : إنى رسول الله ، أرسلنى بشيراً ونذيراً .

وقال محمد : إن رسالتى تشـــمل البشرية كلهـــا .

وقال محمد : إن رسالتى تنظم شئون الدين وشئون الدنيا ، شئون الروح وشئون الجسم ، شئون الفرد وشئون الجماعة .

هل صـــدق محمد فيما قـــال ؟

وهل ملأ هـــذا الفراغَ الكبير الذى قال إن دعوته ستشمله ؟

تعال أولا نفترض عـــدم صدق محمد ، وندّعى مع من ادّعوا أن محمداً لم يكن صـــادقاً وأن دعوته إنما هى من خَلْقه هو وليست رســـالة من الله ، ولكنا نسرع فنتساءل :

كيف يدّعى رجل مثل هـــذه الدعوة الكاذبة وتعيش دعوته ؟

ونتســـاءل ثانيـــاً :

لمـــاذا كَذَبَ محمد هـــذه الكذبة العريضة ؟ ما هدفه وما آماله ؟

ونسير فى بحث السؤال الأول فنذكر أنّ كثيرين ادّعوا النبوة وحاولوا أن يأتوا بمعجزات ، ادّعاها الأسود العنسى ، وادّعاها طليحة ، وادّعتها سجاح ، وادّعاها فى العصر الحديث أحمد القاديانى ، ولكن كلا من هؤلاء كانت دعوته مهلهلة أثارت الضـــحك والسخرية ، وكان عمرها فى عمـــر الزهور ، وكثيراً ما تراجع صاحبها نفسه وسخر من نفسه مع الساخرين ، لشىء واحـــد ، هو أن النبوة عبء ثقيل ، حمله يرهق النفس البشرية ، والنهوض به من أشـــق الصـــعوبات .

انزل بين جماعة وادّع أنك طبيب ولست بطبيب ، كم يمضى من الوقت قبل أن ينكشف أمرك ويظهر تضليلك ؟

وانزل بين جماعة وادع أنك معلم أو مهندس أو رجل قانون ، أو حتى زارع أو طباخ أو حلاق ولست كذلك ، لا شك أن أمرك سينكشف بعد قليل ، وسيطاردك أولئك الذين قد يُخَدَعون بك فى اللحظات الأولى ٠

هل النبوة أقل من ذلك ؟

اللهم لا ٠ إنها مسئولية خطيرة ، ودعوة عريضة ، وهى امتحان قاس ، هيهات أن يعبره كاذب أو مختلق ٠

إنها ليست كلمة تقال ، أو دعوى تدعى ، إنها فكرة ، أو سلسلة من الأفكار ، ونظام ، أو حلقات من النظم ، وهى عقيدة تُبْنَى ، وشروح تُعْرَض ، ومشكلات تعالج ، ولا يقوم بذلك إلا صادق أمين ٠

وتعال بنا الى السؤال الثانى :

ما هدف محمد من هذه الدعوى العريضة على فرض وقوعها ؟

من المحتمل أن يكذب إنسان وأن يدّعى دعوى باطلة ، ولكن الذى لا شك فيه أن الإنسان يرمى الى شىء عند ما يرتكب هذه الحماقة ٠ ما الشىء الذى أراده محمد من هذه الدعوى ؟

هل أراد المال ؟ هل أراد الجاه ؟ هل حصل على شىء لنفسه ، أو لذويه ؟

الإجابة عن ذلك واضحة يقصها علينا التاريخ الواضح ، الذى لا يختلف فيه اثنان ، فقد كان غنياً قبل البعثة بمال زوجته الواسع وثرائها العريض ، ولكن محمداً أفنى هذا المال وأنفق كل هذا الثراء

حتى اذا مات كان مديناً ، رهن درعه عند يهودى فى قوت أهـله ، وقـد أراده قومه على المـال ، وعرضـوا عليه أنفَسَ ما يملكون لأنهم ظنوا أنه طالب مـال ، وعرضـوا عليه الجاه والسؤدد وأرادوه ملكاً عليهم ؛ ولكن محمداً صـاح صيحته الشهيرة : والله لو وضـعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هـذا الأمر ما تركته حتى يظهـره الله أو أهـلك دونه [1] .

وظنه الجـدد من أتباعه ذا سلطان ، فكانوا يقفون له اذا قَدِم عليهم ، ولكنه هتف بهم : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم ، فلست بملك ، وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القـديد بمـكة .

وقاسى محمد من أجل النبوة ألواناً من العنـاء ، عرف الجـوع والطـوى ، وامتدت عليه الأيدى بالضرب والإيذاء ، وقاطعته قريش هو ومن تبعه أو نصره ، واستمرت المقاطعة ثلاث سـنوات ، وشملت التجارة والمحادثة والتزاوج وغيرها من المعاملات ، وكان من نتيجتها الضر البالغ لمحمـد ، ولبنى هاشـم جميعاً ، ثم تلا ذلك هجرة وغربة قاسية .

ومـاذا حصـل محمد لذويه ؟

إن كان محمد قـد حصَّل شيئاً لأولاده وذويه فذلك الشيء هـو الحرمان ، فطالما بات مع أهـله على الطوى ، وطالمـا قنع وقنعوا معـه بالثوب المرقَّع ، والنعل المخصـوف ، ثم — وهو غاية الحرمان — لقـد وضـع محمد حـداً لمـا قد يقال عن جلب النفع ، فقال قبل موته : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صـدقة . وهـكذا حرم أهـله من ميراث يناله جميع الناس من موتاهم ، وبرهن على أنه هـو ليس لأهـله وإنما للمسلمين جميعا ، حياته لهم ، وموته لهم ، وكفاحه من أجلهم ، دون هـدف ذاتى أو منفعة خاصـة .

---

(١) ابن هشام جـ ١ ص ١٧٠ .

وليس لمحمد ميراث أدبى كما أنه لم يكن له ميراث مادى ، فالنبوة ليست ملكا ولا سلطاناً يتوارثه الأهل ، ولما مات محمد إنتقل سلطانه الى القبائل كما يقضى الإسلام ، ولم ينله غير الأكفاء من أهل محمد كبعض العباسيين والعلويين إلا فى عهد اضمحلال التفكير الإسلامى ، وتدهور الثقافات الإسلامية .

وفى حجة الوداع كان خطاب محمد حاسماً ، كان حساباً واضحاً قدّمه لقومه ، قال لهم : أيها الناس ، من كنت أخذت له مالا ، فهذا مالى فليأخذ منه ، ومن كنت ضربت له ظهراً فهذا ظهرى فليضربه ، أيها الناس : كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأعجمى على عربى إلا بالتقوى .

حياة واضحة ونهاية واضحة ، حياة فيها الحرمان والضنى واللوعة له ولأهله ، فلما مات لم ينل منه ذووه شيئاً ، وكان للمسلمين جميعاً تراثه المادى والأدبى .

وهكذا عند حساب الأرباح والخسائر نجد محمداً لم ينل شيئا لنفسه ولا لذويه ، وإنما دفع من ماله وجهده وجاهه ، وما لمثل هذا يسعى كذاب مختلق .

وأكثر من هذا ، فالضر الذى نزل بمحمد لم يكن مفاجأة له ، ولم يكن يسعى للخير فأخطأه التوفيق ونزل به الضر ، لا ، فإن محمداً كان يتوقع الشر منذ جاءته الرسالة ، ومنذ بدأ دعوته ، فقد روى أنه عقب أن تلقى أمر ربه ناله الفزع والخوف ، فدعته خديجة لينال شيئاً من الراحة فأجابها : يا خديجة مضى عهد النوم والراحة ، وجاء عهد الكفاح والعناء .

إذاً لا نستطيع أن نفترض عدم صدق محمد ، ففرضٌ كهذا لا يجيزه منطق ولا يقره فكر سليم .

لا ، نريد مرة أخرى أن نعود الى هـذا الافتراض الأبله ، فنعرض الادعاء بأن محمداً لم يكن صادقاً ، وأن دعوته إنما هى من خَلْقه ، وقرآنه إنما هو من صـنعه ، ولكن سرعان ما يعرض علينا هـذا القرآن صـوراً تذيب هـذا الادعاء وتمحوه من أساسه ، اقرأ معى :

« عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعـله يزَّكىَّ ، أو يذَّكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى ، فأنت له تصـدى ، وما عليـك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى . كـلا ، إنهـا تذكرة (١) » .

قصـة جماعة يدعوهم الرسول الى الإسلام ، ورجل أعمى مسـلم يقتحم على الرسول جلسته ليسأل عن شىء غمض عليه ، ولكن الرسـول يستمر فى اهتمامه بهـذه الجماعة رجاء أن يجذبها الى نطاق الإسـلام ، أما هـذا السائل المسلم فَيُعْرِض عنه الرسول مؤقتاً فلن يفوت شىء اذا أجَّل الرسول الإجابة عن سؤاله . ولكن القرآن لا يترك هذا التصرف لمحمـد ، وتتنزل عليه هـذه الآيات التى يقرؤها الملايين . هل هى من صـنع محمد ؟ وكيف جاز لمحمد أن يلوم نفسـه هـذا اللوم ، وأن يجعل هـذا التقريع قرآناً يحفظه الناس ويتلونه على مر الزمن ؟ وفى هـذه الآيات — بالإضـافة الى العتاب واللوم — معان سـامية ، واتجاهات رفيعة ، إذ لا يمكن أن يعارض محمد نفسـه لو كانت الدعوة من خَلْقه ، والقرآن من صـنعته ، لأن الآيات تسـأل بتهكم : لمـاذا تتصدى لتعلِّم من استغنى عنك وعن الأفكار التى تدعو لها ؟ وماذا يضـيرك أن يبقى هؤلاء فى ضـلالهم ... ؟ كلا ، لا تفعل ذلك مرة أخرى .

هـذا أدب الله وتلك سياسة القوى العليا التى لا يصـل الى غايتها فكر البشر ، فالفكر البشرى يحب الحـوار ، والإلحاح به ، والظفر فيه ،

---

(١) سورة عبس الآيات ١ — ١١ .

ولا يرى فى ذلك عيبا ، وأشهد لقد حصل لى حادث مماثل سأذكره هنا ، وليرَ القارىء رأيه فيه :

فى جاكرتا عاصمة إندونيسيا كان يعيش — وأنا هناك — رجل عربى مسلم هاجر الى إندونيسيا من نابلس بفلسطين منذ فترة طويلة وتزوج فى جاكرتا بفتاة مسيحية هولندية ، وأنجب منها بعض أطفال •

وكان هناك حوار يدور أحياناً بين الزوجين عن بعض المبادىء الاسلامية ، ولم يكن الزوج المسلم ذا ثقافة إسلامية واسعة يستطيع بها أن يدافع عن الإسلام ، فقرر أن يدعونى لجلسة تثير زوجته فيها تلك الشبهات العالقة بنفسها عن الإسلام ، وتمت هذه الجلسة بحضور مستشار سفارة مصر ، ودار حديث طويل باللغة الانجليزية بينى وبين السيدة المسيحية ، وعرضتْ هذه السيدة المسيحية شبهاتها : تعدد الزوجات فى الإسلام — الطلاق — نظام الميراث ••• وأخذتُ أشرح وجهة نظر الإسلام فى هذ المسائل ، وطاب الحديث ، وظهر أننى مسيطر على الموقف ، ولانت المرأة وأبدت إعجابها بكثير من الاتجاهات الإسلامية ، وكان زوجها يذكّرها ببعض المسائل التى تعوّدت أن تتساءل عنها ، فتثيرها ، وأجيب ، وفى وسط هذا النصر واللذة التى تصحبه كان المستشار يتدخل سائلا بعض أسئلة ، ولكنى كنت أعرض عنه وأؤجل الإجابة عن تساؤله •

والمهم — الذى أشهد الله عليه وأستغفره منه إن كان ذنباً — أننى كنت وأنا أتجه للمرأة المسيحية داعياً وأعرض عن المسلم السائل ، كنت أتذكر حادثة الرسول آنفة الذكر ، التى أعرضَ فيها عن المسلم واتجه يدعو جماعة الى الإسلام ، كنت أتذكرها تماماً ، ومع هذا ظللت أدعو المرأة المسيحية وأشرح لها ، وظللت أُعْرِض عن المسلم المتسائل ، لأن اجتماعى بهذه السيدة فى جلسة كهذه كان فرصة فريدة ، أما اجتماعى بالسيد المستشار فكان يتم كل يوم تقريباً ، والفرص عنده واسعة ليسأل عما يريد •

ذلك فيما يبدو اتجاه النفس البشرية ؛ حِرْص على الدعوة وعلى تحقيق لـذة الانتصار ، وضمّ جماعة آخرين للدين الذى يعتنقه الداعى ، ولكن اتجاه السـماء مغاير ، يصـعب أن تسـمو النفس الإنسانية إليه ، إنه اتجاه تبينه الآيات الكريمة :

— فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً(١) .

— لو يشـاء الله لهـدى الناس جميعاً (٢) .

مرة أخرى لا يمكن أن تكون سورة عبس من صنع محمد ، فلا يعقل قط أن يتصرف محمد هـذا التصرف العـادى ، ثم يعود فيلوم نفسـه هـذا اللوم القاسى ، ويجعل لومه قرآنا يتلى .

وليست هـذه السورة فقط هى التى اتخذت هـذا الاتجاه ، فهناك آيات أخرى لا تقل عن سورة عبس إن لم تكن أشـد منها وأقسى ، اقرأ معى هـذه الآيات :

— عفـا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صـدقوا وتعلم الكاذبين (٣) .

— ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعـد ما تبين لهم أنهم أصـحاب الجحيم (٤) .

— ما كان لنبىٍّ أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيـا والله يريد الآخرة ؟ (٥) .

---

(١) سورة الكهف الآية ٦ .
(٢) سورة الرعـد الآية ٣١ .
(٣) سورة التوبة الآية ٤٣ .
(٤) سورة التوبة الآية ١١٣ .
(٥) سورة الأنفال الآية ٦٧ .

— لولا كتاب من الله سبق ، لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم (١) .

— لا تقل إنى فاعل ذلك غـداً إلا أن يشاء الله ، واذكر ربك اذا نسيت ، وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هـذا رشداً (٢) .

— وتخشى الناس والله أحق أن تخشـاه (٣) .

— ليغفر لك الله ما تقـدم من ذنبك وما تأخر (٤) .

— فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات (٥) .

— لمَ تحرّم ما أحلّ الله لك تبتغى مرضاة أزواجك (٦) .

وهـكذا تصرفات من محمد لم يقرّها العزيز الحكيم ، فأنزل فيها سبحانه آيات من قرآنه يلوم بهـا ويوجّه ، ويقود فيها رسوله الى المثل العليا ويعلمه بها ما لم يكن يعلم . إنها دلائل واضحة على أن محمداً لم يكن مدّعياً وأنه كان رسول الله ، وأن القرآن الذى جاء به كلام الله .

ولدينا دليل آخر على أن القرآن كلام الله وأنه ليس من كلام محمد ، ذلك أن محمداً كانت تنزل به نوازل من شأنها أن تحفزه الى القول ، وكانت حاجته القصوى تلح عليه ، بحيث لو كان الأمر إليه لوجد لها مقالا ومجالا ، ولكن كانت تمضى الليالى والأيام ، تتبعها الليالى والأيام ، ولا يجـد فى شأنها ، قرآناً يقرؤه على الناس .

ألم يرجف المرجفون بحادث الإفك عن زوجه عائشة رضى الله عنها ؟ وأبطأ الوحى ، وطال الأمد ، والناس يخوضون ، حتى بلغت القـلوب

---

(١) سورة الانفال الآية ٦٨ .
(٢) سورة الكهف الآية ٢٤ .
(٣) سورة الأحزاب الآية ٣٧ .
(٤) سورة الفتح الآية الثانية .
(٥) سورة محمد الآية ١٩ .
(٦) سورة التحريم الآية الأولى .

الحناجر وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس : « إنى لا أعلم عنها إلا خيراً » ثم ـ بعد وقت طال وامتد ـ نزلت الآيات الكريمة : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ... (١) » .

فماذا كان يمنعه ـ لو كان أمر القرآن إليه ـ أن يتقوّل هذه العبارات أو الآيات الحاسمة من أول الأمر ، ليحمى بها عرضه ، أو يذبّ بها عن عرينه ، وينفى عن أحب زوجاته قول السوء (٢) .

القرآن يتحدّى :

على أن محمداً لم يكتف بهذا وذاك دليلا على كون القرآن من عند الله ، بل راح يعلن على المعاندين تحدى القرآن لهم أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله ، اقرأ معى هذه الآيات :

ـ أم يقولون تقوّله ، بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين (٣) .

ـ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (٤) .

ـ أم يقولون افتراه ؟ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين (٥) .

ـ أم يقولون افتراه ؟ قل فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين (٦) .

---

(١) سورة النور الآية ١١ وما بعدها .
(٢) المرحوم الدكتور عبد الله دراز : النبأ العظيم ص ١ .
(٣) سورة الطور الآية ٣٣ ـ ٣٤ .
(٤) سورة الاسراء الآية ٨٨ .
(٥) سورة هود الآية ١٣ .
(٦) سورة يونس الآية ٣٨ .

— وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين [١] ٠

وهكذا نجد ذلك التحدى متدرّجاً ، يطلب منهم أن يأتوا بمثل القرآن ، فاذا ظهر عجزهم انتقل التحدى الى عشر سور ، فاذا عجزوا مرة أخرى تحداهم بان يأتوا بسورة واحدة ، وفى سور القرآن ما هو سطر واحد ، ولكنهم حتى فى هذا كانوا يعجزون ٠ وتحدّى العرب أن يأتوا بسورة قصيرة تحدٍّ مهين ، فليس للعرب ثقافة إلا البلاغة ، وثروتهم الفكرية محصورة فى مجال الشعر والنثر والفصاحة والبيان ، فاذا عجزوا فى هذا البيان رغم التحدى السافر ورغم تعاونهم الذى وجههم إليه القرآن فذلك هو الخزى المبين ، ولكن هيهات أن تصل قوى البشر الى أن تقف وجهاً لوجه أمام قوى الله ٠

مرة أخرى نجدنا لا نستطيع أن نفترض عدم صدق محمد ، ففرض كهذا لا ينتج إلا عن فكر سقيم ونظر كليل ٠

ولكن ليس هذا فقط هو كل ما عندنا لإثبات صحة رسالة محمد ، فإن محمداً أثبت لنا بما لا يحتمل تردداً أنه يحمل رسالة نظمتها قوة أسمى من قوى البشر ، أتى لنا بأفكار وضّحت لنا ما عجزت الإنسانية عن فهمه عبر القرون فيما يتعلق بما وراء الكون ، وأتى لنا بنظم لشئون دنيانا تكفل لمعتنقيها السعادة فى مختلف الأزمنة والأمكنة ٠

الإعجاز البلاغى والإعجاز الفكرى :

قال لى زميل بجامعة كمبردج : قدّم لى الإسلام وأثبتْ لى أنه رسالة من عند الله ٠

قلت له : لقد طلبت شيئاً يسيراً ، لو كنتُ عربياً لوضعتُ القرآن

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣ ٠

بين يديك لترى إعجاز نسجه وإعجاز أفكاره ، ولدفعك هـذا كمـا دفـع كثيرين من العرب للإيمان برسالة محمد ، ولكن رسالة محمد ليست للعرب فقط ، إنها للناس جميعا وفيها براهينها لكل الناس ، وهاك بيان ذلك :

محمد رجل أمى ، لم يعرف القراءة ولا الكتابة « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك » (١) ، وهو قليل الثقافة ، وبيئته كذلك محدودة الثقافة ، ولكن رجلا كهذا جاء بنظام للميراث عاش أربعة عشر قرناً ولا يزال فى ميعة الصـبا ، وعَبَرَ هـذا النظامُ حدودَ الجزيرة العربية الى عـدة أقطار ، واصطدم بمدينات وثقافات متعـددة ، وقورن بأفـكار البشر فى رحلته الطويلة ، ولكنه رجحها ولا يزال يرجحها ، تعال معى نقارنه بالنظـام الإنجليزى الذى يعطى الميراث للابن الأكبر ويَدعَ مَنْ سواه من الأبناء والبنات ، وتعال نقارنه بالنظام الهولندى الذى يعطى نصف الثروة للزوجة ثم يقسم الباقى بالتساوى بين الأولاد والبنات والزوجة مرة أخرى ، وتعال نقارنه بالنظم التى تعطى البنين وتحرم البنات كما كان متبعاً لدى كثير من قبائل العرب ولدى السـكان بشمالى إفريقية ، وتعال نقارنه ببعض النظم التى تجعل الميراث لابنة الخالة الكبرى وتحرم من سواها ، كبعض الأنحاء بإندونيسيا ، تعال نقارنه بالنظم القـديمة والحديثة وسنجده يرجح الجميع دون شـك وباعتراف المفكرين المخلصـين .

هذه واحدة ، وجاء هذا الرجل الأمى بنظام للزواج ، وبنظام للطلاق ، ونظـام للرق ، ونظام للعبادات ، ونظام للسياسة ، ونظام للاقتصـاد ، وتنظيم للحرب ولما بعد الحرب من مشكلات ، وتنظيم لغير المسـلمين فى المجتمع الإسـلامى ، وتحـدث هذا الرجل عن موضوع اهتزت فيه عقول البشر مـدى التاريخ وهو الله ، وبيَّن من هو الله فى التفكير الإسـلامى ، وتحدَّث هذا الرجل عن ما وراء الكون فجلَّى كثيراً من النقاط (وسنشرح هذه الأشياء كلها أو أهمها فى هـذا الكتاب) .

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٨ .

قلت لمحدثى : ترى أيمكن أن تكون كل هذه الأشياء من صنع محمد ؟

وقبل أن يجيب محدثى كان هناك زميل آخر يصغى باهتمام لما أبديه من شروح وإيضاحات ، وسمعنى هذا بعد هذه الشروح أسأل محدثى السؤال السابق ، فسارع يجيب قائلا : إن كانت هذه الأشياء من صنع محمد فمحمد ليس بشراً ، إن هذه التنظيمات وهذه الآراء تعجز عن القيام بها لجان كثيرة لها ثقافات عالية ، وتخصصات عميقة ، مهما أتيح لها من المراجع والدراسات والوقت .

قلت لمحدثى : ما رأيك ؟

قال فى يقين وثبات : نفس الرأى الذى قاله صديقنا ، وأشهد أن رجلا أيًا كانت عبقريته ، وأيًا كانت ثقافته ، ليعجز عن أن يأتى بتنظيم فى مسألة واحدة من هذه المسائل ، فما بالك بكلها مع تنوعها وتلوّن اتجاهاتها ، واعتنق هذا الزميل الإسلام ، وسمى نفسه محمداً تيمناً بالرجل الذى جاء هذا الخير على يديه ، ولا يزال حتى الآن يزداد حبه للإسلام وإعجابه بنبىّ الإسلام .

تلك هى دعوة الإسلام ، تضعها فى الميزان فترجح ، تختبرها فتزداد فيها يقيناً وبها إعجاباً ، وتناقشها بالعقل والمنطق فتساير العقل والمنطق ، وتبحثها بالحكمة والتؤدة فتصل الى القول الفصل . لقد صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما قال ، جاء برسالة من عند ربه ، أبانت لنا كل الشئون ، وضمنت لنا خير الدارين ، فاعتنقناها ، لا لأن آباءنا سبقونا إليها ، لا ، لا ، بل لأنا درسناها عن عنادٍ أحياناً وتؤدة أحياناً فغلبتنا فى كل حين ، وأبانت لنا أنها جمعت كل ما فى الرسالات السابقة من خير ، وأنها أضافت إليها ما يناسب تقدم البشرية ، وما يضمن للجنس البشرى

ـــ فى رحلته التى لا يزال يقطعها ـــ الاستقرار والسلامة ، إنها رسالة اليسر والبساطة ، تدخلها دون عناء أو طقوس ، وتصـــلى حيث تكون ، وحـــدك أو من جماعة ، إذ جُعِلَت الأرض كلها مسجداً للمسلمين ، وليس بين المسلم وربه وســـيط يعمّده ، أو يجيز زواجه أو يتلقى اعترافه ، أو يبيع له جنات الخـــلد ، إنها رسالة الحرية والسلم ، رسالة العقل والقلب ، رسالة المـــادة والروح ، رسالة التعاطف والقوانين • فلنسر معـــاً نبسط أبرز المسائل التى شرحها هـــذا الدين ، وأتى بها محمد من عند ربه بفصـــل الخطـــاب •

اللـــــه

ما أظـلم الإنسان وأقساه ، كيف يحاول فى ضـعفه وجهـله أن يتحـدث عن الله ؟

ولكن الله رب العالمين الذى أجله قوم وعبدوه ، وسجدوا له وأحبوه ، ينكره آخرون ولا يعترفون به ، ولا يدركون آلاءه ، ولا يشهدون بهاءه •

لمـاذا أنكره هؤلاء ؟

وكيف السبيل لقيادتهم الى النور ولرفع الشـكوك من نفوسـهم والغشـاوة عن قلوبهم ؟

هـذا ما سنحاول أن نـُجـَلـِّيـَه هنا ، ولكن حـديثنا على كل حال لن يكون مقصوراً على من أنكر وشـطّ عن الهـدى ، بل سنتجه بحديثنا أيضـاً الى قوم وقفوا حيارى ، يطلبون سواء السبيل فلا يصلون إليه ، لأن خبراتهم ومعارفهم لا تصـل بهم الى هـذه الغاية •

وسنتجه بحديثنا أيضـاً الى قوم لم ينكروا الله ولكنهم أيضـاً لم يعرفوه لأنهم لم يطلبوا هـذه المعرفة •

ثم سـنتجه بحـديثنا كـذلك الى قـوم آمنـوا بالله واعترفوا به إيمـان تسليم وإذعان فقط ، لعلنا نرفع مستوى ذلك الإيمان فنجعـله إيماناً عن فكر ودراسة ويقين به •

وكم يكون سرورنا بالغـاً اذا قدمنا بحـديثنا هنا للعارف بالله زاداً جـديدا يقوّى به إيمانه ، ويزيده ثقـة ويقيناً •

وسيشمل حـديثنا عن الله جـل جـلاله ثلاثة مباحث هى : وجوده ، ووحـدانيته ، وصـفاته •

وجــود الله :

نعود للسؤال الذى سألناه من قبل وهو ، لمــاذا لا يعترف كثيرون من الناس بالله ولا يؤمنون بوجــوده ؟

الجواب عن ذلك سهل يسير ، هو أنهم ماديون والله ليس مــادة .

والحقيقة أن مادية الإنسان متسلطة عليه ، مسيطرة على قواه ، وكثير من الناس يخضــعون لهذه المادية ويرونها فلسفتهم ويبنون تفكيرهم على توجيهها وإرشاداتها ؛ وكثير آخرون يقاومون هــذه المادية فى نفوســهم وينعشون بذور الروحانية فيهم ، وهؤلاء درجات متفاوتة ، أعتقد أنى لا أظلم الناس لو قلت إن قليلين جداً هم الذين سَمَوْا بروحانيتهم الى الطبقة العليـــا .

وبعض الفقهاء مع ورعهم لا يخلو حديثهم من اتجاه مادى فيما يتعلق بالله جل وعــلا ، فتراهم عندما يتحدثون عن الإسراء والمعراج — وهو قطعاً بالروح والجسد فيما يتعلق بالرسول — يبدو فى حديثهم اتجاه مادى يتصل بالله ، فهم يتخيلونه جالساً فى أعلى عليين ، ويصورون محمداً صاعداً إليه سماء بعد سماء ، مع أنهم يعرفون الاتجاه السليم الذى يرى أن الله ليس له مكان ، أو أنه سبحانه فى كل مكان ، ويقرأون فى ذلك قوله تعالى : « وسع كرسيه السموات والأرض » (١) .

أيها القارىء ، أيا كان اتجاهك الدينى ، هل تنكر أنك مادى ؟

إن كنت تنكر ذلك فإنى سأسرد لك من حياتك اليومية صوراً بسيطة ساذجة لتمتحن بها ماديتك وروحانيتك :

أنت — أغلب الظن — تستعمل معجون أسنان وفرشاة ، وعند ما تنفد

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٥ . واقرأ عن الاسراء والمعراج الجزء الأول من موسوعة التاريخ الاسلامى للمؤلف .

أنبوبة المعجون تذهب تواً لشراء أنبوبة أخرى ، ولكن اسأل نفسك : متى تشترى فرشاة أخرى ؟ إن نصائح أطباء الأسنان تقضى بأن الفرشاة يلزم أن يُستبْدل بها غيرُها من حين الى آخر ، لأنها تصبح غير صالحة للاستعمال بعد فترة من الزمن ، وإن كانت لا تزال تحمل الشعيرات وتبدو كأنها سليمة • فأنت لا تتأخر عن شراء أنبوبة المعجون يوماً واحداً لأن انتهاء صلاحيتها شيء مادى ، ولكنك غالباً تؤجل شراء الفرشاة لأن انتهاء صلاحيتها ليس واضح المادية وإن كان لا يخلو منها •

وأنت تمرض جسمانياً فتسارع للطبيب لأن مرض الجسم شيء مادى تحس به ، فاذا أرشدك الطبيب لدواء اتبعت تعليماته بكل دقة ، ولكنك تمرض نفسياً أمراضا أشد فتكاً من أمراض الجسم وأشأم أثراً ، وتحس بهذه الأمراض وتدرك خطرها عليك وعلى الناس • فهل تسارع لطلب الدواء للخلاص من هذا الداء ؟

هل تحس أنك حسود ؟ أو تكره الناس ؟ أو لا تميل الى التعاون ؟

وهل تحس بالكبر وعدم أداء الواجب ؟

كل هذه أمراض فتاكة تنزل بالإنسان ، وقلّ من يحاول أن يجد لها العلاج ، وقل من يقبل سبل العلاج إن حصلت له ، لماذا ؟ لأن الإنسادى مادى يعيش للمادة ولا يهتم كثيراً بالروحانيات •

وأنت تشترى قلم الرصاص وتشترى معه مبراة ، ويصغر القلم رويدا رويدا حتى لا تستطيع أن تمسك به فتلقى به جانباً وتسرع فتشترى قلما آخر ، ولكنك لا تشترى مبراة أخرى مع أنها فى الحقيقة قد انتهت صلاحيتها للعمل كما انتهت صلاحية القلم ، ولكن انتهاء القلم مادى فقد صغر وصغر ، أما انتهاء صلاحية المبراة فليس واضح المادية ولذلك

تحاول استعمالها مرة أخرى ومرات ، وهى لا تستجيب لك ، وربما أفسدت لك الأقلام ، ولكنك تظل تلح عليها لأنك لا تريد أن تدرك غير المـادة .

وأنت أيها المسلم تصلى وتتجه الى البيت الحرام ، وأنت أيها المسيحى تتجه أيام الآحـاد الى الكنيسـة ، والبوذى والهندوكى وغـيرهما الى المعابد ، ويصـلى كل من هؤلاء صـلاته ، يقرأ ويدعو ويركع ويسجد . ولكنى أسألك : هل كنت متجهاً الى إلهك بقلبك وأنت تصلى ؟

وهل كنت تحس بأنك تكلمه وتعيش معه وتناجيه ؟ أو أنك مـادى ينطق لسانك وتتحرك أعضاء جسمك ، وقلبك فى شغل عن هذه الصلاة ؟

إن كنت تفعل ذلك فأنت تؤدى من الصـلاة جانبها المـادى وتفقد حلاوة روحانيتهـا .

وهكذا تتجه حياة الإنسان ، كلها مـادة ، والجانب الروحى فيهـا ضـئيل مغلوب على أمره ، فاذا قيل للإنسـان شىء عن الله . أسرعت المـادية الى نفسه أو الى لسـانه ، ففكر أو سأل : أين يسـكن الله ؟ وما شـكله ؟ وما لونه ؟ وأين كان قبل أن توجد السـموات والأرض ، أو بعبارة أخرى اتجـه بالله اتجاهاً مادياً ؛ فاذا لم يره بعينه أو لم يمسه بيـده ، أنكره ، وربمـا هاجمـه .

قال لى محـدثى وهو من هؤلاء ـ وكنـا نتكلم عن الله ـ لمـاذا لا يظهر الله للناس ويريهم سلطانه وعظمته ليؤمنوا به وليدينوا له بالطاعة ؟

ودهشت لهذا السؤال ولكنى تمالكت نفسى وبدأت أجيب :

قلت له : إنك لا تؤمن إلا بما ترى ، فكيف تؤمن بروحك التى تتسلط على أعضائك وأنت لا ترى هـذه الروح ؟ ثم إنك يا محـدثى تريد أن يظهر الله ، وهل اختفى حتى تتطلب ظهوره ؟

إنه « الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم (١) » .

إنه « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور (٢) » إنه « الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم » (٣) . إنه الله الذى « لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء » (٤) .

وقلت له : ولكنك يا محدثى إنسان مادى تريده جسما والله ليس بجسم ، تريده مادة وهيهات أن يكون الله مادة ، ثم يا محدثى الأجل كيف تريده أن يظهر ؟ أتريده إنساناً ضخم الجثة ، مهيب الوجه ، يأمر الريح فتهدأ ، والميت فيحيا ، والبحر فيجف ؟ هل يكفيك هذا لتؤمن به ؟ ولكن هل نسيت يا محدثى أن عيسى أحيا الموتى وشفا المجذوم ، وأن البحر جف لما ضربه موسى بالعصا ، ومع هذا فقد ضل أتباع هذا وذاك ؟ فأهمل أتباع موسى إلهه الذى كان يدعو إليه وراحوا يعبدون عجل السامرى ، وحكم قوم عيسى عليه بالقتل صلباً ، وعملوا على تنفيذ حكمهم فيه ؟

واذا جاءك الله بجلاله ودخل بيتك وأقام لك المعجزات لتؤمن به ، فهل تريده أن يطوف بكل الدور فى الدنيا الواسعة وأن يقف بكل منها وقفة يثبت ألوهيته ويقيم عليها الأدلة والبراهين ؟ وما رأيك فى أنه عند ما ينتقل من قرية الى قرية سيدع فى القرية التى خلفها ألواناً من الشكوك والريب ، وسيقول قوم : إنه ساحر ، وسيقول آخرون : إنه مفترٍ أثيم ؟

---

(١) سورة الحديد الآية الثالثة .
(٢) سورة غافر الآية ١٩ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .
(٤) سورة آل عمران الآية الخامسة .

لا يا محـدثى ، المسألة أنك مادىّ ، عميق الجـذور فى المـادية ، والطريق الوحيد لتدرك الله أن تقوّىَ جانبك الروحى والفكرى .

إغـاثة المظـلوم :

وقال لى محـدث آخر : اذا كان الله موجوداً وخالقاً للخلق وعادلا فلماذا لا ينصر المظـلوم ؟ .

قلت له : إن انتصار الله للمظـلوم دليل نتخذه لوجود الله ، ونعتقد أن الظالم لابدّ أن يُثأرَ منه ، وأنه ليس هناك حجاب بين الله وبين دعوة المظلوم ، ولكنك يا صـديقى مادى أيضـاً تتصـور الله شرطياً يهتف به المظـلوم فيسعى له الله فى الحال وينزل بظالمه العقاب ، والله يا سـيدى ليس شرطياً ، إنه يدبّر الأمور بعمق أكثر مما تتصـور ، وينزل العقاب حينما وكيفما يرى ذلك .

وقد يكون من الحـكمة أن يمهل الله الظالم فترة ، حتى اذا تجمّعت ألوان الظـلم التى يوقعها بالآخرين أنزل الله به سخطه وعقابه . قال تعـالى : « إنما نملى لهم ليزدادوا إثمـاً » (١) .

وأنت يا محـدثى تحدّد المظلوم وتشفق عليه ، مع أنك لا تعرف المظلوم الحقيقى ولا تعرف من قصـته إلا ما تراه ، ألا يمكن أن يكون مَنْ تراه مظـلوماً هو فى الحقيقة ظالم ، ولكنـه يتظاهر بأنه مظـلوم ليخدعك بدمعه أو صراخه ؟

ألا يمكن أن يكون ما يقع عليه من ظـلم تراه ، هو فى الحقيقة انتقام لظـلم أوقعه هـذا الباكى بسواه من قبل وأنت لا تعرف ؟ اقرأ معى هـذه الآيات :

---

(١) سـورة آل عمران الآية ١٧٨ .

— ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض (١) •

— ولكن الله يسلط رسله على من يشاء (٢) •

— وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون (٣) •

وتحضرنى قصة عربية ليست بعيدة عما خطر لك يا محدثى الفاضل أسردها لك لترى تدبيرك وتدبير الآخرين : تروى كتب الأدب أنه — فى نقائض جرير والفرزدق — هتف جرير يهدد صاحبه :

ذاك ابن عمى فى دمشق خليفة لو شئت ساقكم الىّ قطينا

وكان الخليفة ابن عم جرير حقيقة ، فماذا فعل الخليفة ؟ هل انتصر للشاعر ابن العم ؟ هل خذله ؟ الجواب أن الخليفة قال لابن عمه الشاعر : إنك مازدت عن أن جعلتنى شرطياً ، ولو قلت : لو شاء ساقكم إلىّ قطيناً ، لسقتهم إليك •

هذا هو الخليفة الأموى لم يرض أن يكون شرطياً لابن عمه الشاعر ، فهل تريد الله فى جلاله وجبروته أن يكون شرطياً لمن تراه أو لمن يرى نفسه مظلوماً ؟ وتريد الله أن يسرع للظالم ويمسك بتلابيبه ؟ الإجابة مرة أخرى إنك مادىّ ، ومعرفة الله تحتاج الى جانب روحى لأن الله ليس بمادة •

الطفل الأعمى أو الأخرس :

ومحدث ثالث صرخ فى وجهى ينكر الله ويقول : لو كان هناك إله ما خلق طفلا أعمى أو أخرس أو مشوه الخلقة ، لأن هذا الطفل لا ذنب له فيما وقع به من سوء •

قلت له : يا سيدى إنك مادى تقيس الأمور بمقياس المادة وهو

(١) سورة البقرة الآية ٢٥١ .
(٢) سوة الحشر الآية السادسة .
(٣) سورة الأنعام الآية ١٢٩ .

مقياس ضــئيل لا يصل بصاحبه الى غاية محمودة ، اسمع يا سيدى — وكان الحــديث يجرى فى انجلترا عقب الحرب العالمية الثانية — ما رأيك فيمن أكلتهم الحرب أو شوهتهم وسلبت عيونهم ؟

قال : لقــد ضــحوا ليسعد الآخرون .

قلت : ولمــاذا لا تعتقد أن ألوف الآباء سيحسون بالسعادة وينطقون بالشكر لسلامة أبنائهم عند ما يرون المشوهين ؟

ولماذا تنسى أن هذه العاهة قد تكون مصدر خير على صاحبها ؟ والذى لا أشــك فيه أن بعض العميان وصــلوا الى مكانة ما كان من الممكن أن يصــلوا إليها لو كانوا مبصرين .

ولمــاذا لا تعتقد أنه لولا هــذه العاهة لكان من الممكن أن يكون هــذا الإنســان مصــدر شر وبيل على الإنسانية ؟

ولماذا تنسى الملايين الذين خلقهم الله فأحسن خلقهم ثم تنكر وجوده لهذا الشىء النادر الذى لابد أن يكون لحكمة نستطيع أن ندركها حيناً ، ولا نستطيع أن ندركها حيناً آخر ، بسبب اتجاهاتنا المادية وضعف الناحية الروحانية فينــا ؟

الفطــرة والوجــدان :

تلك صــور من المــادة والماديين ، على أن هؤلاء فى وسط ضلالاتهم وماديتهم يعترفون بالله بفطرتهم ، فالفطرة فى ذاتها سليمة « ولا يــكاد يوجــد فوق الأرض مخلوق لا ينطوى على شىء من الشوق الروحانى ، أو شعور باطن مبهم بأن هناك قوة عليا يتوجه إليها بفطرته » (١) وهــذه الفطرة السليمة يتراكم عليها الصــدأ فى كثير من الأحوال بسبب الاتجاهات المــادية وقلة الثقافة الروحية ، ولكن الفطرة تتغلب على الصــدأ أحياناً تحت تأثير منظر رائع ، أو نجاح خارق ، أو هزيمة قوى أمام ضعيف ،

---

(١) مجلة المختار : اكتوبر ١٩٤٤ .

أو ما شابه ذلك ، فاذا بالوجدان يتيقظ ، واذا بالفطرة تعـود ، واذا بالإنســان الذى كان ضــالا يهتف : يا سبحان الله !! لا قوة إلا بالله .

ومعرفة الله هكذا عن طريق الفطرة والوجدان والضمير معرفة لا تحتاج الى دليل ، إنها صـحوة لهـذا الوجدان ، ويقظة للجانب الروحى ، ومن الواضـح أن هذا الجانب متفاوت فى الإنسان ، ولذلك فدرجات يقظتـه تتناسب مع درجات وجوده ، ولكن الجانب الروحى موجود على كل حال . ومن الأسباب التى تزيل الصـدأ عن الوجدان وتنعش ما ضعف من الجانب الروحى ، الشدائدُ والكوارث التى تنزل بالإنسان ، وكلما كثرت الشدائد وقلَّ المعين كلما تساقط الصـدأ وبدأ الوجدان يظهر وينشط ، اقرأ معى هـذه الآيات لا على أنها قرآن مجيد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بل على أنهـا تصـوير دقيق للنفس البشرية لا يستطيع أحـد جحـوده . قال تعالى :

ــ واذا مس الإنسانَ الضُّرُّ دعانا لجنبه أو قاعـدا أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كأنْ لم يَدْعُنَا الى ضُرٍّ مسَّه (١) .

ــ هو الذى يسيِّركم فى البر والبحـر حتى اذا كنتم فى الفـلك وجريْنَ بهم بريح طيبة وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصـين له الدين لئن أنجيتنا من هـذه لنكونن من الشاكرين (٢) .

ــ واذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه (٣) .

ــ وما بكم من نعمة فمن الله ، ثم اذا مسكم الضر فإليه تجأرون(٤) .

الروح موجـودة :

على أن الماديين قد مُنُوا بهزيمة ساحقة قوَّضت عليهم البنيان المادى

---

(١) سورة يونس الآية ١٢

(٢) سورة يونس الآية ٢٢ .

(٣) سورة الروم الآية ٣٣ .

(٤) سورة النحـل الآية ٥٣ .

الذى شيدوه ، لقــد اتخذوا العالم على أنه مــادة ؛ ولادة وحياة ثم موت وفناء ، واذا بالأبحاث تثبت وجود الروح بعد موت صاحبها وهو اتجــاه الإسلام فى شأن الروح وقد قال عنه الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت ما يلى : والذى ترشــد إليه الآثار الدينية أن الروح تخرج من بدن الإنسان فيكون المــوت ، وأنها تبقى ذات إدراك ، تسمع السلام عليها ، وتعرف من يزور قبر صاحبها ، وتدرك لــذة النعيم وألم الجحيم ، وأن مقرّها يختلف بعد مفارقة البدن بتفاوت درجاتها عند الله (١) •

وقــد أجريت تجارب لتحضير الأرواح حضرتُ بعضــها بنفسى ، ولست أستطيع أن أنفيها ولا أثبتها ، فالنظم التى اتبعت فى تحضير الروح أمامى كانت الى البدائية أقرب ، فلم تصــل بى الى درجة اليقين ، وإن كنت كما قلت لا أستطيع أن أنفيها لأن مظاهر حصــلت أمامى لا أعتقد أنها من الخــداع أو التّرّهات ، واذا كان هــذا موقفى فإن كثيرين من الباحثين أتيحت لهم فرصٌ أوسع ، شهدوا فيها ما جعلهم يؤكدون أن الروح كائن حى •

والماديون أكثر حاجة لدراسة هــذا الموضوع لعلهم بعد أن يدركوا شــأن الروح ، تنهار المــادية المتسلطة عليهم •

وعن طريق الفطرة والوجــدان الذى سبق أن تحدثنا عنه والذى يقودنا الى الاعتراف بالله دون حاجة الى دليل أو برهان ، عن هذا الطريق يقول برودن : إنّ ضــمائرنا قد شــهدت لنا بوجــود الله قبل أن تكتشفه عقــولنا •

ويقول الأستاذ العقاد (٢) : فى رأينا أن مســألة وجود الله مسألة « وعى » قبل كل شىء ، فالإنسان له « وعى » يقينى بوجوده الخاص وحقيقته الذاتية ، ولا يخــلو من « وعى » يقينى بالوجــود الأعظــم والحقيقة الكونيــة •

---

(١) الفتاوى ص ١٥ •
(٢) الله ص ٢١١ •

وبجـوار هـذا الدليل هناك أدلة أخرى نستطيع أن نعتمد عليها للتدليل على وجود الله سبحانه وتعالى ، وهـذه الأدلة هى : الدليل العقلى والدليل النقلى والتجربة الشخصية ، وعن كل منها سنتحدث حديثاً خاصاً هو — حتى ما يتعلق بالدليل النقلى — الى الاتجاه العلمى أقرب منه الى الاتجاه الدينى ، كما سيبدو فيما بعـد .

الدليـل العقـلى :

كثيرون من الناس يطلبون الدليل العقلى على وجود الله ، ولدينـا هـذا الدليل العقلى الذى عقدنا له هـذا الجزء من الحـديث ، والحقيقة أن القرآن الكريم — كما سيأتى — حث الناس على استعمال عقولهم ليعرفوا الله من خلال ذلك ، ولكنا نريد أولا أن نوضح غرور الناس بعقولهم ، وكيف وصـل كثير منهم الى الهاوية بسبب هـذه العقول ، وفى المثل الريفى الذى سمعته منذ نعومة الأظفار فى قرى مصر : « كل واحـد راض عن عقـله وساخط على جيبه » وهذه حقيقة واضحة ، فأغلب الناس أو كلهم يعتقدون أنهم أذكياء ، وفى غاية الفطنة ، وقلما يعترف واحـد منهم بقصور عقله أو بتفوق شخص آخر عليه فى القريحة والمواهب ، وقـد جلب هذا الوضع الشـقاء للناس ، أى أنهم تعسوا بعقولهم وكان عليهم أن ينعموا بهـا ، وسبب تعاستهم بهـذه العقول أنهم تعرضوا لأشياء تقصر عقولهم عن الوصـول إليها ، تعال معى لتختبر عقلك :

أنت ترى بعينيك ، فهل تعرف كيف ترى ؟

وأنت تسمع بأذنيك ، فهل تدرك كيف تسمع ؟

وتحمل فى جسمك آلات من أنواع مختلفة ، بعضـها يتبع الدورة الدموية ، وبعضها يتبع الدورة الغذائية .. فماذا تعرف عن هذه الآلات ؟

وفى يدك ساعة تدرك بها الوقت ، فهل تعرف كيف تعمل هذه الساعة ؟

وفى بيتك مذياع وجهاز تلفزيون ، فهل تدرك كيف تلتقط الأحاديث والصورة وتنتقل إليك ؟

وألم يحصل لك أن قرأت كتاباً ثم عجزت عن فهمه أو فهم سطور منه ؟

وألم تشتر مرة قماشاً بعد اختبار واختيار ، ثم تبين لك أن عقلك قد خدعك ، أو ضعف عن حسن الاختيار فأعدت القماش أو كرهته ؟

وهكذا أستطيع أنا وتستطيع أنت أن نعد مئات الأمثلة عجز فيها عقلك عن فهم أمسّ الأمور به وأسهلها تناولا ، وهى أمور معروفة لكثيرين من الناس ، فطبيب العيون يعرف كيف ترى العين ، وطبيب الأذن يعرف كيف تسمع الأذن ، وصانع الساعات يعرف كيف تعمل الساعة ، وهكذا ، فطبيعة هذه الأشياء أن يدركها العقل ، ومع هذا عجزت عقول الأغلبية عن فهمها ، واكتفت هذه الأغلبية بفهم المختصين لهذه الأمور ، فإذا مرضت عين شخص أسرع للطبيب وسلّمه قياده ، واذا فسد المذياع حملناه الى المختص وتركناه بين يديه ، ومن أجل هذا أسألك أن تكون كذلك فى ميدان معرفة الله عن طريق العقل ، أى أنك اذا أحسست قصوراً فحذار أن تنكر الله ، ولكن سارع فأعط القيادة ربانها ، واتبع من سبقوك فى معرفة الله بسمو مواهبهم .

إما اذا أحسست أن عقلك من الفطنة بحيث يصل الى هذا المستوى السامى فلا بد أن تستعمله ليكون إيمانك أوثق وأعمق ، وقد حثك القرآن على استعمال عقلك كما سبق القول ، وقدم لك مادة تستطيع خلالها — إن كنت موهوباً — أن تثبّت يقينك فى الله ، اقرأ هذه الآيات :

— هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآيةً لقوم يتفكرون ، وسَخّرَ لكم الليلَ والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون ،

وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه إن فى ذلك لآية ً لقوم ٍ يذكرون ، وهو الذى سخَّر َ البحر لتأكلوا منــه لحمــا طرياً وتستخرجوا منــه حِلْيَةً تلبسونها ، وترى الفُلك مواخر فيــه ، ولتبتغوا من فضــله ِ ولعــلكم تشكُرون ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعــلكم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون ، أفمن يخلق كمن لا يخــلق ؟ أفلا تذكرون ؟ ، وإن تعدوا نعمة َ الله لا تـُحْصُوها إن الله لغفور رحيم (١) .

ـــ والبُدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صــواف ً فإذا وجبت جنوبـُها فكلـُوا منهــا وأطعموا القانع والمعتر ً ، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون (٢) .

ـــ والذى خلق الأزواج كلها ، وجعــل لكم من الفلك والأنعــام ما تركبون ، لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه ، وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين (٣) .

ويجــدر بنا أن نعلق تعليقا سريعا على هــذه الآيات التى توضــح أن الله سَخَّر َ لنــا ذوات قوى كان من الممكن أن تطغى علينا بما بها من قوة وجــلال وصلابة ، وليتذكر القارىء ضخامة الجبــل وعظمة البحر ، وقوة الجمل والثور والحصان ، ومع هــذا فإن الله قــد ذللها لنا فأسكن الجبل والبحر ، وجعل الحيوانات القوية تذل للولد الصــغير ، يضربها ويركبها ويحمل عليها ، وما كان البشر بمستطيع ذلك لولا قوة الله التى طمأنت من جبروت هــذه المخلوقات وأخضعتها لمصالح الإنسان .

ومن أجل هــذا يوضح الله فى الآيات الســابقة أن ً على البشر أن يشكروا الله أن ْ سخر لهم هــذه القوى ، وما كانوا بدون ذلك بمستطيعين

---

(١) سورة النحل الآيات ١٠ ـــ ١٨ .
(٢) سورة الحج الآية ٣٦ .
(٣) سورة الزخرف الآيات ١٢ ـــ ١٣ .

أن يتغلبوا عليها وينتفعوا بها ، ولا يزال الإنسان من حين الى آخر يرى البحر يثور ، والجبال تهتز ، والحيوان يشرد ويتمرد ، ويقف الانسان ضئيلا أمام هذه القوى ، ويبدو على حقيقته من الخور والضعف حتى يأتيه عون الله فيعيد هذه الكائنات الى الخضوع والاستكانة ، ويعيد للانسان القدرة على السيطرة عليها ، وما كانت هذه الثورة العارضة إلا تذكيراً للانسان بحقيقة قواه وحقيقة القوى المسخرة له .

ولنعد الى اقتباس مزيد من الآيات القرآنية التى تحث على استعمال العقل لمعرفة الله :

— وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون (١) .

— أو لم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير (٢) .

— ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم (٣) .

ويقول الأستاذ الإمام محمد عبده : إن الدعوة لتوحيد الله لم يعول فيها إلا على تنبيه العقل البشرى ، وتوجيه النظر فى الكون ، واستعمال القياس الصحيح ، والرجوع الى ما حواه الكون من النظام والترتيب ،

---

(١) سورة الرعد الآية ٤ .
(٢) سورة الملك الآية ١٩ .
(٣) سورة الروم الآية ٢٢ .

وتعاقب الأسباب والمسببات ، ليصل بذلك الى أنّ للكون صانعاً ، واجب الوجود ، عالماً حكيما قادراً (١) •

وقد حصلت لى تجربة خاصة فى التدليل على وجود الله ، سأقصها هنا كما حدثت مع شيء من الإيجاز بقدر الطاقة •

كنت فى زيارة رسمية لأحد أقاليم إندونيسيا حيث أمضيت عشرة أيام ، وقد نظّمت لى وزارة الشئون الدينية عدة اجتماعات خاصة وعامة لإلقاء محاضرات على المدرسين والهيئات والجماهير ، وفى ذلك الإقليم كانت هناك رابطة للذين تلقوا علومهم فى الغرب ، أو اتجهوا بأفكارهم الى الثقافة الغربية ، وخلال الأيام الأولى لزيارتى لم يهتم أفراد هذه الرابطة بمحاضراتى ولم ينضموا للجماهير الغفيرة التى كانت تحضرها ، وحجتهم فى مقاطعة هذه المحاضرات اعتقادهم أن المحاضر يتحدث عن الدين كما تعود كثير من الشيوخ أن يفعلوا ؛ يرغّبون فى طاعة الله ، ويحثون على العبادة ، وهكذا ، ومستوى مثل هذه المحاضرات التى تخيلوها لم يكن يناسب ثقافتهم ومعارفهم •

غير أن هؤلاء المثقفين عرفوا بعد أيام من زيارتى أن الأحاديث التى كنت ألقيها عالية المستوى كما قالوا لى فيما بعد ، وقد أغراهم ذلك بالاتصال بى ، فأرسلوا لى مندوباً عنهم يسألنى عما اذا كنت مستعداً أن ألقى محاضرة بناديهم تكون عبارة عن إجابات لشكوك دينية أصبحت لديهم حقائق أو عقائد ، وأجبت على الفور بالقبول ، وكانت ليلة طويلة حضرها هؤلاء المثقفون ، وحضرها جماعات غفيرة سواهم ليروا هذا اللقاء وينظروا نتائجه •

وقدمنى رئيس الرابطة تقديماً رائعاً كله تقدير واحترام ، وشكرتُ

---

(١) رسالة التوحيد ص ٥٢ •

فأطنبت ، ثم بدأت أتكلم ، ورغبة في تشجيع المتشككين ليظهروا شكوكهم ، ذكرت أنني شخصياً مرت على في حياتي بعض صور من الشكوك والغموض ، وربما مرت هذه الصور أو شطر منها بمن هو أرقى منا درجة في المعرفة ، فالقرآن الكريم يحدثنا عن ابراهيم وكيف سأل ربه : رب أرني كيف تحيي الموتى • قال : أولم تؤمن ؟ قال : بلى • ، ولكن ليطمئن قلبي (١) • وكيف سأل موسى ربه : رب أرني أنظر إليك (٢) •

وانطلق القوم بعد ذلك يسألون ، وانطلقت أجيب : ومن إسناد الفضل لصاحبه أن أقرر أن عوناً ضخماً جاءني من الله ، وأن فيضا من عرفانه طاف بي وأمدني ذلك المساء ، والذي يهمنا هنا من ذلك الموضوع أن من بين الأسئلة سؤالا أثاره واحد منهم ، وكان تعبيراً عما يدور بخلد الجميع ، قال :

أنا أنكر أن للكون إلهاً ، وأعتقد أن الناس عمل الطبيعة ، ولدوا وعاشوا ثم يموتون ، فهل عندك دليل واضح على وجود الله ؟

وأجبته في حزم ويقين : إن عندي من الأدلة ما يجعل اللبيب يرى الله ويوقن به أكثر من يقينه أنه إنسان ، ولكن السؤال الذي يهمني هو : هل أنت جاهل تريد أن تتعلم أو جاحد تريد أن تناقش وتناضل وترد كل دليل يلقى إليك دون فكر ولا روية ؟ إن كنت جاهلا فأنا قمين أن أعلمك ، وإن كنت جاحداً فلست أستطيع لك الهداية ، فلتبق بعيداً عن الله ولنبق بعيداً عنك هدى الله ، ولن يضيره شيء أن تنكره •

قال : أنا جاهل أريد أن أتعلم •

قلت : جميل ، ولكن لتدرك وليدرك معك أصحابنا الجالسون معنا

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٠ .
(٢) سورة الأعراف الآية ١٤٣ .

أن المرض الذى ألمَّ بك مرض خطير ، وأن علاجه يحتاج الى وقت ليس بالقصـــير ، فلنصطنع الصبر ، وأنا كفيل بالنتيجة هــذا المســاء على كل حــال .

ما الدواء الذى قدمتُه للحاضرين ؟ إنه نقاط مما ورد ويرد ذكره فى هــذا البحث ولكنى اعتمدت أكثر الاعتماد على آية من الآيات السابقة التى ساقها الله جل جــلاله دليلا على وجوده وعظمته ، تلك هى قــوله تعــالى : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختــلاف ألســنتكم وألوانــكم » (١) .

قلت للحاضرين وفى قمتهم أعضاء هــذه الرابطة : هل فيكم مهندسون متخصصون فى العمارة ؟ فأشار خمسة منهم بالإيجاب ، فأعطيت كلا من الخمسة ورقة ، وقلت لهم إن عندى قطعة أرض طولها ثلاثون متراً وعرضها عشرون ، وأودُّ أن أقيم بها مســكناً لى ، أمامه حديقة صغيرة ، فأرجو أن يعمل كل منكم تخطيطاً تقريبياً لهذا المنزل ، وفكر الجميع وخططوا ، وبعد فترة قدموا لى نتائج عملهم ، فنظرت فيها وقلت : آسف ، لا تعجبنى هــذه الاقتراحات ، فأرجو أن تحاولوا مرة أخرى . وحاولوا مرة أخرى ، ثم مرة ثالثة ، وعرضتُ هــذه الاقتراحات على الحاضرين فظهر أن بعضها مكرر مرة أو أكثر من مرة ، وسألت ماذا لو طلبت منكم أن تعملوا عشرة رســوم أو عشرين ؟ فأجاب أحــدهم : إن التكرار سيوجد قطعاً ويزيد ، وستتقارب رســوم أخرى الى درجــة كبيرة . **قلت : قارنوا هــذا بخَلْق الله ، الذى خَــلق ملايين البشر ، واستطاع فى هــذه المساحة الصــغيرة التى هى الوجــه أن يميز بين هــذه الملايين بحيث لم تختلط ولــم يكرر فيهــا قط ، بل جعل فى كل منهــا شيئا ليس فى الآخرين ، يتميَّز به كل إنسان عن الباقين ، وكمــا فعل الله تعــالى فى الأشكال فعل فى الأصوات ،**

---

(١) سورة الروم الآيــة ٢٢ .

فملايين الناس يتكلمون اللغة العربية ، وملايين يتكلمون الإندونيسية ، ومئات الملايين يتكلمون الإنجليزية ، وهكذا ، ولكن الله جعل لكل إنسان بحةً خاصة وصوتا معينا ، بحيث لا تختلط هذه البحة ولا ذلك الصوت بشخص آخر ، فاذا سمعنا صوتاً ألِفْناه ، عرفنا صاحبه قبل أن نراه ، ولا نستطيع أن نقول : إن هذا صوته غليظ وذلك صوته أجشُّ ، لا ، ولكنَّ هناك شيئاً ميَّز الله به بين الأصوات ، وذلك الشىء لا ندرى كنهه ، ولكنه موجود على كل حال ، وبه نفرق بين أصوات الناس كما فرقنا من قبل بين أشكالهم •

ومثل هذا يقال عن اختلاف الخطوط واختلاف البصمات ، فكل إنسان له طابع خاص فى خطه ، فلا تكاد ترى خطاً أليفا لك حتى تعرف كاتبه •

أما البصمات ، فقد أثبتت كل الأبحاث العلمية أنها تختلف اختلافاً واضحاً من شخص الى آخر ، وأصبحت فى الأبحاث الجنائية عظيمة القيمة ، لهذا السبب •

ولو قارنا هذا بما يصنعه الإنسان لوجدنا البون شاسعاً ، فالأبواب فى العمارة الواحدة متماثلة تماماً ، والسيارات أو الأسِرَّة أو المراوح الكهربائية التى تنتجها شركة معينة ، متماثلة تماماً مما يبرز الفرق بين صنع الله وصنع الإنسان •

وانتهت هذه الجلسة بعد سهرة طويلة ، قدمت فيها ما عرفتُ مما ذكرت ومما سأذكر ، وخرج هؤلاء المثقفون وهم أقرب الى اليقين ، أو قلْ : وهم ينعمون بحلاوة اليقين إلا من طَمَسَ الله على قلبه ، وأعتقد أنهم كانوا قلائلَ •

مناظرة أو محادثة عن وجـود الله :

وهناك محـادثة مماثلة جرت بين سقراط وبين أريستوديم الذى ينكر الألوهية ، وسأقتبس موجزاً لهذه المحادثة من الأستاذ محمد فريد وجدى(١) :

سـقراط : أيوجـد رجال تعجب بمهارتهم وجمال صنائعهم ؟

أريستوديم : نعم ، أعجب فى الشعر القصصى بهومير ، وفى التصوير بزوكسيس ، وفى صـناعة التماثيل ببوليكتيت .

سـقراط : أى الصنّاع أولى بالإعجاب ؟ الذى يخلق صوراً بلا عقل ولا حراك ، أو الذى يبدع كائنات ذات عقـل وحيـاة ؟

أريستوديم : طبعاً الذى يبدع الكائنات المتمتعة بالعقل والحياة ، اذا لم تكن تلك من نتائج الاتفاق .

سـقراط : وهل يمكن أن يكون من الاتفاق أن تعطى الأعضاء لمقاصد وغايات خاصة ؟ عين ترى ، وأذن تسـمع ، وأنف يشم ، ولسان يتذوق ، والعين تحاط بحراسـة لحساسيتها وضعفها ، فتقفل عند النوم أو عند الحاجة ، وتحرس بالرموش والحواجب ، ويجعل للأذن جهاز خارجى يجمع لها الصـوت ، هل يمكن أن يكون كل ذلك من نتائج الاتفاق ؟

والميـل المـودع فى النفـوس للتناسـل ، والحنـان المخـلوق فى قـلوب الأمهات بالنسـبة للأولاد ، مع ندرة أن ينفع ولد أباه أو أمـه ، والطفل الذى يتلهم الرضاعة بمجرد ولادته ... هل يمكن أن يكون ذلك كله من نتائج الاتفاق ؟

---

(١) دائرة المعارف ، مادة اله جـ ١ ص ٤٨٦ — ٤٨٨ .

أريستوديم : لا ، إن ذلك يدل على الإبداع ، وعلى أن الخالق عظيم يحب الكائن الحى ، ولكن لمـاذا لا نرى الخالق ؟

سـقراط : وأنت أيضـاً لا ترى روحك التى تتسلط على أعضائك فهل معنى هـذا أن تقول إن أفعالك صادرة عن اتفاق وبدون إدراك ؟

وانتهت هـذه المحادثة بإيمـان أريستوديم ٠

ويقول الأستاذ مومنيه : اذا افترضنا بطريقة تعلو عن متناول العقل أن الكون خلق اتفاقا بلا فاعل مريد مختار ، وأن الاتفاقات المتكررة توصلت الى تكوين رجل ؛ فهل يعقل أن الاتفاقات أو المصادفات تكوّن كائناً آخر مماثلا له تماماً فى الشكل الظاهرى ، ومباينا له فى التركيب الداخلى وهو المرأة بقصد عمارة الأرض بالناس وإدامة النسل فيها (١) ؟

ويقول المشير أحمد عزت (٢) : إن النظام المحيّر للعقول ، المشاهَد فى حركات الأجرام التى تتألف منها المجموعة الشمسية لا يمكن أن يُحْمَل على التصادف ٠٠٠ وما الشىء الذى ندعوه التصادف إلا نتائج القوة الغيبية التى تحيط بنـا ، فلا بد من الاعتراف بوجـود سبب أصـلى عام منظّم لهـذا النظـام الدقيق ٠

والقرآن الكريم يتحـدث عن المقاييس الدقيقة التى وضعت لهـذه المجموعة الشمسية ، قال تعالى :

ــ والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقـدير العزيز العليم ، والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القـديم (٣) ٠

---

(١) دائرة المعارف مادة اله ــ جـ ١ ص ٤٨٦ ٠
(٢) الدين والعـلم ص ٢١ ٠
(٣) سورة يس الآيتان ٣٨ ــ ٣٩ ٠

ــ والشمس والقمر بحسبان (١) .

ويعلق مولانا محمد على عَلَىّ هــذه الآيات بقوله : إن العلم يسير وفق نظام محــدّد ، وبتدبير محكم ، وكل كوكب فيه يســير فى طريقه المرســوم (٢) .

بقى أن نقول إنه غير معقول إطلاقا أن تســير آلة أيا كان نوعهــا وأيا كانت جودتها دون أن يكون هناك من يراقبها ويلاحظ سيرها ، وأيَّة آلة تشبه هــذا الكون الواسع البديع بما فيه من نظم وترتيب ؟ والذى يدل عليه العقل السليم أنّ عين الله لو غفلت لحظة عن هذا الكون لاختلت نظمه واضطرب سيره ، ولكنه جل شأنه : « وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العــلى العظيم » (٣) .

ولــا كانت نظم الكون واضحة الدلالة على وجود الله ، ولما كان الإنسان بما فيه من حواس ومواهب من أكبر الأدلة على الخالق الأعلى ، كان أولئك الباحثون فى الكون ونظمه ، وفى الإنسان وخلقه ، من أســبق الناس لمعرفة الله والإيمان به ، لأنهم أكثر عمقاً فى بحوث الكون والانسان ، ولأنهم لا يقفون على هامش الحيــاة ، بل تدفعهم أبحاثهم ليقفوا وجهــاً لوجه أمام المعجزات الكبرى التى يخرّون لها سجداً ، معترفين اعترافاً كاملا بالخالق العظيم ، وقــد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله : « إنمــا يخشى اللهَ من عباده العلماءُ » (٤) .

وقــد نشر الدكتور دينرت Dennert الألمانى بحثاً حللّ فيه الآراء الفلسفية لأكابر العلماء بقصد أن يعرف عقائدهم ، فتبين له من دراســة ٢٩٠ عالماً أنهم بالنسبة للعقيدة الدينية كما يلى :

---

(١) سورة الرحمن الآية الخامسة .
(٢) The Religion of Islam Vol. I. p. 78.
(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .
(٤) سورة فاطر الآية ٢٨ .

٢٤٢ من هؤلاء أعلنوا إيمانهم الكامل بالله .

٢٨ لم يصــلوا الى عقيدة .

٢٠ لم يهتموا بالتفكير (١) .

وهكذا نجــد أغلبية ساحقة تزيد عن ٩٠٪ يعلنون إيمانهم عن طريق أبحاثهم العلمية ، ونجد مَنْ سواهم لا يزالون فى تردد أو لم يهتمــوا بالعقيدة الدينية فى أبحاثهم ، وأغلب الظن أن المترددين سيصلون يوماً ، وأن الآخرين الذين لم يهدهم العــلم لساحة الله يعانون نقصاً لو تخصلوا منــه لوصلوا .

ونختتم هــذا البحث عن الدليل العقلى على وجود الله بأقوال بعض مشاهير العلماء والفلاسفة .

يقول هرشل العالم الفــلكى الإنجليزى : كلما اتسع نطاق العــلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلى لا حدّ لقــدرته ولا نهاية ، فالجيولوجيون والرياضــيون والفلكيون والطبيعيون قــد تعاونوا وتضامنوا على تشييد صرح العلم وهو صرح عظمة الله وحده (٢) .

ويقول الدكتور وتز الكيماوى الفرنسى : اذا أحسستُ فى حين من الأحيان أن عقيدتى فى الله قــد تزعزعت وجهت وجهى الى أكاديمية العلوم لتثبيتهــا (٣) .

ويقول فولتير ساخرا : لماذا تشككون فى الله ، ولولاه لخانتنى زوجتنى وسرقنى خــادمى .

---

(١) نقلا عن مجلة الأزهر المجلد ١٩ .
(٢) دائرة معارف وجدى مادة اله جـ ١ ص ٥٠٣ .
(٣) مجلة الأزهر المجــلد ١٩ .

الدليـل النقـلى (*) :

حَفَلَ القرآن الكريم بآيات كثيرة تتحـدث عن الله ؛ عن وجوده ووحدانيته وصفاته ، وقد كانت السور المكية واسـعة الاهتمام بالحـديث عن الله وإظهار جـلاله وكماله ، ولنأخذ سورة واحـدة منها نموذجاً لذلك ، قال تعالى فى سورة الأنعام :

ـــ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ؛ هو الذى خلقكم من طين ، ثم قضى أجلا وأجـل مسمى عنده ، ثم أنتم تمترون ، وهو الله فى السموات وفى الأرض يعـلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون (١) .

ـــ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون ، فالق الإصـباح وجعـل الليـل سـكناً والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذى جعـل لكم النجوم لتهتدوا بهـا فى ظلمات البر والبحر قـد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذى أنشأكم من نفس واحـدة فمستقر ومستودع قـد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذى أنزل من السماء مـاء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبـا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشـابه ، انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعـه ، ان فى ذلكم لآيات لقـوم يؤمنـون (٢) .

(*) أوردنا عند الكلام عن الدليل العقلى آيات من القرآن ، وكان الاستشهاد بها من ناحية انها تحث العقل على التفكير فى الله وصـنعه فكانت بذلك جزءا من التدليل بالعقل على وجود الله . وهذا يختلف عن الاستشهاد بالآيات هنا كما سنرى .

(١) سورة الأنعام ١ ــ ٣ .

(٢) سورة الأنعام الآيات ٩٥ ــ ٩٩ .

وهناك آية أخرى فيها وعد وفيها قوة يجدر بنا أن نوردها هنا ، وهى قوله تعالى : « واذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » [1] .

ولا شك أن الدليل النقلى له احترامه وإجلاله عند المؤمنين ، ولكنا نريد مع هذا أن نستدل به بطريق آخر ، فقد سبق أن تحدثنا عن محمد ، وعن الأدلة التى أثبتت نبوته ، ووضحنا أن منها الملموس المحسوس لا يتطرق إليه شك عند المنصفين ، كأن يأتى وهو رجل أمى بهذه النظم الخالدة فى الميراث والزواج والطلاق والسياسة والاقتصاد وغيرها ، وكأن يقول : إنى آخر الأنبياء ، ثم تمر القرون تلو القرون دون أن يجىء نبى بعده فاذا صدقنا دعوة محمد بعد هذا البحث وتلك الدراسة ، وآمنا أن محمداً رسول الله بلا شك ، كان على العاقل — فيما أرى — أن يؤمن بما جاء به محمد ما اتضح له وما لم يتضح ، مادام قد آمن بصدق محمد ، فاذا عجز فكره عن فهم الإسراء والمعراج مثلا فليؤمن بهذا الحدث إيمان يقين ، تصديقاً لمحمد الذى آمن برسالته بعد تمحيص وبحث ، واذا قصر فكره عن سبب ركعات الصلوات ، فليقبل ذلك قبول إيمان من الرسول الذى صدّق به واعتنق الدعوة التى جاء بها ، واذا قصر فكره وخياله عن واهب الوجود الفرد الصمد ، فليؤمن به إيمان يقين لأن القرآن المعجز تحدث عنه ، ولأن محمداً الذى صدقناه والذى هو أكثر منا صفاء وأسمى مكانة حدثنا عنه وعلمنا جلاله وجبروته ، والاعتراف بالله أسمى ما جاء به الأنبياء .

أما اذا ظل الإنسان بعد إيمانه يبحث فى مواضع الشبه ، وكان عقله قاصراً عن فهمها ، فإنه يوشك أن يزل ، وهذا يسبب لعقيدته الاهتزاز لتعرضها لأحداث أسمى من مستواه .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٦ .

تعال بنا نقارن ذلك بصور عادية من حياة الإنسان ؛ اذا كنت مثــلا تريد أن تذهب الى طبيب فإن لك أن تبحث عن طبيب ماهر ، وتسأل الناس عنــه ، وتتأكد من مقدرته وإجادته للطب ، فاذا تمّ لك اختياره وذهبت إليه ، فليس لك أن تسأله عن الدواء الذى سيصفه إليك ومناسبته للمرض ، والعناصر التى يتكون منها ، ونسبة هــذه العناصر فيه ، ولو ذهبت تسأله عن ذلك لضاق بك ولمــا استطعت أن تفهم ما يقول ٠

وإذا كنت تريد أن تتزوج ، فإن من حقك أن تبحث صفات المرأة التى ستتزوجها ، ابحث جمالها وخلقها ودينها وكل مطالبك فيها ، فاذا كانت نتيجة البحث اطمئنانك ورضــاك وتمّ بذلك الزواج ، فهل من الخير بعــد ذلك أن تستمر فى البحث والاختبار ؟ وهل تقبــل زوجتك أن تَمْتَحِنَ دائمــاً عفتها وشرفها ؟ أغلب الظن أنها لن تقبل ، وأن هــذا سيسبب اهتزازا للحياة الزوجية ، فانعــدام الثقة يعتبر بدء النهاية ٠

وكذلك الحال اذا أردت أن تشترى سيارة أو بيتاً ، لك أن تختبر وتبحث فاذا استقر رأيك على الشراء واشتريت ، فلا تواصــل بحثــك وإنما عليك أن تدبّر أمرك وأن تنظّم لنفسك حياة استقرار ودعة ٠

وقــد قلت فى كتابى : « تاريخ التربية الإسلامية » عند الحــديث عن الإجازات العلمية (١) ، إنه منذ مئات السنين كان على من يريد أن يعمل مدرساً أن يعلن ذلك ، ويحــدد اليوم الذى سيبدأ فيه إلقاء دروسه ، وكان الطــلاب يجتمعون إليه ويُعِدّون له الأسـئلة المعقدة ، ويجرى حــوار بينه وبينهم ، فإن استطاع أن يشرح لهم ما أرادوه ثبتت قدمه ، واعتبر ذلك إجازة له ليشتغل بالتدريس حتى ولو أخطأ بعد ذلك ، أما اذا عجز عن الإجابة فإنه يقوم معهم ويلتحق مرة أخرى بإحــدى حلقــات

---

(١) انظر هذا الفصل ص ٢٦٠ وما بعدها من الطبعة الثامنة .

الشيوخ ، ومر الزمن وأصبحت هناك امتحانات وإجازات دراسية ، ولكن الطلاب لا يزالون حتى اليوم يسيرون على نهج السابقين تقريبا ، فإننى أذكر انه كلما دخلت جامعة لاعلم فيها لاول مرة ، تنهال على اسئلة الطلاب وارى فى عيونهم التحفز ومحاولة التعجيز ، فاذا اقنعتهم بجماعتى ووضحت لهم ما غمض عليهم سلسوا لى والقوا الى الزمام •

والخلاصة أنك اذا قبلت الإسلام دينا ، وارتضيت محمداً رسولا ، كان عليك أن تعتقد بما جاء به ، حتى بتلك النقاط التى لم يتضح لك كنهها وتظهر أسبابها ، والقرآن الكريم هو قمة ما جاء به محمد ، فليكن نوراً نهتدى به ، وشعاعاً يبين لنا الطريق •

التجربة الشخصية :

هناك طريق آخر لمعرفة الله ، وللايمان بأن للعالم خالقا يدبره وينظمه ، وذلك الطريق هو التجربة الشخصية ، وطريق التجربة الشخصية طويل ، يحتاج الى شىء من الدقة والصبر ، ولكنه يؤدى الى غاية دقيقة لا تحتمل الشك ولا التردد ، **وقد قال بهذا الطريق بعض مشاهير العلماء وفى قمتهم الإمام الغزالى ، ولا يقصدون أن يقدموا لك دليلا على وجود الله وصفاته ، بل أن يصفوا لك طريقاً لتجد أنت خلاله الدليل ، وحينئذ لا تجادل ولا تناضل •**

والتجربة الشخصية يمكن أن يقوم بها شخص واحد ، ويمكن أن تقوم بها نخبة محدودة من الأصدقاء ، وفحواها أن يتثبت الإنسان أدق الأحداث التى تمر به أو تحدث أمامه ، ويؤكد القائلون بهذا الرأى أنه بعد فترة ليست طويلة ستجد ألا مناص لك من الإيمان بالله والاعتراف به ، فستدرك أن الأحداث التى مرت بك ليست من المصادفات إطلاقاً ، وإنما هى ترتيب محكم دبره صانع حكيم •

وليس لدىّ ما أقوله أكثر من هــذا عن طريق التجربة الشخصية ، لأن هــذا الطريق متروك لك أنت ، وبمقدار صفاء نفسك ورغبتك فى المعرفة ، وبمقــدار الدقة وبعد النظر فى فهم التجارب التى تمر بك ، بمقدار ذلك ستكون النتيجة سريعة أو بطيئة .

لقــد اتبعت أنا نفسى هــذه الطريقة وعرفت بها الله معرفة يقين لا يعرف الشــك ، هل تريدنى أن أقص عليك بعض تجاربى فى هذا المجال ؟ سأفعل ، ولكن لا لأدفعك بها الى الإيمــان ، بل لأذكر لك أنها دعمت إيمانى وزادتنى يقيناً ، ولأذكر لك كذلك أن هــذه نماذج لتجارب قــد تواجه أنت أقــوى منها :

التجربة الأولى :

فى قرية من ريف مصر تزوج شاب قليل الثقافة يشتغل بالزراعة من إحــدى فتيات القرية ، وكان عمرهما متقارباً يزيد الشــاب عن العشرين قليلا وتنقص الفتاة عن العشرين سنة أو سنتين ، وحملت الفتاة بعــد الزواج بسرعة كعادة أغلب الريفيات حيث لا تعرف وسائل تأجيل الحمــل أو التحــكم فيه ، وبعد انتهاء مدة الحمل ولدت طفلين ، ومرت فترة قصيرة حملت بعــدها أيضاً ثم وضــعت طفلين كذلك ، ومعنى ذلك أنه فى أقــل من سنتين أصبح فى البيت أربعة أطفال ، وسرعان ما حملت للمرة الثالثة ، فاستشاط زوجها غضــباً ، وخاف أن تلدْ طفلين للمرة الثالثة فتجعل فى بيته الصــغير ســتة أطفال فى مدة وجيزة ، وهو رجل رقيق الحال ، وأقسم وهو فى ثورة غضــبه أنها طالق اذا ولدت هــذه المرة طفلين أيضــاً ، وبكت المرأة ، وسخر الناس ، وتمت أشهر الحمل فولدت المرأة ... ولدت ثلاثة أطفال ، ومعنى ذلك أن يمين الطــلاق لا يقع لأنه أقسم على اثنين فجاء ثلاثة ، ثم كيف يتحــدى الخالق ؟ فلْتكن الهزيمة عليه ، إنه لا يريد اثنين ، فلْتلد المرأة ثلاثة ، وصَدَمَت التجربةُ هــذا الرجل فاستغفر الله وتاب ، وأغــدق الله عليه من الرزق ، وفاضت عليه خيراته ، والعجيب أن المرأة توقفت عن الحمل بعــد ذلك ، كأنما أخرجت كل ما كان فى رحمها وفرغت من الحمل والولادة .

هـــذه تجربة ، وإليـــك تجربة أخرى :

فى أسرة غنية حملت سيدة من سيدات الطبقة العليـــا ، وولدت طفلاً ذكراً جميلا ، ولكن فى إحـــدى يديه إصـــبع زائدة ، ولـــا اغتمت الأم لذلك هدءوا روعها واستدعوا أمهر الأطباء حيث قطعوا تلك الأصـــبع ، ومر الزمن وحملت السيدة مرة أخرى وولدت ، ولكن طفلها هـــذه المرة كان بإحـــدى يديه أربع أصابع فقط !! يالله كأن هتافاً يصـــيح بهم : اذا كنتم استطعتم أن تقطعوا الإصبع الزائدة بسرعة فهل تستطيعون أن تضـــيفوا الإصـــبع الناقصـــة ؟

وإليـــك تجربة ثالثـــة :

كان عمدة من عمد الريف المصرى ، وكان كأغلب العمـــد يفتح بيته لجلسات الريف حيث يتحاكم المتنازعون وتُفَض المنازعات ، واشتهر الرجل بحب التوفيق بين الناس فكان يُسْتَدْعى لمثل هـــذه الجلســـات بالقرى المجاورة ، أو كانت منازعات تلك القرى تأتى إليه •

وكان لهذا العمدة ابن تدرج فى التعليم حتى دخل كلية الحقوق ثم تخرج منها واشتغل بالمحاماة ، وكانت هـــذه الحادثة نقطة تحول فى تاريخ الرجل ، فلم يعـــد الرجل يحب فض المنازعات بل ربما أثار الخصومات ، وكان يقصـــد بذلك أن يدفع لابنه المـــال عن طريق القضايا التى أصبحت ترسل للمحاكم ، بعـــد أن كانت لا تتجاوز دوار العمدة المسكين •

ولكن الرجل لم يفرح بابنه ولم يدفع له الثراء ، وإنمـــا جلب على ابنه سخط الناس ، فذبل الابن وسقط مريضاً ، وأنفق الرجل على ابنـــه أضـــعاف ما دفع إليه من مـــال •

وتجربة رابعـــة :

أحـــد باشوات العهـــد الماضى كان يبعث بابنه الى المدارس ، وكان الابن يركب السيارة الفاخرة كل يوم فى ذهابه وغدوه ، وكان للباشـــا

طباخ له ابن فى عمر ابن الباشا ، تقريباً ، وقد التحق ابن الطباخ بالمدارس الابتدائية فأظهر استعداداً طيباً ، ثم ألحقه أبوه بالمدارس الإعدادية ، ولكن الباشا صاح فى وجهه : اذا كان ابنك يريد أن يتعلم فمن سيكون طباخ ابنى ؟ وأوشك الطباخ أن يخضع لرغبة الباشا ، وما كان له إلاّ أن يفعل ، ورسم لابنه أن يتعلم الطبخ ليصبح طباخ ابن الباشا فى المستقبل ، ولكن الولد كان يقرأ فى غفلة من الباشا ومن ابن الباشا ، وكان يستعمل كتب ابن الباشا ، وشجّعه على ذلك مدرس صغير لمح ذكاءه ، وتقدم ابن الطباخ للشهادة الإعدادية من الخارج فحصل على مجموع كبير يضمن له المجانية فى التعليم الثانوى ، وتمرّد ابن الطباخ على أبيه وأصر على أن يتعلم ، وهجر بيت الباشا الى بيوت أخواله والتحق بالمدرسة ، وعانى ابن الطباخ حياة مُرّة فقيرة ولكنه صبر ، وكان يكتفى بمصباح ضئيل يستذكر عليه دروسه ، وأتم دراسته الجامعية وكان أول الناجحين فأرسلته الجامعة مبعوثاً على نفقتها للحصول على الدكتوراه فى الخارج .

وبدأ الحظ يلمع لابن الطباخ وعاد دكتوراً فى الهندسة ، وفتح أمامه الباب ، وبدأ يكوّن ثروة ليست بعيدة عن منطقة نفوذ الباشا ، وجاء العهد الجديد لمصر ، وألغيت الألقاب وحددت الملكية ، واضطر الباشا أن يبيع من أملاكه ما زاد عن القدر المسموح به ، فاشترى ابن الطباخ أو الدكتور المهندس بعض هذه الأطيان ، ثم مات الباشا واقتسم أبناؤه ثروته فأصبحوا الى الفقر أقرب منهم الى الغنى ، وأصبح للدكتور مكانة أسمى وعدد من الطباخين ، ولكنه لم يخطر بباله قط أن يعتقد أن ابن الطباخ لابد أن يكون طباخاً لابنه ، لأنه انتفع بالدرس الذى عاشه وعاناه .

وتجربة خامسة :

تزوج شاب متوسط الثقافة والثراء من فتاة أحلامه ، وبعد فترة رزق منها بطفلة سمحة كانت مبعث سرور أبويها ، ثم حملت الزوجة مرة أخرى ووضعت طفلة ، ولم يحسن الأب استقبال الطفلة الثانية فقد كان يتمنى أن يرزق طفلا ، وحملت المرأة للمرة الثالثة ووضعت طفلة كذلك ، وهنا

أظهر الرجل من سخطه ما كان قد كتمه في المرة السابقة ، ولم يرض بقضاء الله ، وربما أهمل بعض مطالب الفتيات الصغيرات ، وأصبح شغفه بابن ذكر حديث الناس ، وحملت المرأة للمرة الرابعة ، وأخذ قلبها يدق ويضطرب ، وأخذت الهواجس تلعب بنفس الرجل الذى نفد صبره ، ووضعت المرأة ذكراً هذه المرة ، وقامت الزينات ودقت الطبول ، واتجهت كل العناية للطفل الذكر ، وفى غمرة الفرح اكتشف الطبيب أن خلق الطفل ليس سوياً ، وأن بإحدى رجليه عرجا واضحا ... ومرت سنون رأى الأب فيها ابنه مصدر شقاء له ومبعث ألم لانحراف صحته وعدم استواء عوده ، أما الفتيات فكان مرور الأيام يزيدهن روعة وجمالا ، وكن لأبيهن مصدر اليمن والسعادة والنعيم .

وتجربة سادسة :

شاب فى مقتبل العمر ، تزوج فتاة أحلامه ، وكان يعمل مدرساً ، وكانت زوجته تشتغل أيضا بالتدريس ، وأنجبا طفلا فرحا به أشد الفرح ، ولكن سرعان ما أحسا بالعناء الشديد لصعوبة الجمع بين رعايته وبين عمل أمه ، وكان يمرض أحياناً ، فيضطر الأب أو الأم للتخلف عن العمل ، أو كانا يتركان الطفل فى رعاية بعض الأقارب أو الأصدقاء ، وفكر الأب أن تتوقف الأم عن العمل ، ولكن ظروفهما الاقتصادية كانت ترغمهما على استبعاد هذه الفكرة .

وفوجىء الزوجان بأعراض الحمل تظهر على الزوجة ، وجن جنونهما ، فقد ناءا بطفل فكيف باثنين ، وأسرعا لطبيب ليساعدهما على التخلص من الجنين ، ولكن الطبيب رفض أن يقوم بإسقاط الحمل ، وإزاء ضغطهما نصحهما بأن تجرى الزوجة وتقوم ببعض الجهد الجسمانى ليتم الإجهاض ، وقبل الزوجان نصيحة الطبيب ، وراحا يصعدان الهرم ويهبطان ، وجريا شوطاً بعيداً ، ثم اتجها عائدين الى البيت ينتظران التخلص من الحمل ، وفى البيت اصطدما بعاصفة مريرة ، فقد وجدا

طفلهما قد فارق الحياة إثر سقطة من فوق سلم كان يصعده فى غفلة ممن يرعاه .

ولم يضع الزوجان وقتاً فى النحيب ، بل سارعا للطبيب الذى كانا عنده منذ ساعات يطلبان عونه — هذه المرة — ليوقف الإجهاض ، ومرة أخرى قال الطبيب : لا أستطيع ، وليس إلا الله يستطيع عونكما ، وانطلق دعاء الزوجين أن يرفق الله بهما ، فاستجاب الله للدعاء ورعا الجنين الذى أصبح أملا لهما ، وكان منذ ساعات شراً يحاولان التخلص منه .

تلك نماذج من تجاربى لا أريد أن أطيل عليك بسرد سواها ، ولكنى أدعوك أن تبدأ تجاربك الشخصية التى تقودك قطعاً لاعتقاد جازم أن للكون مالكا سبحانه ، خلقه ويدبر أمره ويرعاه .

* * *

وبعد ، لماذا ينكرون الله وهو ملجأهم عند الهزيمة ، وملاذهم اذا أصابهم الفشل ؟ وطالما نسمع الشخص عند الإخفاق ينسب إخفاقه الى إرادة الله ، ومعنى هذا عدم يأسه ، ومعناه كذلك أن يحاول العمل من جديد رجاء أن يكون عون الله معه فى الجولة الأخرى ، والإنسان دائماً ينجح ويفشل ، ويعلو وينخفض ، ومن الخير أن يظل على صلة بالله يدعوه عند الشدة ويستعين به عند العجز ، فلا يحس أنه وحده فى الشدائد ، ولا يضعف أمام الصعاب لأنه يؤمن أن الله معه ، ومن كانت معه قوة الله استسهل الصعاب واستهان بالمشكلات .

وحدانية الله :

وحدانية الله فى التفكير الإسلامى تشمل الوحدة فى الوجود ، أى أنه إله واحد فليس فى الإسلام تعدد آلهة بأية صورة من الصور ، وتشمل كذلك الوحدة فى التركيب ، فليس الله مكوناً من أجزاء ، وتشمل ثالثاً الوحدة فى العبادة فليس هناك معبود إلا الله ، وليس هناك صاحب

سلطان مطلق يصرّف الأمر كله ، ونتّجه له خاضعين ساجدين إلا الله الواحد القهار .

والتوحيد بهذا المعنى عظيم الفائدة للجنس البشرى ، لأنه يجمع البشر حول إله واحد ، وفى ذلك توحيد اتجاههم وغرس نظام الأخوة بينهم ، أما تفرق الآلهة فمعناه تفرّق البشر ، وذهاب كل فريق الى التعصب لما وجّه قلبه إليه ، وفى ذلك فساد النظام وخسارة للبشرية (١) .

ومن فوائد عبادة الله وحده عبادة مباشرة دون وساطة ودون زلفى ، تحريرُ الفكر البشرى من الخضوع لغير الله من إنسان أو حيوان أو جماد ، ومن نبات وأجرام سماوية وقوى طبيعية ، ومعنى ذلك ألا يعبد الإنسانُ الإنسانَ ، ففى عبادة الإنسان للإنسان ذل وطبقيةٌ لا يعرفها التفكير الإسلامى ، ومعنى ذلك أيضا ألا يعبد الانسان ما سخره الله للانسان من حيوان أو نبات أو غيرهما ففى تخليص الإنسان من هذه العبادة وضعٌ له فى مكانه الطبيعى ، سيداً لما سُخِّرَ له ، لا عبدا أمام حيوان أو نبات ينقص فى تكوينه عن مستوى الإنسان (٢) .

وتوحيد الله وعبادته دون سواه تكسبُ المسلمَ الأنفةَ والعزة والشجاعة ، مادام يدرك أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » (٣) ومادام يدرك أن موته وحياته بيد الله لا سلطان لمخلوق على ذلك « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا » (٤) وأن الرزق منحة الله لا منحة غيره « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » (٥) .

---

(١) انظر رسالة التوحيد للامام محمد عبده ص ٧٦ — ٧٧ .

(٢) Mawlana Muh-Ali : The Religion of Islam Vol. I p. 51.

(٣) سورة التوبة الآية ٥١ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٤٥ .

(٥) سورة الرعد الآية ٢٦ (انظر روح الدين الاسلامى للاستاذ عفيف طبارة ص ٦٥) .

وتوحيد الله وضع طبيعى ، حتى أنه يلجأ إليه من يقولون بالتعدد ، إذ يظل هؤلاء فى صراع بين التوحيد الذى تجذبهم له طبيعة الألوهية ، وبين اتجاهاتهم التى هى تعدد" بصورة من الصور ؛ ثم ينتهى بهم الأمر الى التوحيد أو عقيدة قريبة منه ، فنجد المسيحيين يضيقون بالتعدد ، ويدركون ضرورة هزيمته أمام العقل فليجئون الى القول بأن اعتقادهم هو : وحدة" فى تثليث أو تثليث فى وحدة ، والمصريون القدماء تتعدد عندهم الآلهة ولكنهم يؤمنون بإله أعظم ، هو سيد الآلهة وكبيرهم ، ويرى المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز أنه لا يقول بالتعدد إلا العقل القانع المتعجل الذى يقف عند أدنى مبادىء الغيب وغاياته ، فيرى أن وراء كل فصيلة من الظواهر الكونية ما يدفعها وينظمها ، فيقوده ذلك الى الاعتقاد بوجود إله للريح وإله للشعر واله للحرب وهكذا ، أما العقول الواعية الطليقة المتسامية ، فإنها ترى أن خلف هذا كله قوة" واحدة أسمى وأعظم ، تصرف جميع الشئون ، فهى لا ترضى بآحاد القوانين ، ولكنها تسمو الى قانون القوانين وتستشرف الى اليد التى جمعت تلك القوانين ونسقتها (١) .

ولما كان التوحيد ضرورياً فإنه كان قاعدة الأديان السماوية كلها قبل أن تفسدها الأفكار الطارئة الضالة ، قال تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » (٢) .

وقد لجأ القرآن الكريم للعقل يحكمه فى مسألة التوحيد والتعدد ، ويثبت بأسلوب منطقى أن خالق الكون ومدبره لابد أن يكون واحداً ، كما أن لكل دولة رئيساً واحداً ، وللسيارة سائق واحد ، وللمدرسة ناظر واحد ، وهكذا ، اقرأ معى هذه الآيات :

— لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا (٣) .

---

(١) انظر « الدين » ص ٨٩ .
(٢) سورة الأنبياء الآية ٢٥ .
(٣) سورة الأنبياء الآية ٢٢ .

— ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض (١) .

— ولا تَدْعُ مع الله إلهاً آخر ، لا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه (٢) .

ويقدّم علماء الكلام على توحيد الله دليلا سهلا قاطعاً هو : اذا كان هناك تعدد آلهة فهل كل إله يستطيع أن يعمل وحده كلّ شيء أو أنه عاجز وحده عن ذلك ؟ فاذا كان يستطيع وحده أن يعمل كل شيء فما فائدة الآلهة الآخرين ؟ وإن عجز وحده عن ذلك كان بعيداً عن طبقة الألوهية ، فالإله لا يمكن أن يكون عاجزاً ولا أن تتوقف قوته على سواه .

صفات الله :

قصدنا بهذا العنوان « صفات الله » أن نوضح أن ذات الله توصف ولا تدرك ؛ فالله سبحانه وتعالى خالق الكون ، وطبيعة الخالق مخالفة لطبيعة المخلوق ، كما يختلف النجار عن الباب الذى يصنعه ، وعلى هذا يرشدنا القرآن الى معرفة الله بآثاره الدالة على صفاته ، وكمال جلاله وجماله ، وتنزهه عن المماثلة لخلقه ، أو الاتحاد ، أو الحلول فى شيء مما خلق ، وأوصد أمام الإنسان باب التطلع الى معرفة حقيقته وذاته ، وصرفه عن محاولة التفكير فى هذا الباب ... والعجزُ عن إدراك حقيقة الذات الأقدس عقيدة من عقائد الإيمان بالله ، وهو نفسه برهان على سمو الألوهية الحقة عن الدخول فى دائرة التفكير العقلى المحدود بطبيعته ، والذى لا يجد مجالا لتخطى ما وراء الكون (٣) .

ويقول الإمام محمد عبده إن النظر فى صفات الخالق يهدى بالضرورة الى المنافع الدنيوية ، ويضيء للنفس طريقها الى معرفة مَنْ هذه آثاره ،

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٩١ .
(٢) سورة القصص الآية ٨٨ .
(٣) الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت : الاسلام عقيدة وشريعة ص ٢٠ .

وعليها تجلت أنواره ••••• وأما الفكر فى ذات الخالق فهو طلب للاكتناه من جهـة ، وهو ممتنع على العقل البشرى ، لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين ، ولاستحالة التركيب فى ذاته ، وتطاول الى ما لم تبلغه القوة البشرية من جهـة أخرى ، فهو عبث ومَهلكة لأنه يؤدى الى الخبط فى الاعتقاد ، ولأنه تحـديد لما لا يجوز تحديده ، وحصر لما لا يصح حصره (١) •

وقـد قال القرآن الكريم موضحا ذلك المعنى « ليس كمثله شىء » (٢) وقال « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » (٣) وقال « ولا يحيطون به علماً » (٤) وقال صلى الله عليه وسلم : (تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى ذات الله) وقال أيضاً (تفكروا فى كل شىء ولا تفكروا فى ذات الله) •

أما صـفات الله كما يراها الإسلام فإن مصدرها القرآن الكريم ، وهى فى مجموعها تصـوّر الكمال المطلق ، وليس للمسلم أن يناجى ربه باسم أو صـفة لم يضـعه الله لنفسه ، فهو أعـلم بما يدل على ذاته وآثاره وصـفاته (٥) وعلى هـذا فالإسلام لا يوافق على أن يوصف الله بأنه « محبّة » لأن الله لم يصـف نفسـه فى القرآن بذلك ، وإليك آيات من القرآن الكريم تحمل بعض صـفات الله :

— بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين (٦) •

---

(١) رسالة التوحيد ٤٨ — ٤٩ .
(٢) سورة الشورى الآية ١١ .
(٣) سورة الأنعام الآية ١٠٣ .
(٤) سورة طه الآية ١١٠ .
(٥) الشيخ محمود شلتوت : الاسلام عقيدة وشريعة ص ١٩ .
(٦) سورة الفاتحة الآيات ١ — ٤ .

ــ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب ، شــديد العقاب ، ذى الطول ، لا إله إلا هو اليه المصـــير (١) .

ــ يعــلم خائنة الأعين وما تخفى الصــدور (٢) .

ــ هو الله الذى لا إله إلا هو عـــالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارىء المصــوّر له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحــكيم (٣) .

ــ إن بطش ربك لشديد ، إنه هو يبدىء ويعيــد ، وهو الغفــور الودود ، ذو العرش المجيد ، فعّال" لمــا يريد (٤) .

ــ وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ، ويوم يقول كُنْ فيكون ، قوله الحق ، وله الملك يوم ينفخ فى الصور ، عالم الغيب والشهادة ، وهو الحــكيم الخبير (٥) .

سبّح اسمَ ربك الأعلى ، الذى خلق فسوّى ، والذى قــدّر فهدى ، والذى أخرج المرعى (٦) .

ــ ذلك عــالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم (٧) .

* * *

---

(١) سورة غافر الآيتان ٢ — ٣ .
(٢) سورة غافر الآية ١٩ .
(٣) سورة الحشر الآيات ٢٢ — ٢٤ .
(٤) سورة البروج الآيات ١٢ — ١٦ .
(٥) سورة الأنعام الآية ٧٣ .
(٦) سورة الأعلى الآيات ١ — ٦ .
(٧) سورة السجدة الآية ٦ .

عقائد أخرى مع الايمــان بالله :

وبعــد ، فالإيمان بالله على النحو الذى وصــفنا ، قمةُ العقائد الإسلامية ، ويجىء بعد الإيمان بالله ، الإيمانُ بملائكته وكتبه ورســله واليوم الآخر ، والإيمانُ بأن محمداً خاتم الرسل ، ولا شك أن مَنْ آمن بالله آمن بكلامه ووعــده ووعيده ، فأصبح سهلا عليه أن يؤمن بما جاء به رســل الله من توجيه وتعليم ، ولا شــك أن العقل السليم يقنع دون تردد أنه لا بد من معاد ، وأن الحياة الدنيا لا يمكن أن تكون نهاية الكون ، ولو كانت كذلك لطغى الناس فيها وبغوا ، ونالوا ما أحبّوا أن ينالوه بأية وسيلة من الوســائل غــير هيابين ولا خائفين ، ولكن النفس البشرية من تلقاء نفســها تدرك أن بعــد هذه الحياة حياة ، وأن بعد العمل حسابا ٠

ويتضــح من مبادىء الدين الإســلامى ســماحته من أتْباع كل الديانات ، إنه يجمع الناس جميعاً على إله واحــد ، ويجعــل من مبادئه الاعتراف بالرســل السابقين وبكتبهم ، فهو يمــد يده لأتبــاع الديانات السماوية ليلتفوا حوله ، ويمد يده لمن لا دين له ليدخل حظيرة النور ٠

ومن مفاخر الدين الإسلامى أنه سوّى بين الناس ، ولم يجعل لجنس على جنس مزيّة فكان بذلك ديناً يقاوم الطبقات ويقاوم تسلط الشعوب على الشعوب ، ويقول أستاذنا الإمام محمد عبــده (١) فى ذلك الموضوع : رَفَعَ الإســلام كلّ امتياز بين الأجناس البشرية ، وقرّر لكل فطــرة شرف النسبة الى الله فى الخلْق ، وشرف اندراجهــا فى النوع الإنسانى ، وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعــلى درجــات الكمــال الذى أعــده الله لنوعها ، على خــلاف ما زعمــه الظّلَمة من الاختصاص بمــزايا حُرِم منها غيرهم ، وتسجيلهم الخسّة على شــعوب زعموا أنهــا لا تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم ، فأماتوا بذلك الأرواح فى معظم الأمم ، وصيّروا أكثر الشــعوب هياكل وأشباحاً ٠

(١) رسالة التوحيد ص ١٥٩ — ١٦٠ ٠

النبـــــوة

الحاجة الى الرسـل (*) :

يتفق الناس على أن من الأعمال ما هو نافع ومنها ما هو ضـــار ، وبعبارة أخرى منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح ، ومن عقلائهم وأهل النظر الصحيح والمزاج السليم منهم من يمكنه إصابة وجه الحق فى معرفة ذلك ، ولكنهم يختلفون بالنظر الى كل عمل بعينه ، فبعض الناس يرى العدل مثلا فضـــيلة وبعضهم يرى الظـلم دليل قوة والعـدل دليل ضـــعف ، وعلى هذا فالعقل البشرى وحـــده ليس فى استطاعته فى الغالب أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته فى هـــذه الحياة .

وجمهور الناس لا تساعدهم عقولهم لمعرفة بعض الغيبيات ، كمعرفة الله والتحقق من الحياة الآخرة ، ومعرفة الملائكة والجن ، كما لا تستطيع عقولهم أن تقرّر لكل نوع من الأعمال جزاءه فى الدنيا والآخرة ، فعقوبة الســـارق ، وعقوبة قاطع الطريق ، وثواب الصبر والاحتساب ، وثواب الصـــلاة والزكاة ، كل هـــذا مما يعجز العقل العـــام أن يصـــل إليـــه ويحـــدده .

وحياة الإنسان قصيرة ، ويُقْضَى شطر كبير منها بين ضعف الطفولة وجهلهـــا فليس لدى الإنســـان فرصـــة كافية للتجارب والمحاولات والخطأ والصـــواب .

(*) (أ) من اهم المراجع عند الحديث عن الحاجة الى الرسل كتاب « رسالة التوحيد » للأستاذ الامام محمد عبده ، وقد اقتبسنا منه بتصرف بعض العبارات فى هذه المقدمة (انظر ص ٧٦ — ١٠٠) .

(ب) النبى هو من يتلقى نبـــأ من الله ، وهو نبى فى تلقى النبأ ، ورسول فى تبليغ الرسالة ، وقد يستعمل اللفظان احدهما مكان الآخر ، وقد يستعملان مجتمعين (انظر كتاب الدين الاسلامى لمولانا محمد على ص ١٥٢) . والذى نراه أن كل نبى رسول ، وسورة الأنبياء تحوى أسماء عدد من رسل الله ، مما يؤكد أن النبى هو الرسول .

وجمهور الناس يحسون اللـذة المـادية ، ويهملون لذة أدوم وأعمق وهى اللـذة الروحية ، فطبيعة الانسان أن يسـعد بالطعام اللـذيذ ، والفراش الوثير ، والمرح والحبور ، أكثر من سعادته بالوفاء ، وعون الضـعيف ، وكلمة الحق لنصرة المظـلوم •

ومن طبيعة الانسان كذلك حبه لنفسه ، وتقديمه الأقربين إليه على الأبعدين عنه ، وفى ظل هـذه الأنانية لا يستقيم المجتمع الانسانى ولا يسير قـدماً الى النجـاح •

لهـذه الأشياء وسواها من نظائرها جاء الرسل : جاءوا ليرشـدوا العقل الى الخير والشر ، وليصـف النعيم الذى ينتظر المطيع ، والعقاب الذى سينزل بالعاصى •

جاءوا ليرشدوا العقل الى معرفة الله وما يجب أن يعرف من صفاته ، وليبينوا كذلك أن ذات الله ليست موضع بحث ولا يصل إليها عرفان •

جاءوا ليعلموا الناس من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده فى العـلم به كالملائكة والجن وأحوال الآخرة ، مما لو صـعب على العقـل اكتناهه لم يشق عليه الاعتراف به •

جاءوا ليبلغوا الناس أوامر الله ونهيه ، ووعده ووعيده ، وليشرحوا لهم ما فرضه الله عليهم من عبادات وما قرره من وسائل للمعاملات •

جاءوا « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (١) •

جاءوا لئلا يقول الناس « ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى » (٢) •

جاءوا ليدعوا الناس الى تحويل اهتمامهم من اللذائذ الفانية الى

---

(١) سورة النسـاء الآية ١٦٥ .

(٢) سورة طـه ١٣٤ .

الرغائب السامية ، من عبادة المادة الى التمتع بالروحانيات ، ليضعوا بذلك الأسس لمجتمعات صالحة فيها تعاون وإيثار .

جاءوا على العموم لتحقيق خير الناس فى دنياهم وآخرتهم ، وعلى أن يحملوا للناس ما تحتمله عقول الناس من إرشادات .

ومن الواضح أنه ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرسين ومعلمى الصناعات ، فليس مما جاءوا له تعليم التاريخ ، ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ، ولا بيان ما اختلف من حركاتها ، ولا ما استكن من طبقات الأرض ، ولا مقادير الطول فيها والعرض ، ولا محتاج إليه النباتات فى نموها ، ولا ما تفتقر إليه الحيوانات فى بقاء أشخاصها وأنواعها ، وغير ذلك مما وضعت له العلوم وتسابقت فى الوصول الى دقائقه الفهوم ، فإن ذلك كله من وسائل الكسب والبحث ، هدى الله إليه البشر بما أودع فيهم من الإدراك والعقول ، وكلّ دخل الأديان فى ذلك هو حراسة العقول حتى لا تشط أو تزل ، فتحدث بأبحاثها رَيْباً فى الاعتقاد بالأساس العام لهذا الكون ، وهو تقرير إله واحد خالق له ، متصف بكل صفات الكمال ، واذا كان قد ورد فى كلام الأنبياء بعض إشارات للكون وأحوال الأفلاك ، فالمقصود توجيه النظر الى حكمة المبدع وقدرة الصانع ، أما التفاصيل العلمية للكون والأفلاك فأبحاث يطلبها من استطاع من مجالاتها العلمية .

الرسالات الخاصة والرسالة العامة :

عند حديثنا فى مطلع هذا الكتاب عن « تطور الرسالات » وضّحنا أن الرسالات كلها من عند الله ، وهى تتفق فى الأصول العامة المهمة كتوحيد الله وترك عبادة الأوثان ، ثم تتطور بعد ذلك بتطور الجنس البشرى واستعداده فتحمل تفاصيل أوسع ودراسات أعمق وتبعات أكثر ، وعن الرسالات التى سبقت الإسلام ، يقول القرآن الكريم :

ــ وإن من أمــة إلا خــلا فيها نذير (١) .

ــ ولكل أمة رسول ، فاذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقســط وهم لا يظــلمون (٢) .

ــ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت (٣).

ــ ولقــد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات (٤) .

ــ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبــدون (٥) .

ــ قال (نوح) : يا قوم إنى لــكم نذير مبين ، أن اعبــدوا الله واتقــوه وأطيعون (٦) .

وهكذا كانت الرسالات التى سبقت الإسلام غير شاملة ؛ بالنســبة للدعوة نفسها ، فلم تكن الدعــوة كاملة التفاصيل ، وإنما حَوَت ما يستطيع العقــل آنذاك هضمه وفهمه ، وكانت كذلك غير شاملة للبشرية ، فقــد كانت الرسالة محــدودة لقوم معينين ، وجاءت رســالة الإسلام ، وهى خاتمة الرسالات ومن هنا تحتم أن يوجــد فيها من العناصر ما يجعــلها تناسب كل زمــان ومكان ، ومن أهم هــذه العناصر : شــمولها لألوان واســعة من التعاليم فى الميادين المختلفة كنظام الميراث والزواج والطلاق والسياسة والاقتصــاد وغيرها ، ومنها كذلك وجــود الاجتهاد فيها ، وإباحته للعلماء الذين يَصِلون الى مســتواه من أى جنس وأى لــون ليشرحوا لأقوامهم ما يجــدّ من أحــداث داخل الإطار العام الذى نظّمه الإسلام ، ثم كان من عناصر هــذه الرسالة أن تعترف بالرسالات السماوية

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٤ .
(٢) سورة يونس الآية ٤٧ .
(٣) سورة النحل الآية ٣٦ .
(٤) سورة الروم الآية ٤٧ .
(٥) سورة الأنبياء الآية ٢٥ .
(٦) سورة نوح الآيتان ٢ ــ ٣ .

السابقة ، وبمـا جاء به هؤلاء الرسـل من كتب ، وذلك وضـع طبيعى ، فكل هـذه الرسالات من الله ، وتلك الكتب تعليمات منه ما لم يمسـها تحريف ، فاذا جاءت الرسـالة الأخيرة فمن الطبيعى أنها تحوى الرسالات السابقة وتزيد عليهـا .

وعلى هـذا نص القرآن الكريم على أنه يجب على المسلم أن يعترف بالرسـل السـابقين ، وبكتبهم الصـحيحة ، وبما جاءوا به من مبادىء ، قال تعـالى :

— قولوا آمنـا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون (١) .

— آمن الرسول بما أنزل إليـه من ربه ، والمؤمنون كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسـله ، لا نفرّق بين أحـد من رسله (٢) .

وهكذا يتضـح من هذه الآيات أن الإيمان برسالات الرسل السابقين جزء من الإسلام ، كما يتضـح من الآية الأخيرة أن الإسـلام يحتم على المسـلم ألا يفرق بين الرسل ، وعلى هـذا يدخلُ الناسَ جميعاً الإسلام وكلٌ يعرف أن دينه موضـع احترام ، وأن نبيّه مكان إجـلال ، والكتاب الصحيح الذى أنزل على رسوله لا يزال موضـع تقـدير .

بيـد أن الإيمان بما جـاء به الرسل السابقون يحتم أن نصـل الى حقيقة ما جاءوا به ، وذلك يقتضى أن نزيل الخرافات والترهات التى أدخلها بعض أتباع هـذه الديانات على دياناتهم .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٣٦ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٨٥ .

لماذا كانت رسالات السابقين خاصة ؟ وجاءت رسالة محمد عامة ؟

الإجابة على هذا السؤال سهلة ، فقد كان من الطبيعى أن تتعدد الرسالات السابقة ، وأن يكون كل منها لجماعة محدودة ، وذلك للسببين الآتيين :

ا — كان الاتصال بين الأمم السابقة غير موجود ، وكانت كل أمة تعيش فى عزلة أو شبه عزلة عن الأمم الأخرى لعدم وجود المواصلات والروابط غالباً ، ولاختلاف العادات وطرق الحياة ، ثم لتعدد اللغات وقلة الذين عنوا بتعلم لغات أجنبية ، ومن ثمَّ أرسل الله لكل أمة رسولا ، وما كان رسول واحد يستطيع أن يوفّى بالغرض من الرسالات .

٢ — سببت العزلة التى تحدثنا عنها آنفاً اختلافا فى درجة الثقافة ، فأصبح ما يلائم جماعة من البشر لا يلائم جماعة أخرى .

ولهذين السببين أرسل الله لكل أمة رسولا يعلمهم المبدأ الدينى العام وهو توحيد الله والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ... ثم يعالج أمراضهم المتفشية بينهم ، أما رسالة محمد فقد كان من الطبيعى أن تكون عامة ، إذ انتفى السببان السابقان فلم يعد العالم منقسماً الى أقاليم يعيش كل اقليم فى عزلة ، بل امتدت المواصلات بين أجزاء العالم ، وكثر تعلم اللغات الاجنبية فاتصلت الامم ، وأصبح سهلا أن تعم رسالة واحدة جميع البشر ، ثم أن درجة الثقافة قربت بين أكثر الامم ، إذ انتشرت الطباعة وانتقل المدرسون والطلاب والكتب بين أطراف العالم بسبب سهولة المواصلات ، فتبودلت بذلك الثقافات ولم تعد الهوة واسعة فى الفكر والثقافة بين أمم العالم ، وكان ذلك إيذانا بإرسال

رسول واحد لجميع البشر(١) .

وقد جاءت آيات كثيرة من القرآن الكريم تقرر عموم رسالة محمد ، وتقرر أنها خاتمة الرسالات ، اقرأ قوله تعالى :

— وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً (٢) .

— يأيها الناس إنى رسول الله اليكم جميعاً (٣) .

— تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً (٤) .

— وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين (٥) .

— ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين (٦) .

وقد سبق أن ذكرنا أن الزمن أكد عموم رسالة محمد وأنه خاتم النبيين ، فقد سارت رسالته بنجاح عبر جوانب الارض كما قلنا من قبل ، ومرت القرون تلو القرون دون أن يجىء للعالم رسول بعد محمد وقد كان الرسل قبل محمد متقاربين أو متحدين فى الزمن .

ويقول مولانا محمد على (٧) : لم يرسل محمد الى الناس كافة

---

(١) لا نزال نرى فى عالمنا الحاضر بلادا تتخلف كثيرا فى حضارتها عن بلاد اخرى ، ولكن هذا التخلف عمل صناعى اقتضاه الاستعمار . ولو لم يوجد الاستعمار لأمكن للدول المتخلفة ان تلحق بركب الحضارة فتتقارب الثقافات بين أطراف العالم ، وهذا يلاحظ فى التطور السريع التى تصل اليه الدول بعد أن تتخلص من الاستعمار أو شبه الاستعمار ، ولنذكر فى هذا المجال جمهورية الصين وانتقالها السريع من حال الى حال .

(٢) سورة سبأ الآية ٢٠٨ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٥٧ .

(٤) سورة الفرقان الآية الأولى .

(٥) سورة الأنبياء الآية ١٠٧ .

(٦) سورة الأحزاب الآية ٤٠ .

(٧) The Religion of Islam Vol I. P 161.

ورحمــة للعالمين فحسب ، وانمــا جاء ليبشر بدين واحد للناس ، أساسه الايمـــان برسول كل أمة من أمم الارض ، وهــذا أمر لا يدفعه الناس حيث أنه يدعو الى المســاواة والوحدة بين جميع الامم .

الاسلام والأديان السابقة :

يعترف الاسلام بالأديان السماوية التى سبقته كما ذكرنا من قبل ، ويوجب على أتباعه أن يعترفوا بهــذه الرسالات ، وبالرسل الذين حملوها الى أقوامهم ، ولكن ذلك الالتزام مرتبط بالماضى أى الاعتراف بأن هــذا الرسول كان نبى الله الى قومه ، وأن مبادئه كانت كذا كذا .

أمــا فيما يتعلق بالحاضر والمستقبل فان رسالة الاسلام جبّت مــا قبلهــا ، قال تعالى « إن الدين عند الله الاسلام [1] » وقال « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه [2] » وقد حوت رسالة الاسلام ما فى الرسالات الســابقة من مبــادىء ، وزادت عليها مــا تحتاجه البشرية فى كل جوانب الحياة طوال مسيرتها المديدة الى يوم الدين قال تعالى :

— شرع لكم من الدين مــا وصّى به نوحا ، والذى أوحينــا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى [3] .

— وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لمــا بين يديه من الكتــاب ومهيمنا عليــه [4] .

— هو الذى أرسل رسوله بالهــدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شــهيدا [5] .

(١) سورة آل عمران الآية ١٩ .
(٢) سورة آل عمران الآية ٨٥ .
(٣) سورة الشــورى الآية ١٣ .
(٤) سورة المــائدة الآية ٤٨ .
(٥) سورة الفتح الآية ٢٨ .

ويقول المفسرون فى تفسير الآية الأولى من هـذه الآيات : إن الله **شرع للمسلمين دينا يحوى مـا جاء به الانبياء من نوح الى عيسى** (١) •

ويقولون فى تفسير الآية الثانية إن القرآن هو الصـورة الاخيرة لكتاب الله الواحد ، المتحد الأصـل والوجهـة ، المسايرة لحاجات البشر ، حتى اذا كشف للنـاس عن الحقائق الكبرى التى تقـوم عليهـا أسس الحياة ، انقطع الوحى ليتصرف العقل البشرى فى حدود تلك الحقـائق الكبرى ، بلا خوف من الزلل مـا دام يرعى تلك الحدود ، ومن ثم فكل الحكم يجب أن يرجع الى **هـذا الكتاب الاخير الذى يتضـمن الباقى من شريعة الله كلهـا فى كل كتاب** ، ويضعها فى الصورة الاخيرة الباقية الى يوم القيـامة (٢) •

ويقولون فى تفسـير الآية الثالثة إن الله أرسل محمدا بالاسـلام دين التوحيد والحق الخالد ليعـلو على كل الاديان والمعتقدات ، بأن يحوى أحسن مـا فيهـا وأن يضيف الى ذلك ما فيه خير الانسان فى الدنيـا والآخـرة (٣) •

ومن أجل هذا شمل الاسلام من المبـادىء مـا لم يرد مثله فى مختلف الاديان ، إذ قد تقدمت البشرية وأصـبح ضروريا ، أن تعرف حكم الله فيمـا يعترضهـا من شئون ، ولهـذا حفل التفكير الاسلامى بأفانين من القول فى كل مشكلات الحيـاة التى تحتاج لتوجيه السـماء كالنظم السياسية والنظم الاقتصـادية والنظم الاجتماعية والنظم العسـكرية والعلاقات الدولية وغيرها مما شرحناه بإفاضـة فى الأجزاء العشرة التى تشملها « موسوعة النظم والحضارة الاسلامية » •

---

(١) البيضـاوى ص ٤٨٥ •
(٢) فى ظلال القرآن ص ٦ جـ ٦٦ — ٦٧ •
(٣) انظر النسفى والقرطبى والكشاف •

صفات الرسل فى التفكير الاسلامى :

يتصف الرسل بعلو الفطرة ، وصحة العقول ، والصدق فى القول ، والأمانة فى تبليغ ما عُهِدَ إليهم أن يبلغوه ، والعصمة من كل ما يشوّه السيرة البشرية ، وسلامة الأبدان مما تنبو عنه الأبصار ، وتنفر منه الأذواق السليمة ، ويلزم الاعتقاد بأن الرسل ممدودة أرواحهم بمدد من الجلال الالهى لا يمكن معه لنفس انسانية أن تسطو عليهم سطوة روحانية .

وانما لزمت لهم هذه الصفات لانهم لو انحطّت فطرهم عن فطر أهل زمانهم ، أو تضاءلت أرواحهم أمام نفوس أخرى ، أو مس عقولَهم شىء من الضعف ، لما كانوا أهلا لهذا الاختصاص الإلهى الذى يفوق كل اختصاص ، وهو اختصاصهم بالوحى ، والكشف لهم عن أسرار علم الله . ولو لم تسلم أبدانهم عن المنفّرات لكان انزعاج النفس لمرآهم حجة للمنكر فى إنكار دعواهم ، ولو كذبوا أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم ولكانوا مُضلّين لا مرشدين ، فتذهب الحكمة من بعثتهم ، والامر كذلك فيما يتعلق بنسيان ما عهد اليهم تبليغه من العقائد والاحكام .

أما فيما عدا ذلك فالرسل بشر يعتريهم ما يعترى سائر أفراد البشر ، يأكلون ويشربون وينامون ويسهرون ، وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الاحكام ، ويمرضون ، وتمتد إليهم أيدى الظلمة ، وينالهم الاضطهاد ، وقد يقتلون (١) .

والسبب فى كون الرسل بشراً أن حكمة الله اقتضت أن يكون الرسول من جنس المرسل اليهم ، حتى يكونوا أكثر صلة بالناس وأعرف بمشاعرهم

---

(١) الأستاذ الامام فى رسالة التوحيد : مقتبسات من ص ٧٩ — ٨٢ مع تقديم وتأخير .

وأحاسيسهم ، وحتى يكونوا قدوة للنـــاس فى تنفيذ ما يبلغونه من تعليمات وارشادات ، وفى بشرية الرسل يقول القرآن الكريم :

ــ ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ، فأرسلنا فيهم رسولا منهم(١) .
ــ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى اليهم (٢) .
ــ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية (٣) .
ــ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم (٤) .

ويحمل الملك رسالة الله الى الرسول فيبلغها الرسول الى المرســل اليهم قال تعالى : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن النـــاس » (٥) ولا يحمــل الملك الرسالات الى النـــاس مباشرة لأنعالم الملائكة يختلف عن عالم الانســـان فى طبيعته ، وصدق الله القـــائل « لو كان فى الارض ملائكة يمشـــون مطمئنين لنزلنـــا عليهم من السماءملكـــا رسولا (٦) » .

بشرية الرسل :

ومسألة بشرية الرسل مسألة هامة فى التفكير الاسلامى ، ولعــل العناية الكبرى التى وجهت فى الاسلام لايضـــاح هــذه المسألة تسببت عن الضلالات التى سبقت الاسلام ، وهى تأليه الانبيـــاء أو حتى تأليه النابهين من المفكرين ، فقــد أله المسيحيون عيسى وأله البوذيون بوذا وهكذا ، ولذا نجــد محمدا ــ كمـــا يقول المستشرقون ــ يقفــل كل باب يظن أنه يوما مـــا يكون مسلكا لتأليهه أو حتى فيه شبهة التأليه ، فاذا وقف لهبعض أتبـــاعه صـــاح بهم : لا تقفوا كمـــا تقف الاعاجم ، فلست بملك ، وانما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة ، ويختار مكانا

---

(١) سورة المؤمنون الآيتان ٣١ ــ ٣٢ .
(٢) سورة يوسف الآية ١٠٩ وسورة الأنبياء الآية ٧ .
(٣) سورة الرعــد الآية ٣٨ .
(٤) سورة ابراهيم الآية ٤ .
(٥) سورة الحج الآية ٧٥ .
(٦) سورة الاسراء الآية ٩٥ .

ليعسكر فيه فى غزوة بدر ، ثم يشير عليه أحد الصحابة بمكان أفضل فيقبل رأيه وينتقل اليه ، أما القرآن الكريم فقد وفى هذا الموضوع وجلاه ، فلم تقم شكوك من أى نوع حول بشرية محمد ، انما أصبحت بشريته حقيقة واضحة مسلما بها ، اقرأ هذه الآيات :

— قل انما أنا بشر مثلكم (١) •

— قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء (٢) •

— قل انى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا (٣) •

— قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا (٤) •

— وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ (٦) •

الأنبياء والعصمة :

بقى موضوع يتصل ببشرية الرسل أيضا ، وهو جواز الخطأ على الأنبياء ، وهذا الموضوع دقيق للغاية ، وأغلب الكتاب يتحرزون من الخوض فيه خشية القول بجواز الخطأ على الأنبياء • ومنهم من خاض فيه باحثا عن البراهين التى تساعد على القول بعصمة الانبياء ، وعدم إمكان وقوع الخطأ منهم ، وفى قمة هؤلاء الشيعة الذين يثبتون عصمة

(١) سورة فصلت الآية ٦ وسورة الكهف ١١١ .
(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٨ .
(٣) سورة الجن الآية ٢١ .
(٤) سورة الجن الآية ٢٢ .
(٥) سورة يونس الآية ٤٩ .
(٦) سورة آل عمران الآية ١٤٤ .

الأنبياء وعصمة الأئمة أيضا ، ويرون أن الرسول لو لم يكن معصوما من الزلل لقلت الثقـــة به ولا نتفت فائدة البعثة (١) .

وهناك كتب خصصها الشـــيعة لبحث ذلك الموضوع ولتأويل كل مـــا يحتمل خلاف العصـــمة ، ومن أهم هـــذه الكتب كتاب « تنزيه الانبياء » للسيد الشريف المرتضى ، وفى هـــذا الكتاب يقرر المؤلف أن الشيعة يرون أنه لا يجـــوز على الانبياء شىء من المعاصى والذنوب كبيرا أو صغيرا لا قبل النبوة ولا بعدها ، ويقولون فى الأئمة مثل ذلك (٢) .

والعجيب أن قول الشـــيعة بعصمة الأنبياء تسرب الى أهـــل السنة ، وأصبح رأى جمهور المسلمين ، ولم يجد هـــذا الاتجـــاه معارضة تذكر من العلماء والباحثين المسلمين المحدثين ، لانه موضوع يتصـــل بالأنبيـــاء ، ويدفع الورع أغلب الباحثين فلا يتعرضون لرد مـــا قال به الجمهور ، ولذلك نجـــد أستاذنا الامام محمد عبده يذكر رأى الجمهور ويعلق بقوله : « ومن العسير اقامة الدليل العقلى أو اصابة دليل شرعى يقطع بما ذهب اليـــه الجمهور (٣) .

تعال بنـــا نبحث الموضوع بشىء من الانطلاق لنتحقق الحق ، والذى أراه أن هناك أمورا مسلما بهـــا هى :

١ — يلزم الاجماع على عصمة الانبياء فى التبليغ ، وقد سبق الحديث عن ذلك .

٢ — يلزم الاجماع على أنهم بعد الرسالة لا يرتكبون الكبـــائر قط

(١) السيد محمد صادق الصدر الشيعة ص ١١٧ .
(٢) اقرأ كتاب تنزيه الانبياء فى امكنة متعدده واقرأ كذلك تاريخ التربية الاسلامية للمؤلف ص ٣٩٣ — ٣٩٥ من الطبعة الثامنة .
(٣) رسالة التوحيد ص ٨٣ .

ولا الصغائر عمدا ، قال تعالى « وجلعناهم أئمة يهدون بأمرنا (١) ، والأئمة والهداة لا يمكن أن يعملوا الكبائر أو يتعمدوا الصغائر .

٣ — يلزم الاجماع على أنهم قبل البعثة نخبة مصطفاة من أحسن معاصريهم سيرة وخلقا ، قال تعالى : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس (٢) » والآية واضحة فى أن الرسل صفوة الخلق وخيارهم ، وقوله تعالى « الله أعلم حيث يجعل رسالته(٣) » مما يدل على أن الرسالة يختار لها خير رجال العصر ، وقد هتف قوم صالح به يقولون فيما رواه القرآن الكريم : « يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا » (٤) مما يدل على سمو مكانة الانبياء بين ذويهم قبل بعثتهم .

٤ — اذا قلنا ببشرية الأنبياء وجواز الخطأ عليهم فى غير ما تلزم العصمة فيه ، فليس معنى هذا أن الأنبياء يخطئون كما نخطىء نحن ، فمن الواضح أن العالم لا يرتكب الخطأ الذى يقع فيه الجاهل ، فكذلك لا يمكن أن يتساوى الأنبياء مع بقية البشر فى نوع الخطيئة ، إنهم إن أخطئوا فزلات بسيطة وهفوات يسيره لأنهم بطبيعة الحال أكثر دقة وهداية ورعاية من الله . ويحدد النسفى (٥) ذنوب الأنبياء بقوله : إن ذنوبهم ترك الأفضل دون مباشرة القبيح ، وذنوبنا مباشرة القبائح .

فإذا قارنا هذه المبادىء ببشرية الرسل التى تحدثنا عنها آنفاً ، جاز لنا أن نثبت أن الرسول عندما يتحدث أو يعمل كرسول ، أى مبلغاً أو داعياً أو معلماً فهو معصوم ، أما إذا كان يتحدث أو يعمل من عند نفسه فى الأمور العامة التى ليست جزءا من الرسالة ، فهو بشر ، يمكن

(١) سورة الانبياء الآية ٧٣ .
(٢) سورة الحج الآية ٧٣ .
(٣) سورة الانعام الآية ١٢٤ .
(٤) سورة هود الآية ٦٢ .
(٥) تفسير النسفى جـ ٤ ص ١١٦ .

أن يخطىء ويغلب أن يصيب ، وقــد وضّح الرسول ذلك بقوله فى الحديث الذى رواه رافع بين خديج : إنمــا أنا بشر ، اذا أمرتكم بشىء من أمر دينكم فخذوابه واذا أمرتكم بشىء من رأيى فانمــا أنا بشر » وفى الحديث الذى رواه البخــارى : « أنا بشر مثلكم أنسى كمــا تنسون » (١) **وكان المسلمون فى الصدر الاول للاســلام يفرّقون بين محمد النبى ومحمد الانســان ، ويتضح ذلك من المثــال الذى أشرنا إليه آنفــا والذى حدث فى غزوة بدر ، فان الرسول اختار مكانا ليهيىء فيه جنده للقتــال ، فسأله أحد قــادة المسلمين سؤالا واضحــا هو : هــل هذا الاختيار وحى من الله أو اجتهاد من عندك ؟ وأجاب الرسول : بل اجتهاد من عندى . فقال الرجل : إذا كان الأمر كذلك فهناك مكان أصلح من هــذا . ودرس الرسول رأى الرجل وانتقل الى المكان الذى أشار به (٢) .**

وقد سبق أن ذكرنا (٣) الآيات التى فيهــا عتاب للرسول على بعض تصرفات لم يقرهــا العزيز الحكيم ، وهى كمــا رأيت هنات خفيفة وزلات ســهلة ، وهى كذلك صادرة من محمد الانسان لا من محمد الرســول ، ويقول فضــيلة الاستاذ الأكبر الشيخ محمد شلتوت فى ذلك الموضوع : أمــا فى غير ما يبلغونه عن الله من الآراء أو الأحــكام فهم ـــ كغيرهم ـــ يصــيبون ويخطئــون ، وقد عــاتب الله نبيــه محمداً عــلى بعض تصرفات فعلهــا من تلقــاء نفسه قال تعــالى : « عبس وتولى أن جــاءه الأعمى . . . »(٤) .

وتميل كتب التفســير الى هــذا الاتجاه ففى البيضــاوى عند قوله تعالى : « عفا الله عنك ، لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم

---

(١) البخارى : كتاب الصــلاة .
(٢) انظر امثلة اخرى مماثلة فى « السياسة فى الفكر الاسلامى » للمؤلف .
(٣) عند الكلام عن « دعوة فى الميزان » .
(٤) الاسلام عقيدة وشريعة ص ٣٤ .

الكاذبين(١) » • يقول المؤلف : عفــا الله عنك : كناية عن خطئة فان العفــو من روادفه (٢) •

ويقول الأستاذ سيد قطب عند تفســير هذه الآية مــا نصه : إنه لُطْفُ الله برسوله ، فهــو يعجل له بالعفــو قبل العتــاب (٣) • وهذا هو الاتجاه العام فى أكثر التفاسير عند الحديث عن أمثــال هذه الآيات •

وهناك نقطة مهمــة هى أن السابقين ألّهــوا المصــلحين وبعضَ الأنبياء ، كما ذكرنا من قبل ، فجاء النص على عدم عصــمة محمد حتى لا يؤلهه قومه ، فليس من الممكن أن يخطىء الإله ، وهكذا تكون عدم عصمة محمد ذاتفائدة كبرى •

والذى يـُمعن النظر فى القرآن الكريم يجد آيات وُجِّهت للرسول غير تلك التى أوردناها ، وهى تدل على نوع من اللوم قد يشــتد أحيانا • وايضــاح ذلك أن الرسول كان حريصــا كل الحرص على أن يؤمن قومه برسالته ، ويتبعوا سبيل الرشــاد ، وبخاصة عمه أبو طالب وأمثاله من رجالات أسرته ، ولكن هؤلاء كانوا قد أصمّوا آذانهم عن الدعوة لسبب أو لآخر ، بيد أن الرسول استمر فى محاولاته وجهــده ليجذبهم اليه ، وقد نزلت على الرسول الآية تلو الآية ليعرض عنهم بعد أن تبين له اصرارهم على الباطل ، ولكنه كان يعود لدعوتهم ويدعو الله أن يستجيبوا اليــه ، والآيات الكريمة فى هــذا المجــال تتدرج فى اللوم والشدة ، وتختم بآية فيها التحدى وفيها شىء من الإنذار ، ولو كان الرسول معصوما لمــا فعل ذلك ، إنه بشر يتمنى الخير والنجاة لأهله وقومه ككل إنسان مخلص ، ولكن إرادة الله أعلى وأسمى وترى ما لا يراه الانسان ، وفيما يلى هذه الآيات :

---

(١) سورة التوبة ص ٤٢ .
(٢) تفسير البيضاوى ص ١٩٥ .
(٣) فى ظلال القرآن جـ ١٠ ص ٧٠ .

— فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر (١) .

— ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين (٢) ،

— ولو شاء ربك لآمن مَنْ في الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين (٣) .

— فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث آسفا (٤) .

— وإن كان كبر عليك إعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء ربك لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين (٥) .

وإذا اتضح هذا مع محمد وهو خاتم الرسل وأشرفهم ، فهو مع سواه أوضح ، والتوراة تنسب لبعض الأنبياء انحرافات بالغة (٦) ، ونحن لا نوافق على ما جاء فى التوراة الموجودة بين أيدينا لقسوة ما تنال من الانبياء ، ونلجأ للقرآن الكريم الذى يشير الى بعض ما حدث من الأنبياء مما يخالف العصمة ، قال تعالى :

— وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى (٧) .

— رب أرنى كيف تحيى الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن

(١) سورة الغاشية الآيتان ٢١ — ٢٢ .
(٢) سورة هود الآية ١١٨ .
(٣) سورة يونس الآية ٩٩ .
(٤) سورة الكهف الآية السادسة .
(٥) سورة الانعام الآية ٣٥ .
(٦) اقرأ التوراة فى امكنة متعددة عند الحديث عن انبياء بنى اسرائيل ، واقرأ الباب الثالث من كتاب « اليهودية » للمؤلف .
(٧) سورة طه الآية ١٢١ .

ليطمئن قلبى (١) .

— ولقد همّت به وهم بهـا لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء (٢) .

— وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين (٣) .

— وما أبرىء نفسى (٤) .

— رب أرنى أنظر إليك . قال : لن ترانى ، ولكن انظر الى الجبـل، فان استقر مكانه فسوف ترانى ، فلمـا تجلّى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقا ، فلمـا أفاق قال سبحانك تبت إليك (٥) .

— وظن داود أنمـا فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب . فغفرنا لـه ذلك (٦) .

— وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنـا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان (٧) .

ونحن نعرف أن من يقولون بالعصمة يحاولون تأويل هـذه الآيات ، ولكن هذه المحاولات تظل قاصرة ، وفى تقديرنا أنه لا داعى لها .

وهناك نقطة مهمة ينساها أولئك الذين يقولون بعصـمة الأنبيـاء ، فلو أن النبى معصـوم لـما كان له من فضـل فيما يأتى به أو يدع ، ولكن بقـاءحياة الرسول بدون عصمة ترفع من شأنه ، وتدل على نجاحه فى جهـاده لنفسه ، وفهمه للأفضل ، واتباعه للأحسن فى أغلب الأحوال .

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٠ .
(٢) سورة يوسف الآيات ٢٢ — ٢٤ .
(٣) سورة يوسف الآية ٣٣ .
(٤) سورة يوسف ٥٣ .
(٥) سورة الأعراف الآية ١٤٢ .
(٦) سورة ص الآية ٢٤ — ٢٦ .
(٧) سورة الأنبياء الآيتان ٧٨ — ٧٩ .

معجزات الرسل :

المعجزة أمر خارق للعادة يَعْجَزُ البشر عن الإتيان بمثله ، يجيء على يد رسول من رسل الله • ويقدِّمُ الرسولُ المعجزةَ دليلا على صدقه • وكان على الناس أن يتبعوه إذ أن المعجزة تحمل معنى قول الله تعالى : صدق عبدى فيما يبلغه عنى •

وتتناسب المعجزة مع الدعوة ، فأديان المرحلة الاولى التى سبق أن تحدثنا عنها ، أى الأديان التى تدعو لتوحيد الله وترك عبادة الأوثان ، لا تحتاج الى معجزة فالتوحيد وترك الأوثان هدف طبيعى يصل اليه العقل بذاته ، ولذلك فالأدلة التى يقدمها أنبياء هذه المرحلة عبارة عن حث الناس على استعمال عقولهم ، وتذكيرهم بنعم الله عليهم ، وتخويفهم من عذابه ، وتهديدهم إن تمادوا أن ينزل بهم ما نزل بأمثالهم من السابقين الضالين ، وقد روى لنا القرآن الكريم صورا مما قدمه أنبياء هذه المرحلة لأقوامهم ، ونحن نقتطف فيما يلى بعضها :

* من قول نوح :

استغفروا ربكم انه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ، ما لكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطورا ، ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا ، والله أنبتكم من الارض نباتا ثم يُعيدكم فيها ويُخْرِجكم إخراجا ، والله جعل لكم الارض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا (١) •

* من قول هود :

— واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح (٢) •

---

(١) سورة نوح الآيات ١٠ — ٢٠ .
(٢) سورة الأعراف ٦٩ .

ـــ فان تولوا فقــد أبلغتكم مــا أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم (١) •

ـــ واتقوا الذى أمدكم بمــا تعلمون ، أمدكم بأنعــام وبنين وجنات وعيون ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (٢) •

* من قول صالح :

ـــ أتتركون فيمــا هاهنا آمنين ، فى جنــات وعيون ، وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ، فاتقوا الله وأطيعون(٣)

* من قول ابراهيم :

ـــ واتل عليهم نبأ ابراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ؟ قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ، قال : هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون ؟ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، قال أفرأيتم مــا كنتم تعبدون انتم وآباؤكم الأقدمون ، فانهم عدو لى إلا رب العالمين ، الذى خلقنى فهــو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، واذا مرضت فهــو يشــفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لي خطيئتى يوم الدين (٤) •

وقد توجد معجزة فى أديان هذه المرحلة ، وذلك إذا طلبهــا أصحاب الرسول كقوم صالح الذين هتفوا به :

ـــ مــا أنت إلا بشر مثلنــا فأت بآية إن كنت من الصادقين (٥) •
فجاءتهم الناقة معجزة لهم •

(١) سورة هود الآية ٥٨ .
(٢) سورة الشعراء الآيات ١٣٢ ـــ ١٣٥ .
(٣) سورة الشعراء الآيات ١٤٦ ـــ ١٥٠ .
(٤) سورة الشعراء الآيات ٦٨ ـــ ٨٢ .
(٥) سورة الشعراء الآية ١٥٤ .

أمـا أديان المرحلتين الثانية والثالثة فالمعجزة ضرورية فيهما ، ولذلك تأتى المعجزة مع الدعوة بدون طلب ، وذلك لأن فى أديان هاتين المرحلتين تكاليف يتوقف تصديقهـا واتباعهـا على المعجزة المقدمة ، ففى أديان بنى إسرائيل تشريع كمـا سبق أن أوضحنا ، ودين الاسلام انقلاب اجتمـاعى وفكرى لمـا كانت عليه البشرية قبله ، فلابد من تقديم معجزة لتكون دليلا للناس على صـدق النبى •

على أنه يمكن أن يقال إن الاسلام مر بمرحلتين ، فقد كان قبل الهجرة قليل التشريعات والتكاليف فاتجه للدعوة للتوحيد وترك عبـادة الأوثان ، فسـار على نمط أديان المرحلة الأولى من الحث على اسـتعمال العقـل والتخويف والانذار :

قال تعـالى :

ـ قل : أندعو من دون الله مـا لا ينفعنا ولا يضرنا ؟ ونُرَدُّ على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ؟ (١) •

ـ أفلا ينظرون الى الابل كيف خُلقت ، والى السماء كيف رُفعت ، والى الجبال كيف نُصبت ، والى الارض كيف سطحت ، فذكر إنمـا أنت مُذكر ، لستَ عليهم بمُسيطر (٢) •

وبعد الهجرة ـ حيث التشريعات الواسعة ـ برزت معجزات الاسلام التى تحدثنـا عنها عند الكلام عن « دعوة فى الميزان » وسنزيدهـا هنـا وضوحا •

وقد تجىء المعجزة أمرا خارقا للعـادة على العموم كمعجزة ابراهيم اذ لم تحرقه النـار ، وكناقة صالح التى قال بعض المفسرين إنهـا خرجت

---

(١) سورة الانعام آية ٧١ •
(٢) سورة الغاشية الآيات ١٧ ـ ٢١ •

من الصخرة والتى كان لهـا شرب ولهم شرب يوم معلوم كمـا ورد فى القرآن الكريم •

وقد تجىء المعجزة من جنس شىء اشـتهر فى عهـد المرسل اليهم كاشتهار السـحر فى عهـد موسى ، والبلاغة فى عهـد محمد ، ولذلك تجىء معجزة موسى أشـبه بالسحر ولكنها أعلى مستوى ، ويجىء القرآن معجزة لمحمد ، وهو فى أعلى درجات البلاغة ، أو أقل فى درجة من البلاغة لا يعرفها مستوى البشر •

الجديد فى معجزات الاسلام :

وتتناسب المعجزات مع طبيعـة الرسالة ، فالرسالات التى سبقت الاسلام كانت لأقوام معينين ، كمـا كانت مؤقتة ، ولذلك جاءت المعجزات من جنس مـا اشتهر عند هـذه الأقوام ، كمـا كانت المعجزة نفسهـا مؤقتة ، فهى تحدث مرة أو عدة مرات ، ويكفى أن يراهـا المرسل اليهم ليعترفوا بالرسل اذا كان الله قد كتب لهم الهداية • أمـا الاسلام وهـو دين عام ودائم ، فقد جاءت معجزته مناسبة لهـذا الوضع أى جـاءت عامة ودائمة ، فالقرآن الكريم لا يزال بأسلوبه ومعانيه معجزا ، ولا يزال متجددا يقيم الدليلَ كلَّ يوم على صحة رسالة محمد ، وقد سمعته الاجيال الأولى فدهشت له ، مَنْ آمن منهم ومَنْ لم يؤمن ، حتى كان قادة المشركين يتسللون ليلا خفية ليتسمعوا لمحمد وهو يتلو القرآن (١) ، وسمعتْه بعد ذلك أجيال وأجيال ، ونسمعه حتى اليوم ونقرؤه ، فيخِرُّ البلغـاء لـه سـاجدين ، ويعترفون بأنه نسـيج وحده ، وأن له نسـقا لا يطاول ولايدانى (٢) •

---

(١) اقرا هذا الموضوع كاملا فى الجزء الأول من « موسـوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية » للمؤلف (الطبعة الثانية عشرة) .

(٢) هناك كتب كثيرة فصلت القول فى موضوع اعجاز القرآن ، ونكتفى بالاشاره اليها هنا ليرجع اليها من يشاء ، واهمها : اعجاز القرآن للباقلانى ، واعجاز القرآن للرافعى ، والقرآن والعـلم الحـديث لعبد الرازق نوفـل ، ومجازات القرآن لمحمد عبد الغنى حسن .

وبالاضـــافة الى القرآن الكريم ، هناك أيضـــا تلك النظم الخالدة التى أشرنا إليهـــا عند حديثنا عن « دعوة فى الميزان » وقد انبثقت هـــذه النظم من القرآن الكريم ، ومن الحديث الصحيح ، فكيف لمحمد الأمىّ أن يضـــع فى حقبة قصـــيرة من الزمن ألوانا من التشريعات عبرت القرون والأقطار وهى حية نامية تتفق مع كل زمان ومكان !! يالله إن لجـــان علمية ضخمة تجتمع لبحث مشـــكلة واحدة ، وتنفض وتجتمع ، وتقرأ وتدرس ، ثم تقترح ، ويعدل اقتراحها عدة مرات ، ثم تصـــدر قراراتها ، وبعـــد سنين قليلة يلحظ النـــاس أن هـــذا لم يعد يناسب العهـــد الذى جد ، فتجتمع لجـــان أخرى وتبحث من جديد وهكـــذا دواليك . أين هـــذا من الشئون التى نظمّهـــا محمد من عند ربه فى عشر سنوات فجاءت مع تنوعها وهى فصـــل الخطاب ؟

والجديد كذلك فى معجزات محمد أنهـــا — بالاضافة إلى خلودها — ليست عصا تنقلب ثعبانا ولاناقة تشرب النهر إنمـــا هى من طبيعة عمـــل الرسول » فاذا جاء رجل يدعى الطب ، فان خير دليل يدعم به دعـــواه طبـــه ودواؤه الناجح ، وإذا جاء مدرس يدعى الإحاطة بعلم الفلســـفة فان خير برهان يقدمه هو أن يقف محاضرا فيعرض أفانين من الفلسفات ، وكذلك محمد قال إنه نبى جاء برسالة تنظم شـــئون الدين والدنيـــا ، شئون الروح والجسد ، ثم برهن على ذلك بأن نظّم وقنّن القوانين وأتى بالتشريعات التى حققت مـــا قال ، ولا تزال تحققه حتى العهـــد الذى نعيش فيه ، وأى معجزة أكبر وأقوى من تلك المعجزة الخالدة ؟

وأخيرا فهناك اتجـــاه جديد أيضـــا فى معجزات محمد ، ذلك الاتجاه هو استعمال العقل بيسر وهدوء . فقـــد كانت المعجزات السابقة تَشْدَهُ العقول وتُفْحِمُ فلا تتيح للانســـان فرصـــة التفكير ، من ذا الذى يستطيع أن ينجو من نار أُلْقِى فيهـــا ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يجعـــل عصـــاه ثعبانا يلقف الثعابين ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يُحيى الموتى أو يبرىء الأكمـــة دون دواء ؟ ولكن هـــذه العقول سرعان مـــا تعود الى

نفسـها وتفـكر فيما رأت ، فتعتقد أو يعتقد أكثرها أن ما شاهدت انما هو ضروب من السـحر والكهانة فتكذّب الرسول فى دعواه ، وهـذا المعنى هو الذى عبَّر عنه القرآن بالآية : « ومـا منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذّب بهـا الأولون » (١) • أمـا معجزات محمد فاتجاه آخر ، إنها معجزات فيهـا تحد ولكن فى يسر وهدوء ، فاذهب الى بيتك واخل الى نفسك أو اجتمع بصديق ،وخذ معك القرآن ، أو استعرض النظم التى جاء بها محمد فى مختلف الشئون ، وناقش تلك المعجزات ، وتذكر أن التحـدى لا يزال قائما ، هـل تستطيع ومعك أساطين البلاغة أن تأتوا بسورة من مثله ؟ هـل تستطيع ــ ولا تخصص لك أو حتى مع التخصص ــ أن تضع أمثـال هذه النظم أو تخطيطا خالدا لتنظيم فى مسألة واحدة ؟ فكر وتدبر أمرك بهـدوء وتأنٍ فإذا عجزت كمـا عجز الملايين قبلك فالاسلام يمـد لك يده • ويفتح اليك بابه ويرحب بك لتدخل فى زمرة أتباعه •

وقريب من هـذا مـا يقوله الأستاذ العقـاد : والنبى فى الاسـلام ليس بصـاحب الخوارق والأعاجيب التى تشل العقول ، وتهول الضمائر ، وتخاطب الناس من حيث يخافون ويعجزون ، ولا تخاطبهم من حيث يعقلون ويتأملون ويقدرون على التمييز •

إن معجزات الاسلام لا تزال تعيش حتى اليوم ، وستظل تعيش الى يوم الدين ، وهى معجزات من طبيعة تختلف عن طبيعة المعجزات التى جاء بهـا الأنبياء من قبل (٢) •

---

(١) سورة الاسراء الآية ٥٩ .

(٢) عن معجزات الاسلام اقرأ دراسة تفصيلية فى : « المكتبة الاسلامية لكل الاعمار » جـ ٢٥ ص ١٥ ــ ٣٢ للمؤلف .

الروح والمـادة فى التفكير الاسلامى

هناك شخص يتطلع للذة ويعيش لهـا ، حياته كلهـا صراع ليُحقق مالا وفيراً ، ومنزلا فخما ، وطعاما شهياً ، ومركباً فاخراً ، وغير ذلك من ملذات الحياة ، وهناك شخص ، أهمل الدنيا ، وقتل رغبات الجسم ، وهجر الحياة بمـا فيها من خير وشر ، ولجأ الى كهف أو معبد يمضى به حياته فى عبـادة تكاد تكون متصـلة •

ومثل ذلك تكون المجتمعات ، فهناك مجتمعات اتجهت لعبـادة المـادة وعُنِيَت بهـا ، وأنكرت الحياة الروحية وسخرت منها ، كما تعيش الدول الرأسمالية والشيوعية جميعا ، وهناك ــ على العكس من هذه المجتمعات ــ دعوةُ المسيحية التى ترى أن دخول الجمل فى سَمِّ الخِياطِ أسهل من دخول الغنى ملكـوت الله ، والتى تدفع الناس للرهبانية وهجر الحيـاة الدنيـا وملذاتهـا •

كلا الاتجاهين لا يقرّه الاسلام لا فى الفرد ولا فى الجمـاعة ، ذلك لأن الاسلام دين الفطرة ، والفطرة التى خلق الله الانسـان عليهـا هى أنه جسم وروح ، فيلزم ــ لإسعاده ــ العنـاية بهمـا جميعا ، ومن أجل هـذا اتجهت ثقافة الاسلام الى تربية جسم الشخص وتربية روحه ، والجماعات عبارة عن مجموعة من الافراد ، فسلامة الفرد جسما وروحا معنـاه سلامة المجتمع جسميا وروحانيا كذلك •

الاسلام ورعاية الابدان :

ومن اهتمام الاسلام بالناحية المادية فى المسلم أن أحـل له الطيبات وحثه على التمتع بزينة الحياة الدنيا ، وأوجب عليه المحافظة على الصحة ، وحبب اليه العمل لخير الدنيا لنفسه ولذويه ، والآيات والأحاديث فى هذا المضمار عديدة واضحة نذكر منهـا :

— يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق (١) .

— كلوا من طيبات ما رزقناكم (٢) .

— والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون (٣) .

— هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه (٤) .

— هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً (٥) .

— يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم (٦) .

— إن لبدنك عليك حقاً .

— المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير .

وهناك حديث يرويه أستاذنا الإمام « محمد عبده » بعد مقدمة ، فيها مقارنة رائعة ، قال رحمه الله تعالى : وصاحب هذا الدين صلى الله عليه وسلم لم يقل : « بع ما تملك واتبعنى » ، ولكن قال

---

(١) سورة الاعراف الايات ٣١ — ٣٢ .
(٢) سورة البقرة الاية ٥٨ .
(٣) سورة النحل الايات ٥ — ٨ .
(٤) سورة الملك الاية ١٥ .
(٥) سورة البقرة الاية ٢٩ .
(٦) سورة المائدة الاية ٨٧ .

لســعد بن أبى وقّاص وقــد أراد أن يتصــدق بثلثى مــاله ، أو بماله كله : « الثلث ، والثلث كثير ، إنك إن تذر ورثتك أغنياء ، خــير من أن تدعهم عــالة يتكففون الناس » (١) .

وسنتكلم فيما بعد عن العبادات ، وأنه أريد بهــا خدمة الجســد والروح ، لهــذا فإن المسلمَ يعفى منها أو تُخفّف عنه طريقة أدائها ، اذا كان فى أدائها على الوجه العادى ما يمكن أن يسبّب ضرراً للجســم ، فالوضوء والغسل يسقطان عن المسلم اذا خيف الضرر ، أو اذا عرضت مشــقة فى تحصيل المــاء ، ولا يجب صوم رمضــان على الحامل ، أو المريض ، أو المسافر ، ولا يلزم القيام فى الصــلاة لمن يشق ذلك عليه ، ولا يلزم السعى لصــلاة الجمعة اذا كان هناك وحــل أو مطــر يضران بالساعى ، وهكذا تتحقق القاعدة : « صحة الأبدان مقدمة على صــحة الأديان » .

ومن النظم التى وضعها الاسلام للوقاية ، ولحفظ الجسم من الأمراض أن حثّ المسلم على الاستياك ، وقص الأظافر والشعر ، والاستنجاء ، والنظافة بوجه عام ، بالوضــوء أو الغسل .

وللنظافة حــديث خاص سيجىء فى آخر الكتاب ، فقد انبهر الغربيون بالنظافة التى أوجبها الإسلام أو حثّ عليها ، فقــد كان الغربيون يفخرون بأنهم بعد مــاء التعميد فى الطفولة لم يمس المــاء أجسامهم ، وكان الثوب يُلْبَس حتى يبلى دون أن يغسل ، وسنقتبس بعض كلامهم فيما بعد .

ومن سلامة الأبدان ان حرّم الله على المسلم أكل ما يضر ، أو شُرب ما يؤذى الصحة ، فحرّم أكل الدم والميتة ، وما أكل السبع ، وحرّم لحم الخنزير ، وشرب الخمور ، وما ماثلها من مواد تؤثر على العقل والجسم ، كالحشيش والأفيون بل والدخان فى رأى أكثر العلماء ، كما حرّم وطء

---

(١) الاسلام والنصرانية مع العــلم والمدنية ص ٧٨ .

الحائض ، وحرّم الزنا ، وألزم التعجيل بدفن الميت ، وغير هذا من الأشياء التى لو حللناها واحداً واحداً لوجدنا السبب الرئيسى فيها هو المحافظة على الجسم ووقايته من الأمراض التى أكّد الطب الحديث حدوثها لو أهملت هذه التعاليم (١) .

ومن رعاية الإسلام للجسم ، أنْ أباح للمسلم الجائع أن يأخذ ما فضل عند صاحبه ، رضىَ صاحب الفضل أو لم يرض ، فإنْ قاتلَ المحتاج لذلك نقله الحق فإن قُتلَ مات شهيدا ، وعلى قاتله القود ، وان قُتِل صاحبُ الطعام فلا قَوَدَ على القاتل(٢) .

ومن رعاية الإسلام للأبدان كذلك أن حث على الرياضة ، وقد وردت أنواع منها فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد روى عنه قوله :

— ألا إن القوة فى الرمى .

— حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمى .

— ما روته عائشة : سابقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته ، ثم سابقنى فسبقنى ، فقال : « هذه بتلك » .

ووردت أحاديث أخرى تحثُّ على المبارزة بالحراب ، والمصارعة ، وغيرهما من أنواع الرياضة ، والمقصود منها جميعاً هو تنمية قوة الأجسام ، والمحافظة على نشاطها .

الاسلام ورعاية الروح والنفس والأخلاق :

أما اهتمام الإسلام بالروح فقد بلغ الغاية ، وقد كان من الواضح فى التفكير الإسلامى أنّ حصْر الاهتمام بالجسم وبالقوى المادية لن يُنتج تقدماً للعالم بقدر ما ينتج الدمار له .

---

(١) اقرأ « كتاب الاسلام والطب الحديث » للدكتور عبد العزيز اسماعيل ، وكتاب « الطب الحديث يترسم خطا الاسلام » للدكتور حامد الغوابى .

(٢) ابن حزم الاندلسى : المحلى ج ٦ ص ١٥٩ .

وقـد قلت فى كتابى « المجتمع الإسلامى » (١) إن النهضـة العلمية التى وصـل إليها الغرب هى فى الحقيقة نهضـة مدمرة ، تهدد العـالم كله بالفنـاء ، وتتركه قبل الفناء يعيش فى خوف وقلق ، متوقعا الخراب والدمار ، وبعبارة أخرى : يعيش يترقب الفناء ، مئات الملايين من الجنيهات يمكن أن تُسْعِدَ البشر ، ولكنهـا بدلا من ذلك تُنْفَق لإنتاج القنابل الذرية والهيدروجينية التى تُعَدُّ للقضـاء على البشر ، وكل ذلك لأن هـذه المدنيّة ملحـدة ، مدنية بُنيت على نظام اقتصـادى ، وأباحت للانسان أن يقتل أخاه الإنسان ليحصل على ما فى يده من طعام أو كساء ، ولم يدخلها عنصر الأخـلاق ولا عنصر الإيمـان . ومن هنا فهى سراب يضئ ، ولكنه ضـوء خـدّاع .

لقـد بلغت النهضة الصناعية فى ألمانيا غايتها قبل الحرب العالمية الثانية ، وكانت ألمانيا فى المقدمة بين دول العالم مدنية وحضـارة ، ولكن هـذه المدنية المدمرة كلفت العالم ملايين البشر يخرّون صرعى وجرحى فى الحرب التى شنتها ألمانيـا أو التى دُفِعَت إليها ألمانيـا من الدول المماثـلة .

وكان تفتيت الذّرة أرقى ما وصـل له الفكر الانسانى ، ولكن سرعان ما دمر وأفنى فى اليابان قبل أن يعرف الناس من خيره قليلا أو كثيراً .

ومن أجل هـذا عنى الاسلام بالروح عنايته بالجسم ، ووضعهما فى كفتى ميزان بحيث لا ترجح إحـداهما الأخرى ، فحث الإنسـان على الإيمان بالله الواحـد الأوحد ، وعلمه ألواناً من الخلق السامى ، وكرّه إليه رذائل الأخلاق ، وامتدح التعاون وألزمه ، وحبب للمسلم الإيثار ، والتآخى فى الاسلام ، وفرض ألواناً من العبادات التى تهـذب الروح ، ووضـع نظماً أخلاقية نادرة تكسـب النفس صـفاء ، وتهب الروح سماحة ونبلا ، اقرأ معى هـذه الآيات :

---

(١) المجتمع الاسلامى : أسس تكوينه ، أسباب ضعفه ، وسائل نهضته ص ٢٦٦ — ٢٦٧ من الطبعة السابعة .

وتعاونوا على البرّ والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان(١) .

— ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (٢) .

— إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخـويكم (٣) .

— لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون (٤) .

— ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فاذا الذى بينك وبينه عـداوة كأنه ولى حميم (٥) .

— خـذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين (٦) .

— ولا تَقْفُ ما ليس لك به عـلم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنـه مسئولا (٧) .

— وآت ذا القربى حقـه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين (٨) .

— يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقـاب (٩) .

— يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ ، إن بعض الظنّ إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضـكم بعضا (١٠) .

---

(١) سورة المائدة الاية ٣ .
(٢) سورة الحشر الاية ٩ .
(٣) سورة الحجرات الابة ١٠ .
(٤)سورة آل عمران الاية ٩٢ .
(٥) سورة فصلت الاية ٣٤ .
(٦) سورة الاعراف الاية ٢٠٠ .
(٧) سورة الاسراء الاية ٣٦ .
(٨) سورة الاسراء الايتين ٢٦ — ٢٧ .
(٩) سورة الحجرات الابة ١١ .
(١٠) سورة الحجرات الاية ١٢ .

— يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم (١) .

هذا ويكثر فى الاسلام أن ترى الآية أو الحديث تجمع بين فوائد الدنيا والآخرة ، وبين صحة البدن وسلامة الروح ، لأن كلا منها ككفة الميزان إن رجحت فعلى حساب الأخرى ، اقرأ قول الله وقول الرسول .

— وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا (٢).

— فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق ، ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، أولئك لهم نصيب مما كسبوا (٣) .

— يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله (٤) .

— اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا .

التوفيق بين المادة والروح :

وهكذا يوفق الإسلام بين المادة والروح دون أن يدع أحداً منهما يطغى على الآخر أو يتغلب عليه ، فاذا تغلبت المادة على الروح فى المسلم هتف به القرآن الكريم :

— مَنْ كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون (٥) .

(١) سورة الحجرات الاية ١٣ .
(٢) سورة القصص الاية ٧٧ .
(٣) سورة البقرة الايات ٢٠٠ — ٢٠٢ .
(٤) سورة الجمعة الايتان ٩ — ١٠ .
(٥) سورة هود الايتان ١٥ — ١٦ .

ــ اعلموا إنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخر بينــكم ، وتكاثرٌ فى الأموال والأولاد كمثلِ غيث أعجبَ الكفارَ نبــاتهُ ، ثم يهيجُ فتراهُ مصفرًّا ، ثم يكونُ حُطاماً (١) ٠

واذا تغلبت الروحانيات على المــادة فى مسلم صدمته مصادر الإسلام التى تُحتِّم أن يهتم المسلم بالجانب المــادى فيه اهتمامه بجانب الروح ، فقــد رُوِىَ أن قوماً قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم فقــالوا : إن فلاناً يصــوم النهار ويقوم الليل ويكثر الذكر ٠ فقال الرســول : أيُّكم يكفى طعامه وشرابه ، فقالوا : كلنــا ٠ كلكم خــير منه ٠ ويُروى أن عمر بن الخطاب نظر الى رجل يظهر النســك حتى ضعف جسمه واعتلَّت صــحتهُ ، فخفقه عمر بالدرَّةِ وقال : ليس هــذا الفعل من ديننا ٠

تلك هى سياسة الاسلام تجاه الروح وتجاه المــادة ، وهى لا شــك سياسة رشيدة تدفع المجتمع تجاه التقدم ولكنها تحمى تقدمه من الدمــار والفنــاء ٠

---

(١) سورة الحديد الاية ٢٠ .

لا رهبانية فى الإســلام

يرتبط هــذا الموضوع بالموضوع الذى سبقه ارتباطاً وثيقاً أو قل إن موضوعنا هــذا يترتب على الموضوع السابق وهو الروح والمــادة فى التفكير الإسلامى ، فاذا كان الإسلام يهتم بالروح والمادة فى الفرد والجماعة ، فإن معنى هــذا أن الإسلام لا يوافق على الرهبانية ، ومعناه أن الإنسان المسلم لابد أن يعمل ، لا أن يكون عالة على غيره يعمل له هــذا الغــير ويطعمه ويكســوه ، ومع هــذا فموضوع الرهبانية جدير بدراسة مستقلة لتبرز رأى الإسلام فى أولئك الذين لجئوا للكهوف أو المعابد ، وحرّموا على أنفسهم الزواج ، واعتزلوا الناس ، ظانين أن هذا هو العبادة الحقّة ، وقد سبق أن قلنــا إن العمل والكدح هما فى الإسلام عبادة لا تقل عن سواها من العبادات ، فلنأخــذ فى هــذه الدراسة بإيجاز .

عبر القرآن الكريم عن طبيعة البشرية السليمة أصــدق تعبير عندما قال : « فمن الناس من يقول : ربنا آتنا فى الدنيا ومــاله فى الآخرة من خــلاق ، ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة » [1] فقــد قسم الله تعــالى الناس قسمين أحــدهما يريد الدنيا فقط والقسم الثانى يريد الدنيــا والآخرة ، وأهمل سبحانه وتعالى جماعة شذّت عن الطبيعية البشرية ، وأهملت الدنيا إهمالا تاما ، وحسبت أن من الخير لهــا أن توجه كل اهتمامها للآخرة ، فلجأت الى الصوامع والبيع والكهــوف ، وجعلت دستورها الرهبانية والتبتل . وجــدير بهــذه الجماعة أن يهملها الإسلام ، لأن سلوكها ليس طبيعياً ، والإســلام دين الطبيعة والفطرة .

والاتجاه للرهبنة والتبتل يعطل ما منحه الله للانسان من قــوى التفكير والإرادة والعمل ، كما يُبقِى أسرار الكون ومنافعه كامنة ؛ وقــد

---

(١) سورة البقرة الايتان ٢٠٠ — ٢٠١ .

سخرها الله جميعها للانسان وسلّطه عليها ؛ ومهد له طريق إظهارها وعمارة الكون بهـا (١) ثم إنه يتنافى مع توجيهات الله التى أباحت الطيبات وحثّت عليهـا . اقرأ معى هـذه الآيات التى أوضحت هـذه الاتجاهات :

— وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون (٢) .

— وأن ليس للانســان إلا ما سعى (٣) .

— هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقــه (٤) .

— وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طرياً وتستخرجوا منــه حـلية تلبسونها (٥) .

— والله جعل لكم من بيوتكم ســكناً ، وجعل لكم من جـلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ؛ ومن أصـوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً الى حين (٦) .

— وسخر لكم الفـلك لتجرى فى البحر بأمره (٧) .

— ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة (٨) .

— وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ،

---

(١) اقرأ كتاب منهج القرآن فى بناء المجتمع للاستاذ الشيخ محمود شلتوت ص ١٨ .

(٢) سورة التوبة الاية ١٠٥ .

(٣) سورة النجم الاية ٣٩ .

(٤) سورة الملك الاية ١٥ .

(٥) سورة النحل الاية ١٤ .

(٦) سورة النحل الاية ٨٠ .

(٧) سورة ابراهيم الاية ٣٢ .

(٨) سورة لقمان الاية ٢٠ .

ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه ، وتقولوا سبحان الذى سخر لنـا هـذا وما كنا له مقرنين (١) •

وطالب الإسلام بالعمل كل من يقدر عليه وجعل ذلك العمل عبادة ، فقـد سوّى القرآن الكريم بين مَنْ يكدحون ومن يقاتلون فى سبيل الله ، قال تعالى : « وآخـرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضـل الله ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله » وروى أن الرسول كان جالساً يوما مع أصـحابه ، فرأوا شـاباً ذا جـلد وقوة قـد بكّر يسـعى ، فقال أحـد الجالسين : ويح هـذا ، لو كان شـبابه وجـلده فى سبيل الله ، فقال عليه السلام : لا تقولوا هـذا ، فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسـألة ويغنيها عن الناس فهو فى سبيل الله ، وإن كان يسعى على أبوين ضـعيفين أو ذرية ضـعاف ليغنيهم ويكفهم فهو فى سبيل الله •

وهناك موقف للرسول جعل فيه المسلم المكافح خـيراً من المتبتـل المترهب ، فقد روى أن قوماً قدِموا على النبى صلى الله عليه وسـلم فقالوا : إن فلاناً يصـوم النهـار ، ويقوم الليل ، ويكثر الذكر • فقال : أيكم يكفى طعامه وشرابه ؟ فقالوا : كلنا •• قال : كلكم خير منه ، وقـد أوردنا هـذا الحـديث من قبل •

وقـد صـح أن أناساً جاءوا الى زوجات الرسـول يتعرفون عن طريقهن ألوان العبادة التى يقوم بها صلى الله عليه وسلم ، والتى سببت أن غفر الله له ما تقـدم من ذنبه وما تأخر ، وقـد روى أن هؤلاء بدءوا يعلنون استعدادهم للتضحية بمتع الحياة ظانين أن فى ذلك ما يقربهم الى الله ، فقال أحـدهم : أنا لا آكل اللحم أبدا • وقال آخر : وأنا لا أتزوج النسـاء أبدا • وقال ثالث : وأنا أقوم الليل ولا أنام على فراش • فلما عرف الرسول ذلك خرج وصـاح فيهم : ما بال قوم يقولون كذا وكذا ،

---

(١) سورة الزخرف الايتان ١٢ — ١٣ •

والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وآكل اللحم ، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى .

وروى عنه قوله : ليس فى دينى ترك النساء واللحم ولا اتخاذ الصوامع .

ويروى أن عمر بن الخطاب نظر الى رجل مظهر للنسك متماوت ، فخفقة بالدرّة ، وقال : لا تمِت علينا ديننا أماتك الله (١) .

ومما سبق ندرك أن الإسلام لا يعرف الرهبانية ، وإنما هو دين اعتقاد وعمل وعبادة ، وللعمل وقته وللعبادة وقتها ، وقد فصّل الله هذا الاتجاه فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله » (٢) ومن أجل هذا يرى الباحثون المسلمون أن العمل عبادة ، وأن الله يثيب عليه لأنه أمر به ، ففأس الزارع ، ومبرد الصانع ، ولسان المعلم ، وقلم الكاتب ، وعين المدير ، ومثيلاتها ، مصدر ثواب ورحمة لأصحابها ، وينمو ذلك الثواب كلما نما إخلاص المرء ، وكلما راقب الله فى حسن أداء ما وكل إليه من عمل .

التوكل والتواكل :

بقيت كلمة عن التوكل والتواكل ينبغى أن نضيفها هنا ، والتوكل هو أن تجد وتجتهد وتكدح باحثا كنت أو تاجراً أو زارعا أو جنديا ، ثم تتوكل على الله وترجو أن تكون النتيجة طيبة ، وأن ترضى بما قسمه

---

(١) المبرد : الكامل جـ ٢ ص ٥١٠ .
(٢) سورة الجمعة الايتان ٩ — ١٠ .

الله لك بعــد ذلك ، وهــذا يتمشى مع قوله تعالى : « وعلى الله فليتوكل المؤمنــون » (١) ٠

ويقول الإمام الغزالى انه ليس للمسلم أن يظن أن معنى التوكــل ترك التدبير بالقــلب وترك الكسب بالبدن ، فالذى يظن ذلك هو التواكل وهو عمل الجهــال ، ويرتكب فاعله الإثم ٠

ومن هنا يتضح الفرق بين التوكل والتواكل ، فالتوكل يكون مــع الجهــد والعمل ، والتواكل يكون بترك العمل ليعمله غيره له ، أو اعتماداً على أن الله سينيله ما يتمنى بدون عمل ٠

وفى الحــديث الشريف أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر أنه يدخل الجنة من أمته سبعون ألفا لا حساب عليهم ، وليس فيهم من يَسْتَرْقون ٠ أى من يطلبون « الرقْيَة » من الآخرين ، فهــذا تواكل ، وكان على هذا الشخص أن يَرْقِىَ نفسه ولا يطلب الرقية من الآخرين ٠

ويوضح الإمــام الغزالى خطأ التواكل فيقول ان من لم يزرع ويطمع فى النبات ، والذى لم يتعلم ويطمع فى العــلم ٠٠٠ إنســان مجنــون ٠

ومع الجــد وبذل غاية الجهد ينبغى على المسلم ألا ينسى أن الله هو المانح ، وأن العمل وسيلة ضرورية ، ولكن العمل قد لا يصل بالانسان الى غاياته وأهــدافه ٠

ويذكر الغزالى أن من يخرج فى سفر بالبوادى ولا يستعد للرحلة ظانا أن الله سيمنحه الزاد فإنه إنسان متواكل لم يأخــذ بالأســباب ، وكان الرسول حين يسافر يتزود بالزاد الكافى ، ويستأجر دليلا ليقــوده ويعرّفه الطريق ٠

---

(١) سورة آل عمران الاية ١٢٢ .

وترك التكسب ليس من التوكل فى شىء إنما هو من فعل البطالين ، الذين آثروا الراحة ، وتعـــللوا بالتوكل ، فالمتوكل ــ كما قال عمـــر ــ الذى ببذر الحب ويسقيه ثم يتوكل على الله ؛ وفى المعارك يلبس المحارب الدرع ، ويُعِدُّ العــدة ثم يتوكل على الله ، وفى ذلك يقول تعـــالى : « وليأخـــذوا أسلحتهم » (١) وقـــد قال الرسول للرجل الذى جاءه ومعه ناقة وسأل ماذا يفعل ليحافظ عليها : اعقلها وتوكل (٢) .

---

(١) سورة النساء الاية ١١٢ .
(٢) انظر كتاب التوكل فى احياء علوم الدين للامام الغزالى .

فلسـفة العبادات فى الإسـلام

تعريف بالعبادات فى الإسـلام :

العبادات فى الإسلام تنحصر فى أربعة أنواع ، هى : الصـلاة ، والصـوم ، والزكاة ، والحج ، ولا يتسـع المقام هنا للحـديث عن تفاصيلها ، فلهذه التفاصيل مظان أخرى • وإنما نكتفى بكلمة قصـيره نمهد بهـا لموضوعنا ، وهو الحـديث عن فلسفة هذه العبادات •

والصـلوات المفروضة خمس صـلوات فى اليـوم والليلة ، وهى صـلاة الصبح ، والظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء •

وصـلاة الصبح ركعتان ، وصلاة المغرب ثلاث ركعات ، وما عـدا هـذين فأربع ركعات ، ويصليها الإنسان منفردا ، ويحسن أن يصليها فى جمـاعة •

وهناك صـلاة واحـدة يلزم أن تؤدى فى جماعة : وهى صـلاة الجمعة التى تحلّ محلّ ظهر يوم الجمعة ، وهى ركعتان •

وبجانب هـذه الصـلوات المفروضة على المسلمين جميعاً ، هناك صلاة أخرى تسمى فرض كفـاية ، أى أنّ أداءها من بعض المسـلمين يُعْفى الآخرين من القيام بهـا ، وهى صلاة الجنازة •

وهناك بجانب هـذه الصلوات صـلوات مندوبة ، كصلاة العيدين ، والنوافـل •

ولابد من الطهارة قبل الصـلاة ، تلك الطهارة التى تتحقق بالاستحمام عند حـدوث جنابة ، أو بالوضوء اذا لم تكن هناك جنابة ، ويلزم كذلك طهـارة الملبس ومكان الصـلاة •

* * *

وتجب الزكاة فى خمسة أنواع هى : النقــد (الذهب والفضة) ، وعروض التجارة ، والسوائم ، والزروع ، والثمــار ، ويشترط لوجــوب الزكاة فى كلٍّ من هــذه الأنواع أن يصــل المــال الى مقــدار معيَّن جعَلَه الشارع دليلا عَلَى الغنى واليســار ، فإذا لم يصــل المــال الى هــذا النصاب فلا زكاة واجبة فيه ، ويشترط كذلك الحول ، والنماء ، وأن تكون الماشية سائمة ، وأن تبلغ الزروع حــد قوتها ، وأن تطيب الثمار ويبدو صــلاحها .

وأول نصاب الإبل خمس وفيها شــاة . فاذا بلغت عشراً ففيهــا شــاتان ...

وأول نصــاب البقر ثلاثون وفيها تبيع أتمَّ ســتة أشهر ، فاذا بلغت أربعين ففيها مُسِنَّة أتمت ســنة .

وفى أربعين شاةً شاةٌ الى مائة وعشرين ، فاذا بلغت مائة وإحدى وعشرين ففيها شاتان ، وفى مائتين وواحــدة ثلاث شــياه ، وفى أربعمائة أربع شــياه ، ثم فى كل مائة شــاة .

وزكاة النقــد وعروضُ التجارة ربع العشر .

وزكاة الزروع العشر اذا سُقيت بالسيح أو الأمطار ، فاذا ســقيت بالآلات فزكاتها نصــف العشر .

ويرى المفكرون المسلمون المعاصرون أن الثروات التى جــدّت فى هذه الأيام كالمصانع والمبانى وعيادات الأطباء وأمثالها تجب فيها الزكاة أيضا .

وقــد أورد القرآن الكريم مصــارف الزكاة فى الآية الكريمــة ، « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليهــا والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » (١) واذا لم تكف الزكــاة

---

(١) سورة التوبة الاية ٦٠ .

لحاجة الأفراد أو الدولة كان للحاكم أن يأخــذ من أموال الأغنياء ما يفى بهــذه الحاجة مهما بلغ قــدر ما يأخــذه (١) .

* * *

والصــوم هو الامتناع عن الأكل والشرب والملامسة الجنسية من الفجر الى غروب الشمس ، وهو فرض" خــلال شهر رمضــان على المسلم البالغ القادر الذىليس له عــذر شرعى كالمرض أو السفر أو الشيخوخة أو حيض المرأة أو نفاســها .

* * *

والحج هو قصــد البيت الحرام بمكة للعبادة فى وقت معين هو شهر ذى الحجة ، على أن يتم الوقوف بعرفة فى التاسع من هــذا الشــهر ، وينتهى الحج بالطواف حول بيت الله الحرام بمــكة ، ويجب الحج مــرة فى العمــر .

* * *

وكثيراً ما تُخففُ هــذه العبادات ، وكثيراً ما تســقط على النحو الواضــح فى كتب الفقه ؛ فالصلاة للمريض يمكن أن تُؤَدّى وهو قاعد أو وهو مضطجع ، ويمكن أن تؤدّى حتى بإيماءات خفيفة أو برمش العين ، فالمقصــود فقط أن يظل المسلم على صــلة بربه فى صــحته ومرضه ، وتُجْمَعَ الصــلاة وتُقصر للمسافر ، وتسقط عن الحائض والنفساء .

ولا تجب الزكاة إلا على القادر الذى وُجِدَ عنــده النصــاب ، ولا يعتبر النصــاب كاملا إلا بعــد تقدير إسقاط الديون ، ويرى فضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت أن الزكاة « لا تجب على الغنى إلا فيما فضــل عن حاجته وحاجة من ينفق عليهم » (٢) .

---

(١) انظر تفاصيل ذلك فى « الاقتصاد فى الفكر الاسلامى » للمؤلف .
(٢) الاسلام عقيدة وشريعة

ويؤجل الصوم فى حالة المرض والسفر والحيض والنفاس ، وتستبدل به كفارة فى حالة الشيخوخة .

ولا يجب الحج إلا على القادر عليه من حيث الصحة والتكاليف وأمن الطريق .

* * *

تلك هى العبادات فى الاسلام ، وهى فيما نرى ويرى المنصفون رياضيات جسمانية ورياضيات روحانية ، وهى كذلك تنظّم شئون الفرد وترتب شئون الجماعة ، وفيها رعاية أحوال الدنيا وبها صلاح حال الدين ، وهى « غذاء للإيمان وعلامة الصدق فيه » [1] وسنعود الى كل من هذه العبادات نستوضح الهدف من فرضه ، ونستلهم المزايا منه ، ولكنا نبادر فنقرر أن بعض الاحكام لا يتفق الناس على فهم أسبابها ، بل ترى بعضها وكأنما ليس له علة ظاهرة ، واعتقادى أن غموض بعض العلل مثل سبب عدد الركعات فى الصلوات ومثل النصاب فى بعض ما تجب الزكاة فيه ، فلسفة لها مغزاها المهم ، انها ترمى الى تعليم الطاعة أحياناً ولو لم يظهر سبب الأمر ، وما الزمَ الطاعة المطلقة للانسان فى كثير من الأحيان ، فالجند يلزم ان يطيعوا اوامر القائد دون أن يتساءلوا عن سببها ، والمرضى يلزم أن يتبعوا نصائح الطبيب وإن لم يعرفوا دوافعها ، وهكذا ، فاذا ظهرت لنا العلة واضحة فى الصلاة والزكاة فليس هناك داع أن نتتبّع كل الجزئيات بالتعليل والبحث عن الأسباب .

ونعود الآن لهذه العبادات لنسرد طرفاً من فلسفة الاسلام فيها :

الصلاة :

من الواضح أن حركات الصلاة حركات رياضية ، وأن تلك الحركات تشمل الجسم كله ، وهى منتظمة كالانتظام فى الرياضة البدنية الفردية

---

(١) الاستاذ الاكبر الشيخ شلتوت : منهج القرآن فى بناء المجتمع ص ١٧٤ .

أو الجماعية ، ولو نظرت الى المصلين فى صلاة الجمعة أو الجماعة وهم يركعون معاً ، ويسجدون معاً ، ثم يقفون ، لحسبتهم يؤدون حركات جسمانية للرياضة ، كتلك التى يؤديها الشباب فى الساحات الرياضية .

وقد حثَّ الاسلام على انتظام الصفوف فى الصلاة وعدم ترك فرجه فيها ، وذلك بلا شك تعليم للنظام وترتيب للأمور ، وقد وحَّد الاسلام قبلة المسلمين ، فاتجهوا جميعاً نحو مكان واحد هو البيت الحرام بمكة المكرمة ، ووقفوا يرددون نفس الكلمات ، وتتجاوب فى نفوسهم نفس المعانى ، وهناك تصوير جميل وضعه باحث مسيحى يصور به المسلمين وهم يصلون ، ونحن نقتبسه فيما يلى : وإذا نظرت الى العالم الاسلامى فى ساعة الصلاة بعين طائر فى الفضاء وقُدِّر لك أن تستوعب جميع أنحائه بغضِّ النظر عن خطوط الطول والعرض ، لرأيت دوائر عديدة من المتعبدين تدور حول مركز واحد هو الكعبة ، وتنتشر فى مساحة تزداد قدراً وحجماً(١) .

ويلتقى فى المسجد الغنى والفقير ، والكبير والصغير ، ويسجد الجميع لله ، وله يركعون ، وهذا تأكيد لخلق المساواة ، ووضعٌ للنظرية الاسلامية فى المساواة موضع التنفيذ .

وفى صلاة الجماعة وصلاة الجمعة التقاء عائلى على نطاق واسع ؛ يعرف أهل المحلة خلاله أحوال بعضهم البعض ، فاذا غاب شخص تساءلوا عنه ، وتعرفوا سبب غيابه ، فان كان مريضاً عادوه ، أو محتاجاً ساعدوه ؛ كما أن الاجتماع يكون فرصة لتسرى الأخبار داعية للتعاون المنشود .

ويلتقط خطباءُ الجمعة الأخبارَ المهمة فى داخل المحلة وخارجها ليجعلوا منها مادةً لوعظهم ، فيحاربون الضلال ، وينشرون البرَّ والهدى والرَّشاد .

---

(١) Hitti : History of the Arabs vol. 1. pp. 130 - 131

وفى الصــلاة ثروة روحية عالية ، فهى تبـدأ بتكبيرة الاحرام « الله أكبر » وتلك العبـارة تحمل صراخاً فى وجه المتكبرين والمتجبرين بأن الله أكبر منهم وأعظم ، أو أن قواهم ليست شيئاً وجبروتهم ليس إلا خيالا ، وبتكبيرة الإحرام يبـدأ المسلم رحلة الى الله ، رحلة روحانية ، لم يتزوّد لهـا المسلم بطعام أو شراب ، وإنمـا تزود لهـا بقراءات وأدعية ؛ ويخلو المسلم الى الله فترة من الزمـان ، بعد أن خلّص نفسـه من علائقهـا المادية ، واتجه اتجاهاً تاماً الى ربه ، فلا يطعم ولا يشرب ، ولا يكلم أحداً إلا الله • فيناديه ويناجيه ، يحمده على نعمه ، ويستغفر له من ذنبـه ويطلب منه الهداية والتوفيق للطريق القويم •

ويركع المسـلم ويسجد، و هو يناجى ربه بأن الخضوع لا يكون إلا لك ، والانحناء لا يليق إلا أمام جلالك وعظمتك •

وتختم الصـلاة بمجوعة من « التحيات » يذكر المصلى فيها ربه ويكرر تعظيمه وإجلاله ، ويذكر النبى الكريم الذى حمل هـذه الرسـالة فقـاد أتباعه الى شاطىء السـلامة ، ويذكر كذلك إخوانه المسـلمين ، ويدعو لهم بالخير والصلاح •

وكل صـلاة من الصلوات الخمس لا تستغرق أكثر من خمس دقائق فى وضعهـا العادى ، ولكن كثيرين من النـاس يستكثرون هذه اللحظات •

والسبب فى ذلك واضح ، هو أنهم لا يحسون بحلاوة القرب من الله ، ولا بلذة المناجاة • لأنهم حين يصلّون ليسـوا قريبين منه ، وحين يتكلمون لا يناجونه ، إنهم يدخلون الصـلاة ليقوموا بأعمال أوتوماتيكية ، ولتنطق ألسنتهم بمـا لا تعيه عقولهم •

إن فكرهم بعيد عن الله ، إنهم يرتّبون وهم يصـلون مـا سوف يعملون بعد الصلاة ، وقد يكون مـا يرتبونه ضلالا أو شراً ، أو يستعرضون مـا مر بهم من أحداث ، وكثيراً مـا كانت تلك ضلالا أو شراً كذلك •

إنهم أشبه بأعمى تضعه أمام لوحة فنية ممتازة ، أو أصم تصحبه الى حفل موسيقى ، فسرعان ما يضيق به هـذا وذاك ، لأن كلا منهما لا يستمتع بما فيه من لذة ، ولم يصل الى شغاف نفسه ما به من جمال .

قل لى بربك : مَنْ ذا الذى يضيق بجلسة مع خالقه ورازقه ؟ ومن ذا الذى يضيق بحديث يوجهه الى ربه يشكره ويذكره ويدعوه ؟

والعالم الفرنسى « روجيه جارودى » الذى اعتنق الاسلام حديثا (فى الثمانينات) يقول عن الصلاة كلاما جميلا نقتبس منه بعضه فيما يلى :

— نُظِّمت الصلاة حسب مسيرة الكواكب الكبرى (فبعضها قبل طلوع الشمس وبعضها فى منتصف النهار . . .) وهـذا يضع الانسان ضمن النظام الكونى .

— وحركات الصلاة تجمع فى الانسان كل الحركات الأساسية لكل مستوى الوجود ، فالمصلِّى يستقيم مثل الجبال والزرع والأشجار ، ويركع ويسجد ويقوم كما تشرق النجوم وتعلو ثم تغرب ، أو كما تنحنى النخيل والكائنات الحية نحو الارض مصدر الحياة .

— والصلاة تربط الانسان المسلم مع كل المسلمين ، فالقِبْلات هنا وهناك تشكّل حول الارض دوائر لها مركز واحد فى مكة المكرمة ، وذلك يرمز للوحدة الكبرى بين المسلمين .

— وتتغير أوقات الصلاة حسب خطوط الطول ، وهـذا يجعل أن فى كل لحظة هناك رؤوس تنحنى وترتفع فى موجةٍ من العبادة لاتنقطع[1] .

وبعد ، فإنه ما من لحظة يلتقى الانسان فيها التقاء صحيحاً بربه إلا وتمنى أن تطول ، فاذا ضقت زرعاً بالصلاة فلتبحث عن الداء الذى دفعك الى هـذا الضيق ، وأغلب الظن أنه مـا ديتك ، أى أنك مرتبط بالمادة منجذب

---

(١) من محاضرات نشرت بالصحف والمجلات .

لهـا ، فلا تستطيع أن تصـل الى سماء الروحانيات ، واسأل نفسك كم ساعة تضيع كل يوم فى الأكل والشرب واللهـو ، وسترى أن وقت الصلاة ضئيل جـداً اذا قيس بأوقات الماديات التى تحيط بك •

وهناك مقياس واضح وضعه الاسـلام لتعرف به مقدار البر فى صلاتك ، قال تعالى : « أقم الصـلاة إن الصـلاة تنهى عن الفحشـاء والمنكر (١) » ويعنى هـذا أن وقفتك الحقيقية أمام الله مصلياً ستطهر نفسك وتبعد الرجس عنك ، وكلمـا رأيت رجلا يصلى ولكنه يقدم على الفحشاء والمنكر ، فلتعرف أن صلاته حركات لا مغزى لهـا ، وأقواله خالية من المعـانى •

الزكـاة :

ماذا نقول عن الزكاة فى الاسلام ومـا بهـا من ثقافة روحية ؟ لقد طاف العالم برحلة طويلة منـذ بدء البشرية حتى الآن ، وشهد العـالم فى أثناء هـذه الرحلة فيضاً من الدماء وألوانا من الحروب التى نشـأت عن المـال بسبب التزاحم عليه والتكالب لنيله ، وقد وصف الاسلام الدواء للبشرية منـذ أربعة عشر قرنا ، ولكن كثيرين من الناس صمّوا آذانهم ، ولم يعوا هـذه الدعوة ، وهبت الحروب وأريقت الدماء ، ثم وجد العالم ألا بدّ من أخذ قسـط من مال الغنى ورده الى الفقير كما شرع الاسلام ، بل بالغت بعض التشريعات فأزالت الملكية بتاتاً ، وحدّت التوارث أو منعته ، وجعلت الناس متساوين فيمـا يملكون ، والطريقان بعيدان عن الصـواب ، فحصر الثروات فى أيد قليلة شرّ لا يقرّه الاسلام « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » (٢) والمسـاواة التامة بين الناس شىء يناقض الطبيعة ، فالطبيعة فاوتت بين الناس فى الصحة والذكاء والصـوت وغيرها ، والطبيعة تجعل الأبنـاء يرثون عن آبائهم هـذه الصفات أو أكثرها ، فكيف نحرمهم

---

(١) سورة العنكبوت الاية ٤٥ .
(٢) سورة الحشر الاية ٧ .

من ميراث المـــال ، والطريق الوسط هو نظـــام الاسلام الاقتصـــادى ، وسنعود له بحديث فيمـــا بعد ، وقد أوضحناه أيضـــاحاً كاملا فى كتـــاب آخـــر (١) .

و « المـــال والبنون زينة الحياة الدنيا » (٢) وطبيعة الانسان الشح « قل : لو كنتم تملكون خزائن رحمـــة ربى إذاً لأمسكتم خشـــية الانفاق ، وكان الانسان قتورا (٣) » والانسان يعمل لينمّىَ مالَه فى تجارةٍ أو زراعة أو غيرهمـــا ، ثم يقـــدّم الزكاة من هـــذا المال العزيز الذى كدّ فى جمعه وتنميته ، والذى هو زينة الحيـــاة الدنيا على الرغم من طبيعته الشحيحة ، إنهـــا رياضة نفســـية رائعة فرضهـــا الاسلام ليســـمو بالمسلمين من دنيـــا المادة الى صفاء الروح ، وليعلمهم الحيـــاة الاجتماعية الســـمحة التى لا يُشْغَل فيها الشخص بنفســـه وآله ويدع من سواهم ، فالاسلام بالزكاة ينقل الانســـان من الأنانية الى الإيثار ، ومن الفردية الى الجماعة ، فيحس أنه فرد فى هـــذا المجموع ينتفع به وينفعه (٤) .

وقبل الاسلام كانت هناك ضرائب ، ولكنهـــا كانت مفروضة على الفقير يدفعهـــا للغنى ، يدفعهـــا من عرقه وجهـــده ، فان لم يَكفِ بذلك دفعهـــا من دمه ، فجـــاء الاسلام وصحح الوضـــع فجعل الضريبة على الغنىّ يدفعهـــا لصالح الفقير .

وشـــهد التاريخ ثورات شبّت نتيجة الضـــغط والقسوة ، وكانت ثورات قامت بهـــا الشعوب ضد الملوك ، ولا تزال نظائر لهـــا تحدث فى عهدنا الحاضر ، إذ يضيق الشعب بحاكمه الذى يأخذ الخير كله لنفســـه . فيهبّ فى وجهه ، وتراق الدماء وتكثر الضحايا من الجانبين ، ولكن الاسلام

---

(١) « الاقتصـــاد فى الفكر الاســـلامى » للمؤلف .
(٢) ســـورة الكهف الاية ٤٦ .
(٣) ســـورة الاســـراء الاية ١٠٠ .
(٤) المجتمع الاسلامى للمؤلف ص ٥٧ .

شهد حرباً من نوع آخر ، إنهـا حرب أشعلهـا الحاكم لمصلحة الشعب ، إنهـا تلك الحرب التى قادهـا أبو بكر وهو يهتف : « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يعطونه لرسول الله لقاتلتهم عليه » ولم يتوقف أبو بكر حتى أخذ للفقراء حقهم من الأغنياء وأصحاب النفوذ .

وهـكذا نجد الزكاة أداة تطهير روحانى بالغ الغاية ، وقد عبَّر القرآن الكريم عن ذلك أبلغ تعبير ، قال تعالى : « خذ من أموالهم صـدقة تطهرهم وتزكيهم بهـا (١) » وقد وضـع النظام الاسلامى أسس العدالة الاجتماعية فى أسمى صورهـا فجعل (المـال ملكا للأمة ، تحفظه اليد المستحقة فيه وتنميه ، ثم تنتفع به الأمة كلهـا ، يخرج من أحد جانبيهـا ويقع فى الجانب الآخر ، فهو منهـا كلهـا وهو إليها كلها ومـا اليد المعطية واليد الآخذة إلا يدان لشخصية واحدة ، كلتاهمـا تعمل لخدمة تلك الشخصية ، ولا خادم فيـا ولا مخدوم ، وإنمـا هما خادمان لشخصية واحدة هى شخصـية المجتمع ، الذى لا قوام له ولا بقـاء إلا بتكـافل هاتين اليدين على خيره وبقـائه (٢) .

الصـوم :

مقـدمة :

قال تعالى فى كتابه الكريم : يا أيهـا الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كمـا كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون (٣) » .

وهـذه الآية الكريمة تشـير الى أن الحضارات القديمة كلهـا عرفت الصـوم ، عرفته وسيلة للتقرب من الآلهة ، أو عرفته وسـيلة للتطهير

---

(١) سورة التوبة الاية ١٠٤ .

(٢) الاسلام عقـيدة وشريعة للاستاذ الشـيخ محمود شلتوت ص ٨٧ — ٨٨ .

(٣) سورة البقرة الاية ١٨٣ .

والسمو بالنفس ، ويمكننـــا أن نجول جولة سريعة ندون بهـــا بعض مـــا ورد فى هـــذه الحضـــارات عن الصوم •

فالمصريون القـــدماء عرفوا الصـــوم ، فقد كانوا يصومون أيام الأعياد كوفاء النيل والحصاد ، أمـــا رجال الدين فكانوا يصومون ســـتة أسابيع فى العـــام ، وكان صومهم من طلوع الشمس الى غروبهـــا حيث يمتنعون عن تنـــاول الطعام ومباشرة النساء •

وعرف اليونان والرومان الصـــوم ، ومن أهم مـــا عنوا به أنهم كانوا يصومون قبل الحرب رجاء النصر ، وكان رجال الدين فى جزيرة كريت يصـــومون مدى الحياة عن أكل اللحوم والأسماك والطيور •

وعرف المجوس الصـــوم ، وبالغت بعض فرقهم فيه حتى ســـميت « الصـــيامية » لأن أتباعها تجردوا للعبـــادة وأمسكوا عن الطيبـــات من الرزق كأكل الأسماك والطيور وعن النكاح والذبائح تزهداً •

وعرف الهنود الصـــوم قبل الميلاد بعدة قرون ، فقد كان الانطلاق والاندماج فى براهما إلههم أغلى مـــا يتطلع اليه العقـــل الهندى ، وكانت الزهادة المفرطة بالصوم ، وأَرَقُ الليل ، وتعذيب النفس ، وسيلتهم لهـــذا الانطلاق ، وكان يتحتم على الهندوسى ألاّ يقتل حياً ولا حتى الهوام • وعليه إذا مشى أن ينتبه حتى لا يطأ حشرة فيقتلهـــا ، وإذا شرب أن يتأكد أنه ليس فى المـــاء الذى يشربه شىء حىّ ، ولا يأكل مـــا فيه روح ، وقد جاء فى كتاب الهندوس المقدس : وليكن طعامك ممـــا تنبته الارض وتثمره الأشجار ولا تقطف الثمر بنفسك ، بل كل منه مـــا يسقط من الشـــجرة بنفســـه ، وعليك بالصوم تصوم يوماً وتفطر يومـــاً ، وإياك واللحم والخمر ، وإذا مشيت فامش فى حذر ، حتى لا ندوس نســـمة وإذا شربت فاحذر أن تبتلع نســـمة •

والجينية إحدى أديان الهنـــد الكبرى ، عمادهـــا الزهد والرياضات

الشـــاقة والتقشف والتشدد فى العيش ، ويسمى هذا الدين دين الانتحار ، إذ يحث على الصوم حتى الموت [١] •

ووُجِدَ الصيام عند اليهود فقد فرضت التوراة الصيام على اليهود ، وكان موسى يصوم أربعين يوما فى العام ، ولا يزال اليهود المتدينون يصومون حتى الآن وإن اختلفوا فى وقت الصوم وعدد أيامه ، ومن أنواع الصوم عند اليهود الصوم عن الكلام كما فعلت مريم ، والصوم عن العمل يوم السبت، أما الصوم عن الطعام فيوجد عند اليهود أحياناً فى شكل فردى وأحياناً فى شكل جماعى ، ومن الصـــوم الفردى صيام الأفراد أو الأسر فى حالات الحزن التى تنزل بهم أو عند التكفير عن خطيئه اقترفهـــا واحد منهم ، أمـــا الصوم الجماعى فمنه الثابت على مر الزمن كالصوم لذكرى الاضطهاد والتشريد الذى نزل بهم ، وهناك صوم جماعى غير ثابت أى يلزم عنـــد حدوث أشياء تحزن اليهود وتقلقهم كالصوم عند رداءة المحصـــول أو غارات الجراد أو الهزائم فى الحروب •

وعند الصـــوم لا يباشر اليهودى النســـاء ولا يأكل ولا يشرب إلا للضرورة القصـــوى ، واليهودى لا يباشر النســـاء أيضا فى حالات الحرب •

والصـــوم عند المسيحيين الامتنـــاع عن أكل لحم الحيوان وكل مـــا يتولد منه أو مـــا يستخرج من أصله ، ويقتصر الصـــائم على أكل البقول ، ولا يُعقد سر الزواج فى أثنـــاء الصوم ، والصوم عنـــدهم يكون يوم الاربعاء وهو يوم المؤامرة التى انتهت بالقبض على عيسى ، ويوم الجمعة وهو اليوم الذى صلب فيـــه عيسى فى اعتقادهم ، وهناك صـــوم الميلاد أو الصـــوم الصغير وعدده ٤٠ يومـــاً تنتهى بعيد الميلاد ويبـــدأ عنـــد المسيحيين الغربيين فى ١٦ نوفمبر ، وعند الشرقيين فى ٢٦ نوفمبر ، والصوم

---

(١) انظر « أديان الهند الكبرى » من سلسلة مقارنة الاديان للمؤلف .

الكبير عند الأرثوذكس وعدده ٥٥ يومـاً قبل عيد القيامة ؛ وهى عبارة عن أربعين يومـاً صامها المسيح ، وقبلها أسبوع يسمى أسبوع الاستعداد وبعدها أسبوع يسمى أسبوع الآلام •

وعرف العرب قبل الاسلام الصـوم فكانوا يصومون يوم العاشر من المحرم ، كمـا كانوا يصومون عن مباشرة النساء عند الحروب •

وبعد هـذه الجولة التاريخية مع الصـوم نصـل الى الصوم فى الاسلام الذى أشـار له عجز الآية الكريمـة السـابقة أى قوله تعـالى « لعلكم تتقون » •

الصوم فى الاسلام :

الصوم فى الاسلام من العبادات التى تهـذيب الجسـم والروح ، وكثيرون من الناس يلجأون الى مـا يسمونه Regime وهو التخفيف من الطعام ، أو إلغـاء بعض الوَجَبات ، أو عدم تناول نوع معين أو أنواع معينـة من الأطعمة ، ويقصـد بذلك الهرب من الترهل أو يقصـدون بعث النشـاط الى الجسم ، وإراحة المعـدة من التخمة ، وقد عبر الرسول عن هـذا المعنى بقوله : (نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع) ولمـا كان أغلب الناس لا يقوون على الحدّ من نهمهم من تلقـاء أنفسهم ، وكانت الرغبة فى الطعـام تدفعهم الى أن يأكلوا بدون حساب ، فقـد جاءت فريضة الصوم لتعالج هـذا الداء ، وتيسر السلامة للأجسـام ، وهناك بعض المسيحيين أدركوا مـا فى الصوم من الفوائد للأجسـام ففرضوه على أنفسهم وقاموا به على النحو الذى يتبعه المسـلمون ، مع استمرارهم على اعتناق المسيحية •

أمـا الناحية الروحية للصوم فجلية واضحة ، وقد أدركت البشرية منـذ عهود سحيقة مـا يسببه الصوم من تهذيب للنفس وسمو للروح ، وأدركت أن الصـوم معناه إهمـال الماديات واحتقارها ، وفى ذلك تقوية

للجانب الروحى فى الانســـان ، فلجأ الفلاسفة القدامى للصوم ، أو قل : للحرمان ، وبالغوا فيه يقصـــدون القضـــاء على الجانب المادى فى الانسان أو — كمـــا فهمته الهندوكية والبوذية — يقصـــدون إفناء الجسم الذى هو قفص تُحبَس فيه الروح ، معتقدين أن القضـــاء على هـــذا القفص سيترتب عليه انطلاق الروح وتحررها ، وقد هذّب الاسلام هذه العبادة ولم يقصد بهـــا القضـــاء على الجسم ، وإنما قصد بها هدفاً مزدوجاً هو ترقية الجسم وترقية الروح جميعاً •

والذى يفكر فى الصوم كمـــا نظمه الاسلام يجد أنه رياضة روحية سامية ، وأنه ترجيح لجانب الروح فى صراعها مع الجسم ، وأنه عن طريق الصـــوم يتحرر الانسان من العادات التى خضع لهـــا على مر الزمن ، كتناول الطعـــام فى وقت معين ، وكالتدخين والمرح ، تلك العـــادات التى يمكن أن يقال إنّ الشخص أصبح عبداً لهـــا لا يستطيع أن يتخلف عنها •

كم استاء زوج لأن زوجته تأخرت فى إعداد الطعـــام عن موعده ، وكم اضطرب رجل لأن لفافات الدخان نفدت منه فى وقت لا يستطيع أن يشـــترى بدلهـــا ، كأن يكون فى الليل أو فى رحلة ، وفى كثير من الأوقات يصـــبح الواجد معدماً ، على أن الغنى وهو فى أوج غناه تأتى عليه ظروف يحتـــاج فيهـــا الى كوب ماء فلا يجـــده • أو كسرة خبز فتعزّ عليه ، فكم من الأغنياء يعطش وهو فى جلسة عامة أو فى دار الخيـــالة وليس للمـــاء فى العـــادة سبيل آنذاك ، وكم اضطرت الأعمـــال ذوى الأعمال أن يتأخروا عن مواعيد طعامهم وقتاً طويلا أو قصيراً ، وليس الصـــوم إلا مدرباً يُعِدّ الشخص للتغلب على العـــادة التى اعتادها ، ويساعده على عودة السيطرة على جسمه ويهيئه لمـــا قد يُلِمّ به من مشكلات وأزمات •

وقد حدث لى باندونيسيا حادث وثيق الصـــلة بموضوعنا هـــذا فى خلال كتابة تلك النقطة من هـــذا الكتاب ، ولم يحدث لى وحدى وإنما حدث لرفاق معى أيضاً ، وقصـــة ذلك أن فضيلة الأستاذ الأكبر (المرحوم) الشيخ

محمود شلتوت شيخ الأزهر كان فى زيادة رسمية لإندونيسيا وكان فى خطة تنقلاته بهـا أن يزور مدينة ميدان بسومطرة وأن أرافقه مع آخرين فى هـذه الرحلة ، وكانت الطائرة على أن تغادر مطار جاكرتا فى الثانية بعد الظهر ، وكان مطلوباً منـا أن نكون فى المطـار فى الساعة الواحدة لنسلم حقائبنا ونؤشر على تذاكر سفرنا ، ومعنى هـذا أننـا خرجنا من بيوتنا حوالى السـاعة الثانية عشرة ، ثم تأخر موعد قيـام الطائرة من الثانية الى منتصف الثالثة تقريبـا ، وعلى هـذا بدأنا الرحلة وليس فينا شخص واحد تنـاول طعام الغداء ، معتقدين أن الطارة ستقدّم لنـا هذه الوجبة ، ثم ظهر أن الطائرة لا تقدم هـذه الوجبة على اعتبـار أن الرحلة بدأت بعد فترة الغداء ، وأن الركاب تناولوا غداءهم قبل السـفر ، واستغرقت الرحلة حوالى أربع ساعات ، وهكـذا كنـا نسير بين الارض والسـماء ونحن جيـاع ، وفى جيوبنا أموال ولكنهـا لا تسمن ولا تغنى من جوع ، والعجيب أننـا بعد أن نزلنـا من الطائرة وجدنا أنفسنا أمام استقبال رسمى وخطط مرسومة ، فلم نر الطعـام إلا بعد الساعة العاشرة •

وقد أدركت من هـذه الحادثة مغزى هاماً من دوافع الصـوم ، فالصـوم يعلمنا الصبر ويجعل مثل هـذه الاحداث أمراً عادياً ، فالصائم الذى يقضى حوالى ست عشرة ساعة كل يوم دون طعـام أو شراب يستطيع أن يواجه أمثـال هذه الظروف بابتسامة ورضـا ، لأن الجوع ليس غريباً عليه إذ يعانيه شهراً كل عام •

ومن الفوائد الروحية الجليلة للصـوم غرس خلق المراقبة الذاتية فى النفس ، فالصـوم واجب فى رمضان ، والاستحمام جائز أو واجب أحيانا ، وفى حالات كثيرة يشـتد العطش بالمسـلم فى نهار رمضان ، ثم يلقى بنفسـه بين المـاء ليستحم ، ويعمه المـاء من كل جهة ، وهو شديد الحاجة الى كوب منه يطفىء به ظمأه ويردّ عطشـه ، ولكنـه لا يفعل ، مع أنه لا رقيب من البشر عليه ، ولن يعلم أحد من الناس مـا ارتكب • وهـذا الخلق نوع من التربية السامية يغرسه الاسلام فى المسلم ليسـير

فى الحياة مستقيما ، لا خوفاً من القانون فطالما استطاع كثير من النـــاس أن يخدعوا القـــانون ، ولكن خوفاً من نفســـه ومن ضميره ومن الله الذى : « لا يخفى عليه شىء فى الارض ولا فى الســماء » (١) • والذى : « يعلم خائنه الأعين وما تخفى الصدور (٢) •

الحـــج :

ربما كان مفيداً ونحن على باب الحديث عن الحج وما به من فوائد مادية وروحية أن نتذكر الاحصائيات الخاصة بالسياحة فى العالم ، وسنرى بلا شك آلاف النـــاس يقطعون ملايين الأميـــال كل عام لرؤية أهرام الجيزة أو للاستمتاع بشمس أسوان ، وللانزلاق على الجليد فى سويسرة ، ولرؤية صـــورة أقرب الى الحياة الطبيعية أو البدائية ببعض أجزاء جزيرة بالى فى إندونيسيا ، وهكذا يســـعى الناس من الشرق للغرب ومن الغرب للشرق ، لا بدافع دينى ، ولا لهدف روحى ، وإنمـــا لمـــا تحققه الرحلات من مزيد من التجارب ومزيد فى المتعة الجسمانية والعقلية ، ولا شك أن رحلة المسلمين حتى يصـــلوا الى البلدان المقدسة سيكون لهـــا فى هذا المجـــال نصيب وافر وربمـــا كان وحده دافعـــاً الى القيام بهـــا ، على النحو الذى يدفع الى القيـــام بالرحلات المماثلة •

ولا يظن ظنى أن شمس أسوان هى التى تدفع الرحالة الى هناك ، لا ، فكثير من النـــاس يرحلون وهدفهم الرحلة فقط ، ومـــا يعود على الانســـان منها من فوائد ذات بال ، بدليل أن الرحلات تنتظم كل بلاد العالم ، فاذا كانت حلوان مثـــلا تمتاز بمائهـــا المعدنى وجوهـــا الجاف الرائع الذى يعد علاجاً لبعض الأمراض ، فان أهل حلوان ومـــا جاورها من المدن يرحلون أيضـــاً ويتجهون برحلاتهم الى أمكنة أخرى بعيـــدة عن حلوان ، ومن الواضح أن الانســـان يُعِدُّ نفســـه للرحلة ، ويهيىء

---

(١) سورة آل عمران الاية الخامسة .
(٢) سورة غافر الاية ١٢ .

لهـا المال والوقت ثم يحدد المكـان ، فاذا لم يتيسر له مكـان اختار سواه لأن الرحلة فى ذاتهـا مطلوبة ، ولأن الإحساس بالرغبة فى الترحال إحساس يكاد يكون عاماً ينتظم اليافع والراشد والذكر والأنثى • تلك حقيقه ليس فيهـا شك أو خلاف ، وتثبت الإحصائيات الرسـميه أن عدداً كبيراً من غير المسلمين يرحلون الى المملكة العربية السعودية ، ويقربون فى رحلاتهم من مكة والمدينه وإن كانت القوانين لا تبيح لهم أن يدخلوا هاتين المدينتين المقدستين •

ذلك حديث موجز عن رحلات المتعـة واللذة التى يقوم بهـا آلاف الناس كل عـام ، فاذا جئنـا الى رحلات الرياضة والعمل والمؤتمرات وجدناها تكـاد لا تنقطع فى كل أطراف العـالم ، ووجدنا البنـات والنساء والرجال يرحلون دون انقطاع لمـا فى ذلك من فوائد عظيمة ، وقـد أشار القرآن الكريم الى تحقق ذلك أيضـاً فى رحلة الحج بقوله : « وأذّن فى الناس بالحج يأتوك رجـالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فـج عميق ليشهدوا منافع لهم (١) » وكلمة « منـافع » عـامة شاملة تفيد التعارف بين المسـلمين وتفيد التعـاون فى مختلف الميادين سياسية أو ثقـافية أو غيرهـا •

ومن الرائع أن نتذكر أن الاسلام منذ حوالى أربعة عشر قرنا هتف باجتماع سنوى حُدّد زمانه ومكانه ليلتقى فيه المسـلمون من مختلف الأقطـار ليبحثوا مشكلاتهم وليشهدوا منافع لهم ، ومرت الأزمنة والعصور، وتطورت المدنيّة وخطت الانسـانية خطوات واسعة تجاه المعرفة والتقدّم فى كل مجـال ، ولكن هذه الانسانية فى أقصى درجات رقيهـا لم تجد بداً من أن تستوحى التعـاليم الاسلامية وأن تسـير على نهجها ، فقررت الأمم المتحدة اجتماعياً سنوياً لها ، يُحدّد زمانه ومكانه ، ويذهب لـه المندبون من مختلف الأقطار يقصدون التعـاون أيضاً فى مختلف الميادين •

---

(١) سورة الحج الايتان ٢٧ — ٢٨ •

ولـكن المدنية الحديثة حينمـا حَذَت حَذوْ الاسـلام وسايرت تعاليمه ، لم يكن فى وسعهـا أن تقتبس اتجاهاته كاملة ، فقنعت الأمم المتحدة بأن أخذت من الحج جزأه المـادى وهو الاجتماع السـنوى ، ونسيت أن التشريع الاسـلامى هيأ الحج تهيئة روحية ، وأحاطه بظروف تحقق له أقصى درجات النجاح ، تعـال بنا نستعرض بإيجاز تلك الظروف الروحية التى توحى بالحب والصـفاء والتى لو استُغِلَّت الاسـتغلال الطبيعى لآتت أطيب الثمرات .

فالمكان الذى اختير للحج هو منزل الوحى ، هو هـذه الارض التى درج عليهـا محمد ، وتلقى بهـا رسالة ربه ، هو مكة ، حيث الصراع الطويل الذى دار بين الحـق والباطل ، هـو الموطن الذى شهد رسول الاسلام وهو يقهر الأحداث ، ويهزأ بمـا حسبته قريش انتصـارات لها فى نضالهـا ضد النور المنبثق ، هـذا المكان له إيحاءاته ، وله صفاؤه ، وله تاريخه ، إنه يهيىء زواره الى درجة من الطهر والنقـاء يصغر معهـا متـاع الحياة وماديانهـا .

وقبل أن يدخل الحاج مكة يلزمه أن يُحْرِم ، والإحرام درجـة فى الروحانية ذات بال ، يخرج المسلم بهـا من لباسه ومن زينته ، ولا يمس طِيباً ، ولا يلبس مخيطاً ، ولا يقص ظفراً ، ولا يحلق شعراً ، ويكتفى بقماش ساذج يوارى به عورته ، ونعل بسيطة تحمى قدميه ، فالإحرام بعبـارة أخرى إلغاء زينة الحياة الدنيا جانباً ، وتخلصٌ من المتع الزائلة ، وإشعار بالمساواة والأخوّة بين المسلمين .

ويلتقى الحجيج جميعاً فى التاسع من ذى الحجة بعرفات ، فى ذلك الجبل الفسيح بين الرمل والحصا ، وفى ذلك مزيد من الصـفاء ، وتخلصٌ من ماديات الحياة وأنوارهـا المُشِعَّة ، ومـا بهـا من جاذبية مؤقتة تسحر العيون ، وفتنة زائلة تشغل القلوب .

وهنـا وهناك ترتفع الحناجر بالتلبية : لبيك اللهم لبيـك ، لبيك

لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » ، ولايستطيع قلم أن يصـور الانفعال الضخم الذى يشمل الحجيج وهم يهتفون هـذا الهتـاف الخالد ، ولا نزاع أنه عندما تمتزج أصواتهم بالتلبية ، تمتزج أرواحهم بالحب ، فيتناسون أوطانهم واتجاهاتهم ، ويلتقون جمـاعة واحدة ، لهـا إله واحد ، وتَتَبْع رسالة واحدة ، تجعل منهم أمة واحدة وتجعل لهم هدفاً واحداً .

ذلك طرف من الحديث عن روحانية الحج ، ولا شك أنه فى مثل هـذه الظروف يمكن أن يكون الحج مؤتمراً دانى الثمرات محقَّق النفع ، فقد هيأت هـذه التعاليم الحجيج لصـفاء روحانى يجعل هدفهم أسمى من المـادة ومن التكالب عليها والسعى لنيلهـا ، ويجعلهم يسعوْن للخير ، لا للانتصـار على حساب الآخرين كمـا نرى الصراع الذى يدور دون انقطاع فى أروقة الأمم المتحدة ، وصـدق الله العظيم حينمـا قال : « فلا رفثَ ولا فسوقَ ولا جدالَ فى الحج (١) » .

اجتماع شعبى :

بقيت بعد ذلك نقـاط نريد أن نستكمل بهـا حديثنا عن الحج ، وأول هـذه النقاط أن الحج اجتمـاع شعبى ، لم يُخْتَرْ له مندوبون يمتازون بالحِجاج والجدل ، بل تُرِك الباب مفتوحاً لمن يستطيع أن يأخذ فى هـذا المؤتمر الشـامل بنصيب ، والحجيج على هـذا يمثلون كل الأقطار بل كل القرى ، ويمثلون كل الثقافات وكل الطبقات .

لا قبور فى الحج :

ولا يتجه الحجاج المسلمون فى حجهم الى قبور يزورونهـا ويعظمون أصحابها كمـا تفعل كثير من الديانات ، لأن من مبادىء الاسلام التى لقيت

---

(١) سورة البقرة الاية ١٩٧ .

كامل العناية فى التفكير الاسلامى إبعـادَ المسلم عن كل مـا فيه شبهةٌ تجـاه تعدد الآلهـة ، وعن مهزلة عبـادة الانسان أو عبادة الأصنام .

تكرار الحج :

ولذة الحج يدركها الحجاج أكثر ممـا يدركهـا أولئك الذين يكتبون عن الحج دون أن يقوموا به ، ويمكننا أن ندرك هـذه اللذة لو عرفنا أن آلاف الحجاج كل عـام يقومون بالحج للمرة الثانية أو الثالثة أو السابعة أحياناً ، فلأىِّ شىء جُهْدُ هؤلاء ورحلتهم ونفقاتهم البـاهظة بعد أن أدّوا الفريضـة بحجهم الأول ؟ إنهـا ليست إلا للذة والمتعـة التى يحسـون بها والتى تفوق عندهم ما يبذلون من جهـد ومـا يدفعون من مـال ؟

وممـا يتصل بهـذا الموضوع أيضـاً ما نلاحظه فى مختلف البلدان الاسلامية من أن أكثر الذين يحجون ليسوا مكلفين بهـذه الفريضة ، فقد أوضحت الشريعة الاسلامية أن الحج واجب على صحيح البدن ، بشرط أن يملك تكاليف الرحلة ، ويملك الانفـاق على نفسـه خلالهـا عن سعة ، ويملك مـا يتركه لأهله ليعيشوا فى رخاء مدة غيابه ، على أن يكون هـذا المـال خالياً من الديون والحقـوق . ولو قارنا هـذه الشروط بآلاف الحالات لوجدنا أن غالبية الحجاج يقومون بالحج لا إسقاطاً للفريضة لأنهـا فى الحق ليست واجبة عليهم ، بل يقومون بالحج للذة والمتعـة والبهجة والسرور .

وبمناسبة الحديث عن تكرار الحج نذكر أن المفكرين المحدثين يرون أنه لا داعى لتكرار الحج حتى لا يزيد الازدحـام الذى يؤذى كثيراً من المسلمين ، وحتى لا يشارك هذا الانسان الذى أدّى الفريضة باقِىَ الحجاج فى مساكنهم وطعامهم وشرابهم ومواصلاتهم ، وخيرٌ له أن يشـارك فى مشروعاتٍ ببلاده لخدمة الاسلام والمسلمين بدل الذهاب لتكرار الحج .

الاحتمال والصبر :

وهناك مآثر للحج تكشف عن روعة هـذه الرياضة الروحية التى ينعم بهـا الحجاج ، فانه مع الزحام الشديد ومع الجهـد الكبير الذى يبذله الحجاج نجـد استجابة طيبة للآية الكريمة التى أوردناهـا آنفاً وهى قوله تعـالى « فلا رفث ولا فسـوق ولا جدال فى الحج » فالأكثرية الغـالبة من الحجاج يقابلون هـذا الزحام بصـبر واحتمال ، وأشهد أن ذلك التزاحم لو كان فى سوق أو رحلة عادية لكثر فيه الصـدام واللغط ، ولكن الحجاج يمسكون أعصابهم ، ويسيطرون عليهـا ، وكثيرون منهم يصبح الاحتمال والصبر طبيعة له بعد العودة من الحج .

التعـارف :

ومن مآثر الحج كذلك التعـارف بين طوائف شتى جاءت من كل ربوع العـالم الاسلامى ، وطالمـا جلست وأنا أؤدى هـذه الفريضة مع رفاق من هنـا ومن هناك وتدارسنا مشكلات العالم الاسلامى ، ومَن لك بجلسة حول الكعبة أو بجوار سيدنا رسول الله ، لابد أن الصفاء يعم الجالسين والاخلاص يوجه حديثهم .

لقب حاج وأثره :

وهناك مأثرة مهمـة للحج أدركتُ عمقهـا من صلاتى ببلاد شتى بالعالم الاسلامى ، ففى كثير من هـذه البلدان يوجد إهتمام كبير بلقب « حاج » الذى يحمله من أدّى هـذه الفريضـة ، ويبلغ اهتمـام الناس بهـذا اللقب أن الأبنـاء يرثونه عن الآباء والأجداد كمـا يحدث كثيرا فى أندونيسيا وماليزيا والسودان ، وكم من رجل ذهب للحج ثم ألزمه هـذا اللقب أن يتجه الى الطيبة والاستقامة ليكون أهلا لحمله .

وهنـا فى مصر عرفت فتـاة تعمل مدرسة ولم تكن حريصـة على تقاليد الاسلام ، ثم ذهبت لتحجّ ، ولبست هناك اللباس الأبيض ، وشملها صفاء الاجتماع فى الارض المقدسة ، وجلستْ بجوار سيدنا رسول الله ،

ولما عادت أدهشت الناس للتغير الشامل الذى سيطر عليها فجعلها ورعة تقية ، تلبس الزى الاسلامى وتتخلق بأخلاق الاسلام وعاداته .

كم نقل الحج الانسان من حال الى حال بسبب ما رأى هناك ، وبما تأثر به وانفعل ، وبسبب اللقب الذى يمنعه غالباً من الانحراف كلما حاولت النفس أن تدفعه الى الانحراف ، ولا شك أن المجتمعات الاسلامية تندّد بخطيئة الحاج أكثر مما تفعل مع الذى لم يؤد هذه الفريضة بعد .

كلمة عن الحجر الأسود :

بقيت كلمة تتصل بالحجر الأسود ، ذلك الحجر الذى كانت تعظمه قريش فى الجاهلية لأنه من بقايا الكعبة التى بناها أبوهم ابراهيم ، والذى يبدأ عنده الطواف حول الكعبة ، ولما كان بعض المسلمين قد اعتادوا أن يقبّلوه فقد فهم المستشرقون من ذلك أن فى الاسلام بقيّةً من وثنية الجاهلية ، وردّنا عليهم أن الحجر الأسود لم يكن من أصنام العرب وأوثانهم ، وهذا شىء واضح تمام الوضوح لدارس وثنية العرب (١) . فأصنام العرب معروفة دون شك ، لم يكن من بينها قط الحجر الأسود أو الكعبة ، وإذا اتضح أن العرب فى جاهليتهم لم يقدسوا الحجر الأسود ولم يجعلوه بين أوثانهم ، فكيف يجوز الاعتقاد بأن المسلمين قدسوه ؟ .

ولندع العرب فى جاهليتهم ولنعد الى الاسلام ، وهناك رواية تقرر أن عمر بن الخطاب قبّل الحجر الأسود ولكنه وضّح مكانة ذلك الحجر وسبب تقبيله له بقوله : والله إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبّلك ما قبلتك .

---

(١) اقرأ كتاب الاصنام لابن الكلبى ، وانظر مبحث الدين فى الجزء الاول من « موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية » للمؤلف .

هل هــذه الرواية صحيحة ؟

الحق أننى كنت أظنهــا رواية مجمعاً عليهــا ، ولكن حدث أننى ألقيت بالمذياع حديثاً عن هــذا الموضوع ضمن سلسلة أحاديث دينية ، وتكلمت عن الحجر الأسود مع التســليم بهذه الرواية والتعليل لتقبيل عمر رضى الله عنــه للحجر مفترضــاً حدوث ذلك ، ثم اتصل بى بعض الباحثين وذكروا أن هــذه الرواية موضوعة وأنكروا بأدلة ذكروهــا أن الرسول قبّل الحجر أو أن عمر قبّله •

وعلى هــذا فإنكار هــذه الرواية يضــع حداً للموضوع ، ولــكن إنكار هذه الرواية ليس موضع اجماع ، فلنَسِرْ فى الموضوع على فرض حدوث التقبيل (١) :

لمــاذا قبّل الرسول الحجرَ الذى لا يضر ولا ينفع ؟

فى الإجابة عن هــذا السؤال نذكر :

أولا — أن جميع المســلمين اتفقوا على أن تقبيل الحجر الأسود ليس واجبــاً على الحجاج •

ثانيا — يبــدو لى أن الرسول قبّلهُ لحــادث خاص تاريخى لــه صلة بالرسول ، وكلنــا يذكر أن قريشاً جدّدت بنــاء الكعبة ومحمد فى الخامسة والثلاثين من عمره ، أى قبل البعثــة ، فلمــا أتمت قريش البناء وأرادت وضــع الحجر الأسود فى مكانه اختلفت البطون فيمن يكون لــه شرف حمله ووضــعه ، واشتد الخلاف حتى أوشكت الحرب أن تشتعل بينهم ، ثم اتفقوا على أن يحكّموا أول داخل عليهم من باب شيبة ، فكان

---

(١) يتمسك كثير من العلماء بصحة الرواية ولا يقبلون القول بأنهــا موضوعة ، وقد التقيت بجمهرة من هؤلاء العلماء الافاضل بالسودان الشقيق ، ولست هنا احاول توثيق الرواية ، ولكنى ابحث موضوع تقبيل الحجر الاسود ، وقد اجمع من يوافقون على الرواية ومن يردونها على أن التقبيل ليس عمــلا تشريعيا ، وليس فريضة يلتزم بها الحجاج .

محمد أول داخـل منـه ، فقالوا : هـذا هو الأمين ، رضيناه حكمـا • وأخبروه الخبر •

وهكـذا ألقت قريش مقاليد أمورهـا فى يد محمد فى ثقة واطمئنان ، وكأنّ ذلك كان امتحاناً له ، وهو امتحان قاس لمن أراد أن يرضى الجميع ، ووجد محمد الحلّ ، فبسط رداءه ووضـع الحجر عليه ، ودعاهم ليأخذ كل بطن بطرف من الثوب وأن يحملوا الحجر معـاً • وهكذا انتصر محمد ورضى الجميع بمـا اقترح ، ونال محمد بذلك شرفاً كبيراً تحدث به كل الناس ، فأصبح لذلك الحـادث ـ فيمـا أظن ـ أثر فى نفس محمد دفعه الى تقبيله ، وربما كان هناك دافع غير هذا ، ولكن الموضوع على كل حـال شخصى لا تشريعى كمـا سبق القول •

ومن الأحداث المماثلة لموقف الرسول من الحجر الأسود مـا حدث للملكة فيكتوريا ، إذ كانت تركب القطار ليـلا ومعهـا كبار دولتهـا ، ثم رأى السائق شبحاً يشـير اليه إشارات غامضة كأنه شخص يومىء إليه أن يتوقف لخطر محدق بالقطـار ، وتوقف السائق ونزل يستوضح الأمر ، فوجد فعلا خللا بالقضـبان الحديدية كان سيؤدى بقطـار الملكة الى كارثة محققة ، وبحث السائق وأعوانه عمن أنقذهم وأنقذ الملكة ، فلم يجدوه شخصـاً ، وإنما كان فراشة ألقت بهـا الظروف فى الفراغ بين مصباح القطار والزجاجة الخارجية لهـذا المصباح ، وكانت الفراشـة تتراقص أمام المصـباح فيدفع نور المصـباح بخيال الفراشة الى الخارج حتى ظهر للسائق فى الضـوء البعيد كأنه إشـارة خطر ، وهكـذا دخلت هـذه الفراشة التاريخ ، وحصل ارتباط بين حياة الملكة وبين هذه الفراشة ، فأصبحت فراشة مقدسة عند الملكة وقومهـا ، ولا يزال جثمانهـا يحتل مكانه فى المتحف البريطانى •

وأعرف رجلا كانت سيارته على وشك أن تهوى به فى سفح منخفض إثر ضربة من سيارة أخرى ، ولكن شجرة ردت سـيارة الرجل قبـل أن تهوى ، فأنقذت الرجل من موت محقق ، وأعرف هـذا الرجل وقد بنى

مسجداً بجوار هـذه الشجرة ، وأصبح يؤدى فى هـذا المسـجد أكثر صلواته ، ومن الواضـح أن الرجل لم يعبد الشجرة ولم يعبد المكـان ، ولكنهـا قصة خاصة من القصص التى لهـا عمق فى عواطف الانسـان دون أن يكون لهـا أى أثر فى عقيدته الدينية ، وليس الحجر الأسود عندى إلا كذلك بالنسبة للرسول صلوات الله عليه .

العبادات أمور تعبديّة :

تلك هى العبادات فى الاسلام ، وتلك هى فلسفتهـا ومنهـا يتضح مـا سبق أن أوردناه من أن العبادات تهذّب الناحيتين المادية والروحية فى الانسـان ، وهى متجدّدة متكررة حتى يظل المسـلم أقرب الى الطهر ، وحتى تجذبه العبـادة الى رحبات الله كلمـا دفعته ماديات الحيـاة الى البعد عن هـذه الرحبات .

بقى أن نوضح أن كلمة عبادة معناهـا الطاعة ، فعلى البشر أن يطيعوا خالقهم وأن يعبدوه كمـا أراد فهموا معنى العبـادة أو لم يفهموهـا ، ولو ناقش خادمٌ سيدَه فى كل أوامره وأبى أن يستجيب إلا لمـا يفهم سَبَبَه من هـذه الأوامر ، لمـا طالت بينهما الصلة ، ولأسرعت العلاقة بينهمـا الى الانفصـام ، ثم إن هناك فرقاً ملحوظاً بين أن تتوضأ قاصداً النظافة مع الطهـارة ، وأن تصلى قاصداً رياضـية البدن مع تهذيب الروح ، وبين أن تتوضـأ وتصلى قاصداً الطـاعة والامتثال وإرضاء الله ، ولا شك أنه فى حالة الطـاعة المطلقة تكون العبـادة أمثل وأصـدق تعبيراً عن المقصـود ، ويروى الأستاذ الشيخ محمود شلتوت فى هذا المجـال حديث الرسول : (إنمـا الأعمال بالنيات ، وإنمـا لكل امرىء مـا نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيـا يصيبهـا أو امرأة ينكحهـا فهجرته الى ما هاجر اليه) ويعلق فضيلته على هـذا الحديث بقوله : فمن قصـد بالوضوء النظافة فهجرته الى غير الله ، ومن قصـد الرياضة بالصـلاة فهجرته الى غير الله ، ومن قصـد بالصوم العلاج الصحى فهجرته الى غير الله ، وهكذا من يفعل

العبادة لغير وجه الله خالصة فهجرته الى ذلك الغير (١) .

هــذه ناحية ، وناحية أخرى نريد أن نتحدث عنهــا وهى أن نسأل : لمـــاذا لا يـُعـْفـَى من احدى العبادات أو منهــا كلها مـَنْ تجمعت فيــه الاتجاهات التى تعمل هــذه العبادات لتحقيقهــا ؟ بمعنى أنه إذا كان الهدف من الصــوم مثلا أن يحس الصــائم بجوع الفقير ، أو أن يتعود الجوع استعدادا لمــا قد ينزل به من مشقات طارئة أو دائمة ، فلمــاذا لا يـُعـْفـَى الفقير نفســه من الصوم ؟ ولمــاذا لا يعفى منه كريم اليــد السخى بالعطاء ؟ وقـُلْ مثل هــذا فى باقى العبادات .

وللإجابة على هــذا نوضح أن الفلسفات التى سبق أن أوردناهــا إنمــا هى ألوان من الاجتهاد الانسانى على مَرِّ العصور للبحث عن أسباب هــذه العبادات ، وليس بعيداً أبداً أن تكون هناك أسباب لم نعرفهــا بعد ، أو تكون عقولنــا قاصرة عن إدراك أسباب حقيقية ستظل مطوية عنا .

ثم كيف جاز لنــا أن نفكر فى أن نعفى من الوضوء الرجل النظيف ، وأن نعفى من الصــوم الرجل الكريم ؟ مع أن النظيف اليوم قد يهمل النظافة غدا ، والكريم اليوم قد يبخل فيمــا بعد ، فكثيرون من الناس أهملوا مظهرهم بعد أن كانت عنايتهم بالمظهر على أشدها ، وكثيرون منهم شحـُّوا بعد كرمٍ وجـُودٍ .

على أن وحــدة التشريع هامة جداً فى التفكير الاسلامى ، ومعنى هــذا أن العمل الجماعى مقصود ، فالدين دين الناس جميعاً ، والتشريع جاء للمسلمين جميعاً ، ولا يمكن أن يـُهـْمَل الجانب الجماعى فى التكاليف ، ذلك الجانب الذى يرمى الى خلق وحــدة بين المسلمين ، فصومهم معــاً وصلاتهم معــاً . . . . لهــا مغزى ســامٍ (٢) ولو طـُفـْتَ العالم الاسلامى فى رمضــان ورأيت صوماً هنــا وصوماً هناك لأدركت سمو الهدف الذى قصــد اليه الاسلام .

---

(١) من توجيهات الاسلام ص ٣٥٧ .
(٢) انظر المجتمع الاسلامى للمؤلف ص ١٥٣ وما بعدها .

غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى

فى أكثر الأقطار الاسلامية يعيش عدد كبير من غير المسلمين ، فعلى مرّ التاريخ يوجد مسيحيون ويهود فى مصر وإندونيسيا والعراق والمغرب وغيرها ، كيف عاش هؤلاء فى الماضى وكيف يعيشون الآن ؟

وفى مقابل ذلك عاش المسلمون أقليّة فى بلاد غالبيتها من غير المسلمين أو فى بلاد حكوماتها غير اسلامية ، كما عاشوا فى الأندلس بعد سقوط الحكومات الاسلامية ، وكما عاشوا فى فلسطين وقت انتصار الصليبيين ، وكما عاشوا فى الهند حتى عهد قريب ، وكما يعيشون فى إسرائيل الآن ،

كيف عاش المسلمون فى تلك المجتمعات غير الاسلامية ؟ وكيف يعيشون ؟

الإجابة عن هذين السؤالين واضحة ، تراها فى الواقع الذى نعيش فيه ، وتقرؤها عن الماضى مما كتبه المسيحيون أنفسهم •

ففى العهد الحاضر ترى غير المسلمين فى المجتمعات الاسلامية يستمتعون بالحقوق الواسعة التى كفلها لهم الاسلام وينعمون بالتعاون والود وطيب العشرة التى اشتهر بها المسلمون ، وتطوف العالم الاسلامى فهيهات أن ترى شكاة من مسيحى أو يهودى ضد المواطنين المسلمين ، وكثيرا ما ترى الثروات الضخمة والتجارات الكبيرة يملكها يهود أو مسيحيون يعيشون فى ظل حكومات إسلامية •

أما حاضر المسلمين الذين يعيشون تحت حكومات غير إسلامية فيدلك على الآلام والقسوة والحرمان والطرد والصراع المرير ، إنهم هكذا يعانون فى إسرائيل ، حتى هجروا ديارهم ثم لم يسمح لهم بالعودة إليها • وهم كذلك عانوا فى الهند قبل التقسيم حتى اضطروا الى أن يستقلوا

بقطعة من أرض الهنـــد أطلقوا عليهـــا الباكستان ، وهم كذلك يعيشـــون فى الفيلبين الآن (١) •

والماضى صـــورة من الحاضر فى الحالتين ، فقد لقى المسلمون من الحكومـــات غير الاســـلامية صنوف الاضـــطهاد والتنكيل ، ويحدثنـــا غوستاف لوبون (٢) عن ضرب من ضروب القســـوة والبربرية كانت طابع الصليبيين فى فلسطين عقب نجـــاح الحملة الصليبية الأولى فيقول : (لم يكتف قومنـــا الصليبيون الأتقيـــاء بضروب العســـف والتدمير والتنكيل التى اتبعوهـــا ، بل عقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على إبادة جميع ســـكان القدس من المسلمين واليهود الذين كان عددهم ستين ألفـــاً ، فأفنوهم عن آخرهم فى ثمانية أيام • ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولدا ولا شـــيخاً • ويقول غليوم الصـــورى إن : الصليبيين كانوا من الســـفهاء الفاسدين والملاحدة الفاسقين ، ولو أراد كاتب أن يصف رذائلهم الوحشـــية لخرج من طور المؤرخ ليدخل فى طور القادح الهاجى) •

أمـــا نتيجة انتصـــار المسيحيين بالأندلس على المسلمين فيحدثنـــا عنهـــا الواقع الذى يرينا أنه ليس فى أسبانيا الآن مســـلم واحد ، لقد ألقوا بالمسلمين فى قاع البحر ، أو أسالوا دماءهم وأزهقـــوا أرواحهم ، أو أرغموهم إرغاماً على ترك الاسلام والدخول فى دينهم ، فقد نشر فى فبراير ســـنة ١٥٠٢ أَمْرٌ بطرد أعداء الله المغاربة (المسلمين) من إشبيلية ومـــا حولها إذا لم يقبلوا التعميد ، وعليهم أن يغادروا أسبانيا قبـــل شهر أبريل ، وألا يصحبوا معهم ذهبـــاً ولا فضـــة ، وألا يذهبوا فى طريق يقودهم الى أرض اسلامية ، والنتيجة التى جاءت أثراً لهـــذه الشروط موت الجميع ودمار الجميع •

---

(١) انظر كتاب « رحلة حياة » للمؤلف .
(٢) حضارة العرب ص ١٩٤ .

وهكذا تدرك فى يسر وسهولة أن المسلمين لقــوا فى المجتمعات غير الاسلاميه الوانا من الاضطهاد والإباده ، وكانت النتيجه التى سعت إليهــا هــذه المجتمعات وحققتها ان نمحى الاسلام فيهــا ونرغم ذويه على الأرتداد عنه ، فاذا تمســك بعض المسلمين بدينهم أسلموهم الى الدمار والفنــاء •

امــا غير المسلمين فى المجتمعات غير الاسلامية فقد شــهد التاريخ أنهم نعموا فى ظل الاسلام بالرخاء والأمن والسلامه ، فقــد رسم القران الكريم وأحاديث الرسول الطريق القويم للمسلمين فى معــامله اتبــاع الديانات الأخرى ، وســار السلف الصالح فى ضــوء ذلك ، وانحدر هــذا الاتجــاه خلال عصور التاريخ حتى أثنى عليه وامتدحه الكتاب المسيحيون أنفسهم ، تعــال بنــا نقتبس من هــذا الضوء بعضاً منه دليلا على مــا أوردناه هنــا :

يحث الله تعالى المسلمين أن يحســنوا معاملة غير المسلمين وأن يكونوا معهم بررة وعدولا ، قال تعــالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين (١) » •

ويبيح الاسلام للمسلمين أن يؤاكلوا غير المسلمين وأن يصاهروهم ، ولا شك أن المصــاهرة تخلق امتزاجاً بين هؤلاء وأولئك ، فأخوال الأولاد سيصبحون من أهل الكتاب ، وفى هــذا رباط كبير أباحه الله بين المسلمين وغيرهم ممــا يدل على أن الاسلام دين الانسانية ، وفى ذلك يقول الله تعــالى : « وطعــام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ، والمحصــنات من المؤمنــات والمحصنات من الذين أوتوا الكتــاب من قبلكم(٢) » •

(١) سورة الممتحنة الاية الثامنة .
(٢) سورة المائدة الاية الخامسة ، وانظر القيود حول هذا الموضوع فى « الحياة الاجتماعية فى التفكير الاسلامى » للمؤلف .

وقد يدخل الابن الاسلام ويظل الأب على غير الاسلام ، وهنا يدعو الاسلامُ الابن أن يظل طيب الصحبة مع أبيه مع اختلاف الدين ، قال تعالى : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفاً » .

ويوضح القرآن للمسلمين أدب الجدال بينهم وبين أهل الكتاب ، ومن هذا الأدب أن يعلن المسلمين إيمانهم بأديان أهل الكتاب تقرباً منهم ، قال تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون (٢) » .

ومن تسامح الاسلام مع أهل الكتاب أنه أباح لهم ما أباحته لهم أديانهم وإن حرمها الاسلام على المسلمين ، فليس هناك من حرج على أهل الكتاب أن يشربوا الخمر أويأكلوا لحم الخنزير ، وليس للمسلمين أن يمنعوهم من ذلك .

أما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد كان مثلا أعلى فى معاملة أهل الكتاب ، فقد رُوى أنه كان يحضرولائمهم ويشيّع جنازاتهم ، ويعود مرضاهم ، ويزورهم ويكرمهم ، حتى رُوِىَ أنه لما زاره وفد نصارى نجران فرش لهم عباءته وأجلسهم عليها ، وروى أنه كان يقترض من أهل الكتاب نقوداً ويرهن عندهم أمتعته ، حتى أنه توفى ودرعه مرهون عند بعض يهود المدينة فى دين عليه ، وكان يفعل ذلك لا عجزاً من أصحابه عن إقراضه إذ كان منهم الموسرون ، وكان منهم كثيرون يرحبون بأن يضحوا بأنفسهم وأموالهم فى مرضاة نبيهم ، بل كان يفعل ذلك تعليما للمسلمين

---

(١) سورة لقمان الاية ١٥ .
(٢) سورة العنكبوت الاية ٤٦ .

وإرشاداً (١) ، ويروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله : من آذى ذمياً فليس منى .

وكان حرص المسلمين على الوفاء لأهل الذمة حقيقة مشهورة معروفة ، حتى أنه يروى أن واصلاً بن عطاء زعيم المعتزلة فاجأته مرة عصابة من الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين الذين يخالفونهم فى العقيدة ، ورأى واصل أن الطريق لنجاته هو وصحبه من موت محقق ، أن يدعى أنه هو وصحبه ذميون ، وهكذا فعل وهكذا نجا (٢) .

ومن الطبيعى أن السلف الصالح ساروا فى معاملة أهل الكتاب سيرة القرآن وسيرة الرسول ، وقد وصى أبو بكر الصديق خالداً بن الوليد بنصارى الحيرة لما قبلوا دفع الجزية ، فقال : أيما شيخ ضعف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنيا فافتقر ، فأطْرح عنه الجزية ثم يُنْفَق عليه من بيت مال المسلمين هو وعياله .

واذا لاحظنا أن العالم الاسلامى اتسع فى عهد عمر بن الخطاب ، فاننا نستطيع أن نأخذ هذا الخليفة نموذجاً للسلف الصالح ، ونرى الطريقة التى عامل بها غير المسلمين الذين شملهم العالم الاسلامى ، وأول ما نذكر أن فى عهده تحقق النصر لجيوش المسلمين التى كانت تحارب فى إيلياء ، (بيت المقدس) ولكن عمر كان حريصاً على السلم أكثر من حرصه على النصر ، ولذلك نجده يرحل بنفسه الى هذه المدينة ، ويكتب بينه وبين المسيحيين بها عهداً جاء فيه :

« . . . . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمين المؤمنين أهل إيليا من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، سقيمها (١) وبريئها وسائر ملتها : أنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تُهدم ، ولا يُنتقص

(١) عفيف طبارة : روح الدين الاسلامى ص ١٩٩ .
(٢) المبرد : الكامل فى اللغة والادب ص ٢٥٤ .
(٣) يقصد بالسقيم تلك الكنائس التى انحرفت وقالت بالتثليث .

منهـا ولا من خيرهـا ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يُكْرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يَسكن بإيلياء معهم أحد من اليهـود ٠٠٠٠ » ٠

وكان عمر لا يكتفى بالعهـود يقطعهـا على نفسـه وعلى قومه ، بل كان يشفعها بوصاياه المتكررة الى ولاته أن يمنعوا المسلمين من ظـلم أهل الذمة ، وأن يوفوا لهم بعهدهم ويخففوا عنهم ، وألا يكلفوهم فوق طاقتهم ، وقد سجل ذلك فى وصيته قبل موته ٠

ومن الناحية العملية نجد أن عمر وفَّى بمـا وعد بل زاد عليه عطفاً وتسامحـاً وحسن معاملة ، فبينمـا كان فى كنيسة القيـامة إذ دخل وقت الصـلاة ، فخرج عمر وصلى خارجها ، وقال للبطريرك : ولو صليتُ داخل الكنيسـة لخفتُ أن يقول مَنْ بعـدى ٠ هـذا مُصلى عمر ، وأن يحاولوا أن يقيموا فى هـذا المكان مسجداً ٠

وروى أنه رأى شيخاً يهودياً يسأل الناس ، فسأله عمر : مـا الذى حملك على السؤال ؟ فأجاب الرجل : الحاجة والسـن ٠ فأخذ عمر بيـده وذهب به الى منزله حيث أعطـاه عطاء سخياً ، ثم أرسله الى خازن بيت المـال مع رسالة قال فيهـا : انظر هـذا وضرباءه فوالله مـا أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم خذلناه عند الهرم ، إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، وهـذا من مساكين أهل الكتاب ٠

ومرَّ وهو فى أرض الشـام بقوم مجذومين من النصـارى ، فأمر أن يُعْطَوْا من الصدقات ، وأن يجرى عليهم القوت بانتظام (١) ٠

وبلغ من حرصه على الرحمة بأهل الكتاب أن عزل واليـاً أحسَّ بأنه ضـاق ذرعاً ببعض أهل الكتاب فى ولايته ، فخاف عمر أن يجور عليهم ،

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٥ ٠

فقد روى أن نصـارى تغلب كانوا يناوئون واليهم الوليد بن عقبـة ، فنفد صـبر الوليد ممـا كانوا يعملون ، فقال شعراً يتوعدهم ويهددهم ، وسمع عمر بعض هذا الشعر ، فخشى أن يقسو الوليد عليهم ، وأن يبطش بهم ، فعزله عن ولايته ، وعيَّن أميراً غيره .

وكان أهل الكتاب يدفعون الجزية للمسلمين ، يدفعهـا منهم القـادر على حمل السلاح ، ولا تدفعها المرأة ولا الصبى ولا الشيخ ولا الأعمى ... والجزية مقدار ضئيل من المـال يتفاوت بتفاوت حاله الذمى المالية ، فهى على الأغنياء ٤٨ درهمـا فى العام (حوالى جنيهين) وعلى المتوسطين ٢٤ درهمـا وعلى العمال والصناع ١٢ درهماً .

وتدفع الجزية لسببين :

١ ـ ينتفع أهل الكتاب بالمرافق العـامة مع المسلمين ، كالقضاء والشرطة والطرق الممهدة والآبار وغيرهـا ، والمرافق العـامة تحتاج الى نفقات يدفع المسلمون قسطها الأكبر ، ويسهم أهل الكتاب بالجزية فى تكاليف هـذه المرافق .

٢ ـ لايكلَّف القادرون من أهل الكتاب أن يحملوا السلاح ويدافعوا عن البلاد بل يقـوم بذلك المسـلمون . ولذلك يدفع أهل الكتاب هـذه الضريبة نظير إعفائهم من هـذا الواجب الكبير ، ويسجل التاريخ أنّ بعض أهل الكتاب قاموا بنصيبهم فى الدفاع فى بعض الأحوال فسقطت عنهم الجزية وكان ذلك فى عهـد عمر أيضاً (١) .

ويروى البلاذرى (٢) أن المسلمين عندما دخلوا حمص أخذوا الجزية من أهل الكتاب الذين لم يريدوا أن يدخلوا الاسلام ، ثم عرف المسلمون

---

(١) هناك مسألة واضحة ولكن لا مانع من ذكرها دفعـا لاية شبهة عند بعض القراء ، وهى أنه بنـاء على الدراسة السابقة لا يلزم الاسلام اهـل الكتاب فى العصر الحاضر أن يدفعوا الجزية ، لانهم يدفعون الضرائب التى يدفعهـا المسلمون ويحملون السلاح فى الجيوش مع المسلمين .

(٢) فتوح البلدان ص ١٤٢ .

أن الروم أعدوا جيشـاً كبيراً لمهاجمة المسـلمين ؛ فأدرك المسلمون أنهم قد لا يقوون على الدفاع عن أهل حمص ، وقد يضطرون للانسـحاب ، فأعادوا الى أهـل حمص مـا أخذوه منهم ، وقالـوا لهم : شُغِلنا عن نُصْرَتِكم والدفع عنكم ، فأنتم على أمركم • فقـال أهل حمص : إن ولايتكم وعدلكم أحبُّ إلينـا ممـا كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعنَّ جند هرقل عن المدينـة مع عاملكم • ونهضـوا بذلك ، فسقطت الجزية عنهـم •

والذى نريد أن نسـجله هنا أنه مع بساطة هـذه الجزية ، ومع سياسة المعاملة الكريمة التى اتبعها عمر ورعاها ، دخل كثير من أهل الكتاب فى عهـده دين الاسلام أفواجاً ، لا هرباً من الجزية فإنهم فى الغالب سيدفعون الزكاة وهى أكثر قدراً من الجزية ، ولا تحاشـياً لسوء معاملة ، وإنمـا إعجاباً بعدل الاسلام وخُلُق خليفة المسلمين •

وسار المسلمون فى أكثر عصـورهم سيرة عمر بن الخطاب ، سـار عليها الخلفـاء الأمويون عند انتصـارات المسلمين فى الهنـد والأندلس ، وسـار عليها نور الدين زنكى فى انتصـاراته ضد الصليبيين ، وسـار عليهـا صلاح الدين الأيوبى والظـاهر بيبرس والأشرف خليل ، هؤلاء الأبطال الذين قضـوا على حكم الصليبيين فى فلسطين ولكن دون تنكيل ودون وحشـية ، ونختم هـذا البحث بنماذج من أقوال بعض الكتاب المسيحيين يعترفون فيهـا بما ناله المسيحيون فى ظل الاسلام من سـلام وعـون •

يقول عيشـو يابه أحد البطـاركة المسيحيين : إن العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كمـا تعرفون ، إنهم ليسـوا بأعداء للنصرانية ، بل يمتدحون ملتنا ، ويوقّرون قسيسينا ، ويمدون يد المعونة الى كنائسنا وأديرتنا(١) •

(١) Thomas of Marga : Books of Governers vol. 2 p 156.
نقلا عن « روح الاسلام » ص ٢٠١ •

ويقول آدم متز (١) إن مـا يميز المملكة الاسلامية عن أوربا النصرانية فى القرون الوسـطى أن الأولى يسكنهـا عدد كبير من معتنقى الأديان الأخرى غير الاسلام ، وليست كذلك الثانية ، وإن الكنائس والبِيَع ظلت فى المملكة الاسلامية كأنهـا خارجة عن سلطة الحكومة ، فكأنهـا لا تكوّن جزءاً من المملكة ، معتمدة فى ذلك على العهود ومـا أكسبتها من حقوق ، وقضت الضرورة أن يعيش اليهود والنصـارى بجانب المسلمين ، فتسبب عن ذلك خلق جو من التسامح لم تعرفه أوروبا فى القرون الوسطى .

---

(١) An Introduction to the Islamic Civilization, Translated by Khuda Bakhsh.

الدين المعاملة

اتجه كثير من المسلمين بالاسلام اتجاه عبادة ، وحسبوه صلاة وصوماً وتسبيحاً ، وتناسوا جانب المعاملة فيه ، ونحب أن نوضح أن الاسلام يهتم اهتماماً كبيراً بالمعاملة ، ومن القواعد التى وضعها الأصوليون أن حقوق الله مبنية على المسامحة وحقوق الناس مبنية على المشاححة ، فإذا قصّر مسلم فى حق من حقوق الله فإن التوبة تغفره وعفو الله قد يشمله ، ولكن إيذاء الناس لا يُغْفَرَ إلا إذا عفا الناس ، فردُّ الحقوق شرط أساسى لقبول التوبة ، وحُسْن المعاملة بكل ما تحتمله هذه الكلمة من معنى ، أصل من أصول الاسلام ، بل أصل مهم جداً ، فالاسلام ينظم علاقات الناس بالناس على أسس من الحب والعدالة مع اتباع النظم الاسلامية فى البيع والشراء والميراث والزواج والطلاق والهبة وغيرها ، ومع اتباع آداب الاسلام فى معاملة الناس ، والاخلاص للعمل ، والتضامن فى أداء الواجب ، والبعد عن إيذاء الناس ، كل هذا وما يماثله أجزاء مهمة من الدين الاسلامى ، ولا يكمل الدين بسواها .

وقد ورد أن رجلا قال للنبى : يا رسول الله ، إن فلانة تكثر الصلاة والصوم والصدقة ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها . فقال : هى فى النار .

ولست أنوى فى هذا البحث أن أكتب عن خُلق المسلم ، وأصوّر اهتمام القرآن الكريم والحديث الشريف بجانب المعاملة فى هذه الأخلاق ، فإنَّ هذا بحث طويل يجدر به أن يكون مستقلا ، وقد عنى به كثير من الباحثين القدامى والمحدثين (١) ، ولكننا هنا لا نجد بُدًّا من تخصيص فراغ محدود جداً نذكّر فيه المسلم بأخلاق الاسلام . تلك الأخلاق التى

---

(١) اقرأ الاحياء للامام الغزالى وخلق المسلم للاستاذ الشيخ محمد الغـزالى .

واقرأ كذلك « الاخلاق الاسلامية من القرآن الكريم » ج ٣٤ و ٣٥ من المكتبة الاسلامية للمؤلف .

يجمعها الحديث الشريف ، « الدين المعاملة » فالمعاملة ليست فقط جزءاً من الدين وإنمـا هى الدين كله كما وضحه هذا الحديث ، وفيمـا يلى صورة سريعة لأخلاق المسلم كمـا رسمتها مصـادر الشريعة موضحةً بهـا النهج الذى يجب على المسلم أن يتبعه فى سلوكه ومعاملته .

الرجل الكامل فى القرآن :

يقول المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل (١) : لقد طالما صور الكُتّاب فى مختلف العصـور والأمم صورة الرجل الكامل ، صوَّره الشـعراء والكتاب والفلاسفة والمسرحيون ، صوَّروا هـذه الصـورة فى العصور القديمة ، ولا يزالون يصوِّرونهـا حتى اليوم ، ومع ذلك لن تجد صورة لهـذا الرجل الكامل كهـذه الصورة الفذة التى وردت فى سياق سـورة الإسراء ، وهى ليست إلا بعض ما أوحى الله الى رسوله من الحكمة ، لا يَقْصِـد بها الى تصوير الرجل الكامل وإنمـا يقصد بهـا أن يذكِّر الناس ببعض مـا يجب عليهم ، يقول تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ، إمـا يبلغنَّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهمـا أفٍّ ولا تنهرهمـا وقل لهمـا قولا كريما ، واخفض لهمـا جناح الذل من الرحمة ، وقل : رب ارحمهما كما ربَّيانى صغيرا ، ربكم أعلم بمـا فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنَّه كان للأوَّابين غفـوراً ، وآت ذا القربى حقـه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفوراً ، وإمـا تُعْرِضَنَّ عنهم ابتغـاء رحمة من ربك ترجوهـا فقل لهم قولا ميسوراً ، ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسـط فتقعد ملوماً محسوراً ، إن ربك يبسط الرزق لمن يشـاء ويقدر إنه كان بعبـاده خبيراً بصـيراً ، ولا تقتلوا أولادكم خشـية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً ، ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشـة وساء سبيلا ، ولا تقتلوا النفس

(١) حياة محمد ص ٣٤ .

التى حرم الله إلا بالحق ، ومن قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ، وأوفوا الكيل إذا كلتم ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا ، ولا تقْفُ ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسئولا ، ولا تمش فى الارض مرحاً ، إنك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا ، كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها[1] » .

وهكذا تجد بهذه المجموعة من الآيات ألواناً من حسن المعاملة والإرشاد لتعاون كامل ، فهى تبدأ بالأمر بتوحيد الله ثم تربط به ضرورة الاحسان للأبوين ، وتعرج على ذوى القربى ، ثم المحتاجين عموماً ، وتنفر من الزنا ، وقتل النفس بغير حق ، وتوصى باليتيم وتخوّف من ماله ، وتحث على إيفاء الكيل والميزان ، وتصل القمة عندما تذكّر الانسان أنه سيُسأل عن سمعه وبصره وعقله ، فعليه ألا يسىء استعمال هذه المنح الإلهية ، ثم تذكّر الانسان بضعفه وقلة شأنه ، فينبغى له أن يدع الكبر وأن يتخلق بالتواضع .

ولا شك أن من اتبع هذه التعاليم كان جديراً أن يكون كاملا أو أقرب الى الكمال .

الاسلام والمساواة :

من الحق علينا أن نتخذ التؤدة دستورنا ونحن نتحدث عن موقف الاسلام من المساواة ، فقد وقف الاسلام نحوها موقفاً فريداً بين الاتجاهات القديمة والاتجاهات الحديثة ، فالهندوسية قسّمت أتباعها أقساماً متميزة ، وجعلت الحقوق تتفاوت بتفاوت هذه الأقسام ، وجاءت البوذية بالهند أيضا فألغت الطبقات ولكن بشرط الدخول فيها ، فلم

---

(١) سورة الاسراء الايات ٢٣ — ٣٨ .

تتخذ البوذية المساواة مبدأ لذات المساواة ، ولكنها جعلت كل البوذيين — لاكل البشر — متساوين (١) .

وفى بلاد فارس وُجِدَت نظرية « الحق الإلهى المقدس » التى تجعل الملوك آلهة أو ممثلين للآلهة وتقول بأن دماً إلهياً يجرى فى عروقهم دون سائر البشر (٢) .

وجاءت اليهودية ، فجعلت اليهود شعباً مختاراً يفوق كل الشعوب ، ثم راح اليهود داخل الشعب نفسه يكوّنون الطبقات ، فباركوا أبناء يعقوب ولعنوا أبناء أخيه الأكبر عيسُو ، وسار اليهود على مبدأ التفريق بين البشر الى أبعد الشوط ، فجعلوا الرحمة والعطف والإخاء والمودة وقفاً على فقراء اليهود ومحرمة على سواهم ، وحرموا الربا مع اليهود وأباحوه مع غيرهم ، وورد بالعهد القديم عن ذلك « للأجنبى تقرض بربا ، ولكن لأخيك لا تقرض بربا ، لكى يباركك الرب إلهك فى كل ما تمد إليه يدك(٣) » .

وجاءت المسيحية لترد اليهود عن جشعهم وتعلقهم بالمادة ، ولتحث على إطعام الفقير ورعاية البائس ، ولكن سرعان ما تحولت المسيحية بفعل رجال الكنيسة الى خَلْق الطبقات والتفريق بين شعب وشعب ، وكذلك الى عزل الكنيسة عن المجتمع وعزل الدين عن الحياة ، وطالما ناصرت الكنيسة الباطل ، ورعت الحكام الجائرين ، وأباحت لهم الشهوات واللذائذ ، وجعلتهم طبقة أرفع من طبقات البشر ، كما فعلت الكنيسة القيصرية (٤) .

---

(١) انظر كتاب « أديان الهند الكبرى » من سلسلة مقارنة الاديان للمؤلف .
(٢) انظر « المجتمع الاسلامى للمؤلف » وبمثل هذا قالت الهندوسية كما سيأتى عند الكلام عن « الاسلام والحرية » .
(٣) سفر الخروج الاصحاح الثانى والعشرون وانظر كتاب « اليهودية » للمؤلف .
(٤) انظر « الاديان » للاستاذ محمد فؤاد الهاشمى ص ١٢٧ .

ذلك هو الاتجـاه القديم ، فكيف اتجهت المدنية الحديثة حيـال المسـاواة ؟ .

إن الإجابة عن هـذا السؤال لا تحتاج الى كبير عنـاء ، فالتفرقة العنصرية وهى التى يعامل بها البيض سكان المستعمرات تدل دلالة واضحة على الطبقية المسعورة التى خلفتهـا هـذه المدنية الزائفة ، ومن ذلك مـا يعانيه الزنوج بأمريكـا من اضطهـاد وعسف ، وقد دفع كنيدى حياته ثمنـاً لموقفه العـادل من هؤلاء الزنوج ، فمـا إن نادى بالمساواة وعمل على أن يلزم بهـا المتعصبين حتى دبّرت جريمة اغتيـاله من الصهاينة ورعاة التفرقة العصرية البغيضـة .

فماذا كان موقف الاسلام من المساواة ؟

كان موقف الاسلام حاسماً حول هـذا الموضوع ، إنه موقف يحدده القرآن الكريم والسـنة وعمل الصحابة الأبرار ، قال تعـالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم (١) » ! فهـذه الآية تذكّر الناس بوحدة النشـأة ، وتقرر أن التفاضل لا يتّخذ أساسه أصول النـاس وألوانهم ، بل مـا يقدّمونه من عميق الإيمـان والعمل الصالح .

ومن السنة ينطلق قوله عليه السلام فى خطبة الوداع : أيها الناس ، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر فضـل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

وروى أن أبا ذر الغفارى كان يناقش عبداً فى حضرة الرسول ، فاحتد أبو ذر وصاح بالعبد : يا ابن السـوداء . فالتفت له المعلم العظيم وألقى

---

(١) سورة الحجرات الاية ١٣ .

فى وجهــه بتعبير يعتبر غاية فى الاستنكار ، هو : طفّ الصــاع ، طفّ الصـاع ، ليس لابن البيضـــاء على ابن السوداء فضل إلا بعمل صالح .
وقد أدرك أبو ذر من كلام الرسول مدى الخطأ الذى ارتكبه بتفكيره الطبقى فهوى من استعلائه فى لحظة قصــيرة ، ووضــع خده على الارض وقال للعبد : قم فطأ خدى .

والتشريع فى الاسلام عــامٌ أى أنه تشريع للنــاس جميعاً وإن اختلفت أجناسهم أو طبقاتهم ، وقد كانت القوانين قبل ذلك تختلف باختلاف الطبقات ، فقد روى أنه لمــا سرقت فاطمة بنت الأسود المخزومية ، جــاء أسامة بن زيد يشفع لهــا ، فأنكر الرسول على أسامة شفاعته لهــا ، وقال للناس حوله : إنمــا أهلك من كانوا قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدهــا .

ومن وصايا عمر بن الخطاب لولاته قوله :

— سوِّ بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف فى جنبك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك .

— اجعل الناس عندك سواء ، لاتبــال على مَنْ وجب الحق ، ثم لا تأخذك فى الله لومة لائم ، وإياك والأثرة والمحاباة فيمــا ولاك الله .

وهكذا قرر الاسلام المســاواة ولا يزال يوصى بهــا ، وإن شطت الاتجاهات القديمة ، أو ضعفت المدنية الحديثة عن التمســك بهــذا الخلق القــويم .

الاسلام والحرية :

إن موقف الأديان والمدنيات من الحرية ليس بعيداً عن موقفهــا من المســاواة ، فالطبقات فى الهندوسية نصت على أن « الملك إله فى صــورة إنســان فوق الارض وإن كان طفلا رضيعاً » وألزمت طبقــات الشعب

أن تقدم له أعمق الإجلال ، ولم تدع الحرية لأحد من هـذه الطبقات أن ينقده أو يعلق على تصرفاته ، وقد جاء فى شرائع « منو » مـا يلى : ويأمر الملك بصب زيت حار فى فم الشودرا وفى أذنيه إذا مـا بلغ من الوقاحة مـا يبدى به رأياً للبراهمة فى أمور وظائفهم (١) .

وحرّمت الديانة اليهودية على الشعب اليهودى مناقشة الأحبـار والكتبة والقديسين .

وفى المسيحية سرعان مـا استولت الكنيسـة على مقاليد السلطة ، واستغلت الشعب المسيحى أسوأ استغلال ممـا أدى الى وجود طوائف خارجة على الكنيسة ، ولمـا شعرت الكنيسة بوجود المفكرين الذين خرجوا عمـا رسمته من قواعد وأصول ، رأت فى ذلك مـا يهدد سلطانها ويضعف مركزهـا أمام تيـار الفكر الحديث والعلم الآخذ فى النمـاء ، فانطلقت تقـاوم وتجاهد تلك الأفكار وذلك العلم ، فحاولت تكميم الأفواه البريئة ، وتعطيل الأفكار الحرة التى تناقض نظرياتهـا ، ومن هنـا كان العداء الشنيع بين الكنيسة وحرية الفكر منـذ ذلك الحين ، وأصدرت قرارات بتحريم قراءة حوالى خمسـة آلاف كتاب من بينهـا كتب جان جـاك روسو وديكارت وفيكتور هوجو وغيرهـم (٢) وعندما ظهر القول بكروية الأرض — ذلك الأمر الذى عرفـه المسلمون وصـار رأياً لهم منـذ أول خلافة بنى العباس — أحدث اضطراباً شديداً فى عـالم النصرانية ، وهددت الكنيسة من يقـول به (٣) .

هـذا عن حرية الرأى والبحث ، أمـا حرية التدين فقد ألغتـه الكنيسة واتخذت قرارات غاية فى القسوة سواء فى ذلك ضـد اليهود أو ضـد البروتستانت أو ضد المسلمين ، ففى ٣٠ مارس سنة ١٤٩٢ أصدرت الكنيسة بأسبانيا قراراً بأن كل يهودى لم يقبل المعمودية فى أى سن كان

---

(١) اديان الهند الكبرى للمؤلف ص ٥٩ .

(٢) محمد فؤاد : الاديان ص ١٥٨ وعن الكتب التى حرمتها الكنيسة اقرأ كتاب « المسيحية » للدكتور احمد شلبى ص ٨٩ من الطبعة الثامنة بالهامش .

(٣) الامام محمد عبده : الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ٤٢ .

وعلى أى حال يجب أن يترك أسبانيا قبل يوليو ، ومن رجع منهم الى هــذه البلاد عوقب بالقتل ، وفى فبراير ســنه ١٥٠٢ نَشَــر الامر بطرد أعداء الله المغــاربة (المسلمين) إذا لم يقبلوا التعميد ، وشُــرط على من يترك منهم أسبانيا الا يذهب فى طريق يؤدى الى بلاد إسلامية ، وقد سبقت الإشــارة الى ذلك •

وقد أصــدر البابا منشــوراً سنة ١٧٦٤ جاء فيه لعن كل من يقول بجواز أن يفسر أحد شيئا من الكتب المقدســة على خلاف ما ترى الكنيسة ، أو يرى بأن الشخص حر فيمــا يعتقد ويدين به لربه ، وأصــدر منشوراً سنة ١٨٦٨ ينص على أن المؤمنين (المسيحيين) يجب عليهم أن يَفْدُوا الكنيســة بأرواحهم وأموالهــم ، وعليهم أن ينزلوا لهــا عن آرائهــم وأفكارهم (١) ، ولمــا ظهرت طائفة البروتستانت جعلت الكنيسةُ الكاثوليكية عقوبة الاعدام قانونا يُحكَم به على كل من يخالف مُعتَقَد الطــائفة ، ومنْ أهم المذابح التى وقعت للبروتستانت مذبحة باريس ســنة ١٥٧٢ التى سطا فيهــا الكاثوليك على ضيوفهم البروتستانت وقتلوهم خيــانة وهم نيــام (٢) •

ولم يعرف العالم القديم حرية التملك ، فقد كان النظام الاقطاعى منتشراً ، وكانت الارض ملكاً للحاكم ولقلةٍ من أعوانه ، أمــا الشــعب فكان رقيقاً تابعــاً للأرض ، لا حق له ولا حرية •

ذلك هو موقف الأديان والثقافات من الحرية قبل الاسلام • فمــاذا كان موقف الاسلام ؟ •

فى الإجابة عن هذا السؤال نلجأ الى اقتباسات من القرآن الكريم توضح بمــا لا يدع مجالا للشك تقدير الاسلام للحرية فى كل مجالاتها •

---

(١) الامام محمد عبده : الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ١٤ .
(٢) انظر «المسيحية» للمؤلف ص ٨٦ من الطبعة الثامنة .

فعن حرية الفكر نجـد الاسلام يحث النـاس على التفكير ، والعلم ، والتدبر ، والعمق ، قال تعـالى :

— أفلم يسـيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بهـا ، أو آذن يسمعون بهـا ، فإنها لا تعمى الأبصـار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصـدور (١) .

— هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنمـا يتذكر أولو الألبـاب (٢) .

— يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات (٣) .

— شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط(٤) .

وقال صلى الله عليه وسلم : الدين هو العقل ، ولا دين لمن لا عقل له . وقال : فقيه واحد أفضل عند الله من ألف عابد .

وعن حرية التدين يقول الله تعالى :

— لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى (٥) .

— لـكم دينكم ولى دين (٦) .

— ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسـنة (٧) .

— فذكر إنمـا مذكر ، لست عليهم بمسيطر (٨) .

---

(١) سورة الحج الاية ٤٦ .
(٢) سورة الزمر الاية التاسعة .
(٣) سورة المجادلة الاية ١١ .
(٤) سورة آل عمران الاية ١٨ .
(٥) سورة البقرة الابد ٢٥٦ .
(٦) سورة الكافرون الاية السادسة .
(٧) سورة النحل الاية ١٢٥ .
(٨) سورة الغاشية الايتان ٢١ — ٢٢ .

ــ قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننــا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله (١) •

ــ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن (٢) •

وعن الحرية السياسية جعل الاسلام للمسلم حق اختيار الحاكم ، ومناقشته ، والاعتراض على مــا لا يتقبّل من تصرفاته ، وحق عزله ، وحفل التاريخ الاسلامى بنمــاذج من الاعتراض على الحاكم تعد غاية فى الرقى والتطــور ، ففى غزوة بدر نزل الرســول بجنــوده منزلا ، فسأله الحبــاب بن المنذر : هل أنزلك الله هــذا المنزل أو هو اجتهــاد من عندك ؟ فأجاب الرسول : إنه اجتهاد من عندى • فقــال الحباب : أمــا إذ كان الأمر كذلك فليس هــذا بمنزل ، وأشار بمكان آخر فارتضاه الرسول وارتضاه المسلمون •

وفى غزوة الأحزاب اتفق الرسول مع أهل الطائف على أن ينفضّوا ويفكوا حصــار المدينة ، وكتب معهم وثيقة بثلث ثمــار المدينــة نظير ذلك ، فسأله قادة الأنصار : هل هذا الرأى من عندك أو هو وحى من الله ؟ فأجاب بأن هــذا الأمر من اقتراحه هو رجاء أن تنفض الغمة ، وحينئذ تنــاول سعد بن معاذ هذه الوثيقة ومزقها ووافقه المسلمون على ذلك(٣) •

وخطب عمر بن الخطاب مرة يندب الناس للجهاد ، فوقف رجل وقال : لاسمعاً ولا طاعة • فسأله عمر : لماذا ؟ فأجاب : لقد قسمت علينا أقمشة من بيت المــال وكان نصيب الواحد لا يكفى ثوباً ، وأراه عليك الآن ثوباً كاملا وأنت رجل طويل • قال عمر لابنه عبد الله : أجبه يا عبد الله • قال

---

(١) سورة آل عمران الاية ٦٤ •

(٢) سورة العنكبوت الاية ٤٦ •

(٣) الاستاذ الاكبر الشيخ محمود شلتوت : من توجيهات الاســلام ص ٥٣٠ •

عبد الله : لقد أعطيت أبى من نصيبى مـا يكمل به ثوبه • قال الرجل : أمـا الآن فالسمع والطـاعة •

واحترم الاسلام حرية الملك وحرسها ووضع الأسس لنقلهـا من المالك الى ورثتـه •

* * *

تعال بنـا بعد هذا نجل جولة سريعة مع الفكر الاسلامى لنقتبس من آيات القرآن الكريم ومن أحاديث الرسول مـا يكْمِل لنـا بإيجاز رسم صورة الرجل المسـلم :

المسلم لا يسخر من الناس :

يأيهـا الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساءٌ من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابذوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعـد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظـالمون (١) •

المسلم لا يأخذ بالظن ولا يتجسس :

يأيهـا الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضـاً ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتـاً فكرهتموه (٢) •

الاسلام يدعو للاتحاد :

— واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا (٣) •

---

(١) سورة الحجرات الاية ١١ .
(٢) سورة الحجرات الاية ١٢ .
(٣) سورة آل عمران الاية ١٠٢ .

— ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم (١) •

الاسلام بدعوة لأداء الأمانة والوفاء بالعهد :

— إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها (٢) •

— والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون (٣) •

— وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : كنـا جلوساً عند الرسول فأقبل علينا رجل من أهل العالية فقال : أخبرنى يا محمد عن أشد شىء فى هـذا الدين وألينه • فقال له الرسول : يا أخا العالية ، ألين شىء فى هـذا الدين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأشده يا أخا العالية الأمانة ، ألا إنه لا دين لمن لا أمانة له وإن صام وصلى •

الاسلام يحذر من الغش ومن تطفيف الكيل :

— وأوفوا الكيل إذ كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم (٤) •

— ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون (٥) •

الاسلام ينهى عن الحسد :

— ولا تتمنوا مـا فضّل الله به بعضكم على بعض (٦) •

— أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله (٧) •

---

(١) سورة الانفال الاية ٤٦ .
(٢) سورة النساء الاية ٥٨ .
(٣) سورة المؤمنون الاية ٨ .
(٤) سورة الاسراء الاية ٣٥ .
(٥) سورة المطففون الاية ١ — ٣ .
(٦) سورة النساء الاية ٣٢ .
(٧) سورة النساء الاية ٥٤ .

ــ قل أعوذ برب الفلق ، من شر مــا خلق ، ومن شر غاســق إذا وقب ، ومن شر النفاثات فى العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد (١) •

الاسلام ينفر من القسوة على اليتيم ومن أكل ماله :

ــ فأما اليتيم فلا تقهر (٢) •

ــ أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يَدُعُّ اليتيم (٣) •

ــ وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم ، إنه كان حوباً كبيراً (٤) •

الاسلام يأمر بالعدل وينفر من الظلم :

إن الله يأمر بالعدل والاحســان وإيتــاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى (٥) •

ــ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى (٦) •

ــ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى (٧) •

الاسلام ينفر من الرشوة :

ــ ــ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بهــا الى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم (٨) •

وقال صلوات الله عليه : الراشى والمرتشى فى النار •

وقال : ما فشت الرشوة فى قوم إلا أُخِذُوا بالرعب •

---

(١) سورة الفلق كلها .
(٢) سورة الضحى الاية ٩ .
(٣) سورة الماعون .
(٤) سورة النساء الاية الثانية .
(٥) سورة النحل الاية ٩٠ .
(٦) سورة الانعام الاية ١٥٢ .
(٧) سورة المائدة الاية ٨ .
(٨) سورة البقرة الاية ١٨٨ .

الاسلام ينفر من شهادة الزور :

ــ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور (١) •

ــ والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مرّوا كراماً (٢) •

الاسلام يوصى بالجــار :

ــ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، و بالوالدين إحساناً ، وبذى القربى ، واليتــامى ، والمساكين ، والجار ذى القربى ــ والجار الجنب(٣)•

ــ عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مازال جبريل يوصينى بالجــار حتى ظننت أنه سيورّثه •

الاسلام يدعو للتعاون والايثار :

ــ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم العدوان(٤) •

ــ لن تنالوا البر حتى تنفقوا ممــا تحبون (٥) •

ــ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شــح نفسه فأولئك هم المفلحون (٦) •

ــ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، والذين هم يراءون ويمنعون المــاعون (٧) •

الاسلام يوصى بالحط عن المدين وعدم تعجله :

وإن كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة (٨) •

---

(١) سورة الحج الاية ٣٠ .
(٢) سورة الفرقان الاية ٧٣ .
(٣) سورة النسـاء الاية ٣٦ .
(٤) سورة المائدة الاية ٣ .
(٥) سورة آل عمران الاية ٩٢ .
(٦) سورة الحشر الاية ٩ .
(٧) سورة الماعون الايات ٤ ــ ٧ .
(٨) سورة البقرة الاية ٢٨٠ .

ــ رحم الله رجلا سمحاً إذا باع ، وإذا اشترى ، وإذا اقتضى .

ــ من سرّه أن ينجيه الله من كرَبِ يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضــع عنه .

* * *

تلك نماذج من المعاملة التى رسمها الاسلام لأتباعه ومعتنقيه ، وقد دلتْنَــا هذه النصوص على أن ســوء معاملة الناس دليل على عدم الانتفاع بتوجيهات الاسلام ، ومن ادّعى الاســلام وبُعد عن أخلاقه وتوجيهاته ، كان كشجرة لاثمر لها ، ولنستَعِدْ قول الرسول عن المرأة التى تكثر الصــوم والصلاة ولكنهــا تؤذى جيرانها بلسانها حيث قال : هى فى النار . وقوله : لا دين لمن لا أمانة له . فإذا أردت أن تكون مسلماً فلتتبعْ حديث الرسول الذى جعلناه عنواناً لهذا البحث وهو « الدين المعاملة »(١) .

---

(١) اقرأ ج ٣٤ و ٣٥ من « المكتبة الاسلامية » للمؤلف وموضوعهمــا « الأخــلاق الاسلامية من القرآن الكريم » .

انتشـار الإسـلام(*)

بين الدعوة والقوة

يعتقد بعض المستشرقين وبعض من لم تتح لهم الفرصة للتعمق فى الدراسات الاسلامية ، أن القوة كانت عاملا مهمـاً فى انتشـار الاسلام ، ويتخذون من الحروب التى حدثت فى حيـاة الرسول وبعد وفاته دليـلا على ذلك ، ورداً لهـذا الادعاء نأخذ فى شرح هـذا الموضوع ، ونبـدأ بأن نسـأل سؤالين هامين :

١ ـ هل انتشر الاسلام بالدعوة أو بالقوة ؟ وما الدليل على ذلك ؟

٢ ـ وإذا كان قد انتشر بالدعوة فلماذا وقعت الحروب بين المسلمين وغيرهـم ؟

وللإجابة عن السؤال الأول نقول فى قوة وإصرار إن الاسلام لم ينتشر بالسيف وإنمـا انتشر بالدعوة ، ونضع البراهين الواحد بعد الآخر فى سلسلة من آيات القرآن ، ثم فى سلسلة من أحداث التاريخ بحيث لا يبقى للشـك مجـال :

فأما القرآن الكريم وهو دستور المسلمين الواجب الاتباع ، فقد وضّح فى عدة آيات أن الدعوة هى الطريق الى الاسلام ، وأنه لا يجـوز اجبـار أحد على تغيير دينه ، قال تعالى :

ـ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى (١) .

(*) انظر مـا كتبناه عن هـذا الموضوع فى الجزء الاول من « موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية » .

(١) سورة البقرة الاية ٢٥٦ . وقد أوردنا هـذه الايات الكريمـة فى الصفحات الماضية للتدليل على حرية العقيدة عند المسلمين .

ــ ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة (١) •

ــ لكم دينكم ولى دين (٢) •

ــ فإنمــا عليك البلاغ وعلينــا الحساب (٣) •

ــ فذكِّرْ إنمــا أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر (٤) •

وأمــا سلسلة التاريخ فترِينا بوضــوح أن الاسلام سلك طريقَهُ بالدعوة ، متبعــاً هذه الآيات البينات ، ومُبْتعِداً كل البعد عن القسوة • والى القــارىء بيــان ذلك :

ــ حينمــا كان الرسول فى مكة ، وحينمــا بدأ دعوته وحيداً لاسلاح معه ولا مال ، دخلها مجموعة من عظماء الرجال من أمثــال أبى بكر وعثمان وســعد بن أبى وقاص وطلحــة والزبير ثم عمر بن الخطــاب وحمزة ابن عبد المطلب • فهل يمكن أن نقول إن هؤلاء دخلوا بالقوة ؟

وأين القوة فى ذلك الوقت ؟

٢ ــ واضطهدت قريش المسلمين اضطهاداً قاســياً ، وأنزلت بمحمد وأتباعه ألواناً من العذاب ، وفى وسط هــذا العنــاء حينمــا كان محمد والمسلمون معه بمكة مغلوبين على أمرهم مستضعفين ، كان أهل المدينــة يســعون للإسلام فيعتنقونه ويدعون له ذويهم وأهليهم ، فهل يمكن أن نقول أن الإسلام انتشر بالقوة بين سكان المدينة ؟

٣ ــ جاء الصليبيون الى الشرق إبّان ضعف الخلافة العبــاسية والخلافةِ الفاطمية لمحاولة القضــاء على الاسلام ، وإذا بالاسلام يجذب جموعاً منهم فيدخلون ويحاربون فى صفوف المســلمين • ويقول أرنولد :

(١) سورة النحل الاية ١١٥ .
(٢) سورة الكافرون الاية السادسة .
(٣) سورة الرعد الاية ٤٢ .
(٤) سورة الغاشية الايتان ٢١١ ــ ٢٢ .

لقد اجتذبت الدعوة المحمدية الى أحضانها من الصليبيين عدداً مذكورا حتى فى العهد الأول أى فى القرن الثانى عشر ، ولم يقتصر ذلك على عامة النصارى بل إن بعض أمرائهم وقادتهم انضموا أيضاً الى المسلمين فى ساعات انتصارات المسيحيين .

ويروى توماس أرنولد عن بعض مؤرخى النصارى قوله : إن ستة من أمراء مملكة القدس استولى عليهم الشيطان ليلة معركة حطين ، فأسلموا وانضموا الى صفوف الأعداء دون أن يُقهروا من أحد على ذلك ، ويعلل توماس أرنولد لانتشار الاسلام بين الصليبيين بقوله : ويظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته التى انطوت على البطولة ، قد أحدثت فى أذهان المسيحيين فى عصره تأثيراً سحرياً خاصاً ، حتى أن نفراً من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أن هجروا ديانتهم المسيحية وهجروا قومهم ، وانضموا الى المسلمين ، كذلك كانت الحال عندما طرح النصرانية ، مثلا ، فارس" انجليزى من فرسان المعبد ، يدعى روبرت أوف سانت أليانس سنة ١١٨٥م واعتنق الاسلام ثم تزوج بإحدى حفيدات صلاح الدين (١) .

فهل يمكن أن نقول إن الاسلام انتشر بين الصليبيين بالقوة ؟

٤ ــ فى القرن التاسع الهجرى هجم المغول على العالم الاسلامى ، وكان هجومهم وحشياً قاسياً مدمراً ، سفكو الدماء فسالت أنهاراً ، وحطموا الحضارة الاسلامية ، وهدموا القصور والمساجد ، وأحرقوا الكتب ، وقتلوا العلماء ، وامتدت أيديهم الى الخليفة فقتلوه وقتلوا معه أهله . وأزالوا الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ ، وأصبحت للمغول اليد العليا ، وهوت أمامهم كل قوى المسلمين فى عاصمة الخلافة وما حولها ، ولكن سرعان ما جذب الاسلام إليه هؤلاء الفاتحين الغزاة ، وسرعان

---

(١) اقرأ ما كتبه توماس أرنولد عن « حالات التحول الى الاسلام بين الصليبيين » فى كتابه : الدعوة الى الاسلام ص ١٠٧ وما بعدها .

مـــا دخله المغول الذين هاجموه وعملوا على تقويضـــه • فهل يمكن أن نقول إن الاسلام انتشر بين المغول بالقوة ؟

يقول ســير توماس أرنولد فى ذلك : لا يعرف الإسلام من بين مـــا نزل به من خطوب وويلات خطبـــاً أعنف قسوة من غزوات المغول ، فلقد انسابت جيوش جنكيزخان ، واكتسحت فى طريقهـــا العواصم الاسلامية وقضت على مـــا كان بهـــا من مدنية وحضـــارة • • • على أن الاسلام لم يلبث أن نهض من رقدته وظهر من بين الأطلال ، واستطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين البرابرة ويحملهم على اعتناقه (١) •

٥ — وهل كانت غزوات الرسول ذات بال من النـــاحية الحربية ؟

إن التاريخ يحدثنا أن كثيراً من غزوات الرسول انتصر فيها أعداء المسلمين ، ولكن الاسلام كان ينشر فى حالتى انتصار المسلمين وانهزامهم(٢) •

٦ — يحدثنـــا التاريخ بصراحة ووضوح أن أهم فترة انتشر فيها الاسلام هى فترة السلم الذى تلا صلح الحديبية بين قريش والمسلمين ، وكانت فترة السلم سنتين ، ويقول المؤرخون إن من دخل الاسلام فى خلال هاتين السنتين أكثر ممن دخلوه فى المدة التى تقرب من عشرين عاماً منذ بدء الاسلام حتى ذلك الصـــلح • وهـــذا يدلنـــا على أن انتشار الاسلام تبع السلام ولم يتبع الحرب •

٧ — وهناك فكرة مهمة يجدر بنـــا أن نوضحها تماماً ، ويجـــدر بالقارىء أن يتفهمها ، تلك الفكرة هى أنه لا علاقة بين انتشار الاســـلام وبين حروب المسلمين مع الفرس والروم وغيرهم فقـــد كانت الحروب تشتعل ، وكان المسلمون ينتصرون ، ثم تتوقف الحروب وتتوارى السيوف ، وحينئذ يتقدم الدعاة والمعلمون فيشرحون نظم الاسلام ومبادئه وفلسفاته ،

---

(١) الدعوة الى الاسلام ص ١٤٨ و ١٥٠ •

(٢) اقرأ المجتمع الاسلامى للمؤلف ص ١٢٨ — ١٣٣ •

وكانت هــذه الدعوة السمحة تجذب لهــا الناس وبخاصة عندمــا رأت الشعوبُ المغلوبة الفرقَ الكبير بين حكم قيصر وطغيانه ، وبين بساطة عمر بن الخطاب وسماحته وتواضعه ، وبالدعوة دخل النــاس أفواجاً فى الدين الجديد ، فمنهم من أسرع فى الدخول ومنهم من دخل بعد عــام ، أو خمســة أعوام ، أو مائة • • •

ويقول Kirk (١) إن غالبية أهل الشــام ومصر السفلى فى القرن التاسع الميلادى كانت لا تزال مسيحية على الرغم من أن الاسلام كان قد مضى عليه فى هــذه البقاع أكثر من قرنين •

ومن هؤلاء المسيحيين مَنْ لم يدخل الاسلام حتى الآن ، وتستطيع أن ترى اليوم الآلاف أو الملايين من المسيحين فى مصر والجمهورية العراقية وغيرهمــا من البلاد الاسلامية •

مرة أخرى لا علاقة بين انتشــار الاسلام وبين الحروب •

ومثل هــذا مــا ذكره Fage and Roland Oliver من أن الاسلام **لم يتخذ طريقه وراء الصحراء بإفريقية إلا بعد انحلال دولته الكبرى فى المغرب ، وكانت وسيلة الاسلام لهــذه البقاع هى الثقافة والفكر والدعوة ،** فانتشر الاسلام بين شعوب البربر وبين الزنوج ، وقامت خلف الصحراء دول إسلامية لعبت فى التاريخ دوراً كبيراً(٢) •

٨ — وانتشر الاسلام انتشار واســعاً فى الشرق الأقصى (ماليزيا وإندونيسيا وما حولهما) وانتشر كذلك فى إفريقية كما أشرنا آنفا ، فأين القوة التى نشرته فى هذه البلاد الفسيحة وجذبت له قلوب الملايين ؟ •

---

(١) A short History of the Middle East p. 36.

(٢) A short History of Africa p. 77. وانظر الجزء السادس من موسوعة التاريخ الاسلامى » للمؤلف •

وكاتب هذه السطور عاش فى إندونيسيا عدة سنين ، ورأى الاسلام بنفسه وهو ينتشر بين الإندونيسيين بيسر وبساطة ، رآه وهو يهزم الديانات الأخرى والأفكار المتعددة ويتقدم الى الطليعة لا تدفعه إلا مبادئه السمحة وتعاليمه المعقولة الهادئة البسيطة ، وقد رأيت فى إندونيسيا صراعاً بين الأديان والأفكار ، كل منها يريد أن يكون أسرع وصولا الى قلوب الإندونيسيين ، ولكلٍّ منها وسائل وطرق تعمل على تحقيق هذه الغاية . كانت المسيحية يساعدها أو قل يفرضها بطش المستعمر وماله ورجاله ، والكونفوشية يساعدها ملايين الصينيين الذين يقيمون فى إندونيسيا . وتدفعها الثروات الضخمة التى يملكها هؤلاء الصينيون ، والهندوكية والبوذية تساعدهما صلات الهند بإندونيسيا ، تلك الصلات الثقافية والحضارية التى تضرب فى أعماق التاريخ ، ورأيت الاسلام تدفعه مبادئه ويرعاه الله ، يعلمه عرب هاجروا من البلاد العربية بثقافة محدودة وبدون مال ولا سلطان ، أو يعلمه إندونيسيون ينطبق عليهم وصف العرب فى فقرهم وقلة سلطانهم ، فماذا كانت نتيجة هذا الصراع ؟

أما الكنفوشية فقد خرجت صفر اليدين ، ولم تجذب إليها فرداً واحداً تقريباً من أبناء إندونيسيا . وقنعت الهندوكية والبوذية بنصيب ضئيل حصلت عليه غالباً قبل زحف الاسلام . وجذبت مدارسُ المسيحيين ومستشفياتهم ووظائفهم عدداً قليلا لا يتجاوز المليونين ، وأغلبهم سقطوا فى المسيحية مخدوعين ، فالطفل يدخل مدرسة مسيحية ويتلقى تعاليم هذه الديانة ثم يخرج مسيحياً ولا يعرف غير المسيحية ، والمريض يشترك فى الصلوات والأدعية التى تقام فى المستشفيات وليس له إلا الاشتراك أو الطرد من المستشفى ، وهكذا دواليك . أما الاسلام فقد اكتسح وتسرب فى النور وبالدعوة السلمية الى أكثر من تسعين فى المائة من سكان إندونيسيا الذين يزيدون عن المائة مليون .

أما انتشار الاسلام فى إفريقية فندع الحديث عنه الى شاهد عيان

آخر ذلك هو الكاتب المسيحى الفرنسى هوبير ديشـان حاكم المستعمرات الفرنسية بإفريقية حتى سنة ١٩٥٠ وهو يقول (١) :

إن انتشـار دعوة الاسلام فى أغلب الظروف لم تقم على القسر ، وإنمـا قامت على الاقنـاع الذى كان يقوم به دعاة متفرقون لا يملكون حولا ولا طولا إلا إيمانهم العميق بربهم ، وكثيراً مـا انتشر الاسـلام بالتسرب السلمى البطىء من قوم الى قوم ، فكـان إذا مـا اعتنقتـه الارستقراطية وهى هدف الدعاة الأوّل تبعتهـا بقية القبيلة ، وقد يسّر انتشـار الاسلام أمرٌ آخر هو أنه دين فطرة بطبيعته ، سـهل التناول ، لا لبس ولا تعقيد فى مبادئه ، سهل التكييف والتطبيق فى مختلف الظروف ، ووسائلُ الانتساب إليـه أيسر وأيسر ، إذ لا يُطْلَبُ من الشخص لإعلان إسلامه سوى النطق بالشهادتين فيصـبح بذلك فى عداد المسـلمين ، وقد حببَ الاسلامَ إليهم مظاهره الخلاّبة كالثوب الفضفاض والمسـبحة والكتابة العربية والوقار الدينى وشعائر الصلاة ، ممـا يضفى على المسلم مكانة مرموقة وجاذبية ساحرة ، فالذى يدخل الاسـلام ولو فى الظاهر ، يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة ، وأنه ازداد من القوة والحيوية .

وتقول الباحثة الألمانية الدكتورة Ilse Lictens Eadter إن التخيير ببلاد الفرس والروم لم يكن بين الاسلام والسيف ، وإنمـا بين الاسلام والجزية ، وهى الخطة التى استحقت الثنـاء لاستنارتها حين اتُّبِعت بعد ذلك فى انجلترا إبان حكم الملكة الياصابات (٢) .

ونجىء بعد ذلك الى السـؤال الثانى : لـماذا حدثت الحروب بين المسلمين وغيرهم ؟

والإجابة عن هـذا السؤال سهلة يسـيرة أشرنا الى بعضها فيمـا سبق وسنذكر فيما يلى موجزاً شاملا لها .

---

(١) الديانات فى افريقيا السوداء (الترجمة العربية) .

(٢) Islam and the Modern Age. p. 57.

١ — الدفاع عن النفس :

يقرر التاريخ أن المسلمين قبل الهجرة لم يؤذن لهم بقتال ، وقد ضُرِبَ عمار وبلال وياسر وضُرِبَ محمد وأبو بكر ، ومات ياسر تحت العذاب ، ولم يَرْفع هؤلاء أيديهم لرد الاعتداء الذى وقع عليهم • ولكن المشركين أسرفوا فى عدوانهم ، ووصلوا الى حد اتخاذ قرار بقتل محمد • ووضعوا خطتهم على أن ينفذوا قرارهم قبل أن يهاجر محمد الى المدينة ولما فشلوا فى ذلك قرروا مهاجمة يثرب حتى تتخلص الجزيرة العربية من الاسلام والمسلمين • فكان من الضرورى أن يدافع المسلمون عن أنفسهم ، وقد أَذِنَ الله لهم بالدفاع بقوله : « أُذِنَ للذين يقاتَلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » والذى يمعن النظر فى الآية يرى أن الاسلام لا يحب القتال ، فالفعل (أُذِنَ) مبنى للمجهول ، وفاعله عند ما كان مبنيًا للمعلوم هو الله سبحانه وتعالى ، وقد بُنِىَ الفعل للمجهول لأن الله لم يرد — فيما أفهم — أن يُذْكَر اسمه الكريم متصلا بالإذن بالقتال • ثم إن نائب الفاعل محذوف تقديره : (القتال) أى أذن لهم القتال ، ولم يذكر نائب الفاعل أيضاً لأنه كلمة (القتال) ، وبدلَ نائب الفاعل ذُكرَ سبب الإذن وهو (بأنهم ظلموا) وقد دعا هذا بعض المسلمين أن يقولوا عندما نزلت هذه الآية : إنها لا تكفى لنقاتل المشركين ، لأن روحها تميل الى السلم ولو أن ألفاظها تأذن بالقتال • ولم يبدأ القتال الحقيقى بين المسلمين وغيرهم إلا بعد أن نزلت آية أخرى هى : وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين (٢) » ومع أن الإذن هنا صريح إلا أنه مشروط بحالة الدفاع ، وعدم الاعتداء ، فالاعتداء يسبب سخط الله •

وهكذا كان السبب الرئيسى للقتال هو الدفاع عن النفس والعرض والمال وهنا يبدو موضوع مهم يتصل بالحبشة ، تلك البلاد التى

---

(١) سورة الحج الايتان ٣٩ — ٤٠ .
(٢) سورة البقرة الاية ١٩٠ .

ليست بعيــدة عن الجزيرة العربيــة والتى للمسلمين بهــا عهد" منــنذ مطلع الاسلام ، حتى أنهم هاجروا إليهــا قبل هجرتهم للمدينة • والسؤال المهم هو أن المسلمين لم يهاجموا الحبشة ، وذلك لأن الحبشــة لم تمسهم بســوء ، ولو كان المقصود نشر الاسلام بالقوة لهاجموها ؛ فهى أقل قوة من الفرس والروم • قد يقال إن البحر يحميها من المسلمين ، والجواب سهل ، فقــد ملك المسلمون بحريةً قوية هاجموا بهــا القسطنطينية وسيطروا بواسطاتها على أهم جزر البحر الأبيض المتوسط ، ولكنهم لم يتجهــوا للحبشــة ، فمــا كانت أعمال المسلمين الحربية إلا دفاعاً ورداً لاعتداء •

٢ ــ تأمين الدعوة وإتاحة الفرصة للضعفاء الذين يريدون اعتناقها •

كانت الدعوة الاسلامية مهدّدة ، وكانت قريش تسلك كل الســبل للقضــاء عيهــا ، ثم كان هناك كثير من اعرب يميلون للاسلام ويريدون الدخول فيه ، ولكنهم كانوا يخافون أن ينزل بهم مــا نزل بمن سبقوهم الى الاسلام من عذاب وإيذاء ، فأذن الله لرسوله وللمؤمنين أن يقاتلوا مَنْ قاتلهم ، وأن يردوا بقوة السيف الاعتداء الذى قد ينزل بأحد منهم ، قال تعــالى : « ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنســاء » (١) فالحرب هنــا كانت لضــمان حرية التدين للمسلمين ، كما ضمنهــا الاسلام لسواهم ، **وكان نداء الاسلام بحرية الدين أول نداء من هذا النوع عرفه التــاريخ •**

٣ ــ المحافظة على الأمة الاسلامية من أن تدكّهــا جيوش الفرس والروم :

قبل الاسلام لم تكن هناك أمة عربية ، وإنمــا كانت هناك قبائل عربية متحاربة متنافرة ، ولذلك لم يكن الفرس والروم يقيمون حساباً للعرب ، إذ كان العرب داخل جزيرتهم يصطرعون صراعــا يكاد يكون متصــلا ،

---

(١) سورة النساء الاية : ٧٥ .

ولهـذا غض الفرس والروم بصرهم عن الجزيرة العربية لأنهـا لم تكوّن وحدة يمكن أن تصبح خطرا على الدولتين المجاورتين فى الشمال .

فلمـا جاء الاسلام آمن به بعض العرب وكفر به آخرون ، وقـام نزاع عنيف فى الجزيرة العربيـة بين المسلمين وغير المسـلمين (قريش واليهود) ، وفى هـذه المرحلة لم يهتم الفرس والروم أيضاً بهـذا الدين الجديد ، وقالوا إنهـا حركة قام بهـا عربى وسيقتلها العرب واليهود ، وظنوا إنهـا نوع من الصراع الداخلى لا يلبث أن يموت .

ولكن سَرعان مـا بدأ الاسـلام ينتصر على أعدائه وينتشر بين العرب ، وسرعان مـا تكوّنت فى الجزيرة العربية دولة قوية متحـدة ، وبالإضـافة الى قوتها واتحادها كانت لهـا مبادىء الدين الجديد ، الذى اجتمع العرب حوله ، والذى استلزم الدعوةَ له ، وقد فوجىء كسرى وقيصر بحقيقة خطيرة هى أن الرسول أرسل لهما يدعوهما للإسلام فى العام السابع للهجرة ، ويدعو قومهمـا كذلك ، واعتقد السيدان أن محمداً لم يقنع بتأسيس دولة عربية ، وإنما أخذ يطمع فى مدّ سلطانه الى أرضهما .

كل هـذا أدخل الذعر والخوف فى نفوس الفرس والروم ، فقـد أصبحت الجزيرة العربية منافساً خطيراً ، قوياً متحداً ، وأصبحت دولة لهـا دين ولهـا مبادىء ، تعمل على نشر هـذا الدين وإذاعة أفكـاره واكتساب الأنصـار إليه ، ومن أجل هـذا دخل الفرس والروم المعركة ، وقررتا ضرورة القضـاء على الدولة الاسلامية الجـديدة والقضاء على الوحدة التى تكونت عند العرب ، وقد بدأ ذلك فى حيـاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقـد وقعت فى عهـده غزوة مؤتة بين الروم والمسـلمين وقتل فيهـا مجموعة من خيرة القواد المسلمين ، كمـا خرج الرسول لمواجهة الروم فى غزوة تبوك عندما بلغه أنهم تجمعوا لمهاجمة المسلمين .

وكان المسلمون يتوقعون هجوم الروم عليهم كل لحظة ، وممـا يدل على ذلك أن صحابياً فى أثنـاء حياة الرسول دق باب عمر بن الخطاب فى

ليلة وعمر نائم • فهبّ عمر من نومه مذعوراً وهو يقول : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟

وكما تحرّش الروم بالمسلمين تحرش بهم الفرس أيضاً ، فالتاريخ يروى لنا أن القبائل الموالية للفرس كانت تُوالى الإغارة على أرض المسلمين ، ولم تكن حرب المسلمين مع الفرس إلا امتدادا للدفاع الذى قام به المسلمون ليحموا أنفسهم وذويهم من هؤلاء المغيرين •

والحرب — مع ذلك — لم تكن مع الشعوب ، وإنما كانت مع قيصر وكسرى وجيوشهما الباغية ، هؤلاء الجبابرة الطغاة الذين كانوا يسلبون الشعوب المغلوبة حرياتها وثرواتها ، وقد تعاونت هذه الشعوب مع المسلمين وقت الزحف وهذا مما سهل انتصار المسلمين ، وقد دخلت أكثر هذه الشعوب الاسلام ولكن بالدعوة التى ابتدأت بعد انتهاء الحروب ، ويقرر المؤرخون أن غالبية هذه الشعوب دخلت الاسلام لا وقت الفتح أو عقبه ،بل بعد الفتح بأكثر من قرنين ، وهذا يقطع بأن انتشار الاسلام تمّ فى فترات الضعف التى عرفها التاريخ الاسلامى كما أشرنا لذلك آنفاً •

ومبادىء الاسلام واضحة فى أن أى قتال انما هو لرد عدوان كما سبق القول ، وينص القرآن على أن على المسلمين أن يلجئوا للسلم إذا أوقف أعداء الاسلام عدوانهم ، قال تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله (١) » وقال : « فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا (٢) » •

وقد سار الرسول على هَدْى هاتين الآيتين الكريمتين ، فنراه يخرج لملاقاة الروم عندما بلغه أن جموعهم تجمعت على أطراف الجزيرة وأنها

---

(١) سورة الانفال الاية ٦١ .
(٢) سورة النساء الاية ٩٠ .

تريد الهجوم ، فلمـا وصل الى تبوك ووجد أن جيوش الروم تراجعت لم يفكر فى مهاجمة الروم ، وإنما عاد أدراجه الى المدينة •

علاقة الحالة الاقتصادية بالحروب :

بقى موضـوع نحب أن نحققه بإنصـاف وعمق ، وهو مكـانة الناحية الاقتصـادية فى الفتـوح ، وقد اهتم بهـذه الناحية كثير من الباحثين ، وعدّهـا بعضهم العامل الرئيسى فى التوسع الذى قـام به العرب ، يقـول Thomas Arnold (١) •

إن العرب شعب نشـيط فعّال ، دفعته يد الجوع والحاجة الى ترك صحارية القاحلة ، واجتياح الاراضى الغنية المجاورة المترفهة •

ويقول دوايت دونلدش : ونشك فى الحقيقة فيمـا إذا كان الحماس الدينى وحده كافياً لحملهم على القيـام بهذه الغزوات الواسـعة على البلاد المجـاورة ، ويبدو أنهم واصلوا اندفاعهم بسبب الحاجة الاقتصادية الشـديدة (٢) •

ويقول Stanley Lane-Poole : إننـا لا نستطيع أن ننكر أن ثروة الأكاسرة والقياصرة ، والأراضى الخصـبة ، والمدن العـامرة ، فى الممالك المجـاورة كانت عاملا كبيراً فى تحمس المسلمين لنشر الاسلام (٣) •

ويقول الدكتور فيليب حتى (٤) : إن الحاجة المـادية هى التى دفعت بمعـاشر البدو — وأكثر جيوش المسلمين منهم — الى مـاوراء تخوم البـادية القفراء ، الى مواطن الخصب فى بلدان الشمـال ، ولئن كانت الآخرة أو شوق البعض الى بلوغ جنـة النعيم قد حبب لهم الوغى ،

(١) Preaching of Islam p. 46

(٢) عقيدة الشيعة ص ١٧ •

(٣) Arabs in Spain p. 48.

(٤) Preaching of Islam p. 46.

فإن ابتغاء الكثيرين حيـاة الهناء والبذخ فى أحضـان المدنية التى ازدهر بها الهلال الخصيب كان الدافع الذى حبب لهم القتال •

هل هـذا الكلام صحيح ؟ وهل كان البدوىّ تواقاً الى حياة الهناء والبذخ ؟ وهل كان ذلك هو الدافع لهـذا البدوى ليخرج قاصـداً القضاء على أكبر إمبراطوريتين عرفهمـا تاريخ العالم فى ذلك الوقت ؟

نحب أن نقرر أن فكرة ربط الدعوة الاسلامية بالرغبة فى الحصـول على المـال قديمة جداً ، بدأت مع بدء الاسلام ، واتّهم بهـا محمد نفسه قبل أن يَتّهمَ بهـا هؤلاء المستشرقون معـاشرَ البدو بمدة طويلة ، وَوُجدت أدلة كثيرة تقوّض هـذه التهمة ، ولكنها مع ذلك لا تزال حية •

لقد اتّهمت قريش محمداً بأنه طالب مال وعرضت عليه أعز ثرواتها ، ولكنـه صاح فيهم : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسـارى على أن أترك هـذا الأمر مـا تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونـه (١) » •

وافتقر محمد بعد غنى ، وافتقر أبو بكر بعد غنى ، وافتقر عمر الذى آل له السـلطان على الامبراطوريتين ، وظل يعيش فى تقشـف ظاهر ، وافتقر عثمان بعد غنى عظيم ، ومع هـذا بقيت التهمـة بأن المسـلمين حاربوا لأنهم كانوا طلاب مـال وثراء !!

وعند البـدء فى غزو فارس برزت هـذه التهمة فى عقل رستم قائد الفرس ، وظن أنه يستطيع أن يُرضِى هؤلاء البـدو بحفنات من ذهب الفرس وينجـو من قتـالهم ، فطلب من سعد بن أبى وقاص أن يوجّه إليـه بعض أصحابه ، فوجه إليه المغيرة بن شـعبة • فقال له رستم :

---

(١) ابن هشام جـ ١ ص ١٧٠ •

لقـد علمت أنه لم يحملكم على مـا أنتم عليه إلا ضـيق المعاش وشدة الجهد ، ونحن نعطيكم مـا تشبعون به ونصرفكم ببعض مـا تحبون (١) .
والعجيب أن الدكتور حتّى يذكر هـذه القصة حجةً لدعواه ، وينسى أن رأى رستم لا يمكن أن يكون دليلا على المسـلمين ، وينسى كذلك باقى الرواية حيث سَخِرَ المغيرة من رستم ومن ماله ، وحيث صـاح بـه بألا منـاص من واحدة من ثلاث : الاسلام أو الجزية أو القتال .

والذى ظنـه رستم ظنه فيمـا بعد ملك الصين عند ما زحف قتيبة ابن مسلم على هـذه الأصقاع ، وأناب عنه هبيرة الكلابى لمقـابلة ذلك الملك بنـاء على طلبه ، فقـال له الملك : قل لصاحبك (يقصد قتيبة) : إنى عرفتِ حرصه وقلة أصحابه ، فلينصرف وإلا بعثت إليه من يهلكه . فصاح هبيرة : كيف يكون قليل الأصحاب مَن أول خيله فى بلادك وآخرهـا فى منـابت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصاً من خلَّف الدنيا قادراً عليهـا وغزاك ؟ أمـا تخويفك إيانا بالموت فإن لنـا آجالا إذا حضرت فأكرمهـا القتل ، فلسنا نكرهه أو نخافه .

إذاً فهـذه التهمة قديمة ، وردّهـا أيضاً قديم كمـا ترى . . .
على أننـا لا نحاول أن ننكر أن بين المحاربين العرب من كان يحب المـال أو يسعى إليه ، ولكن الذى ننكره بقوة وإيمـان هو أن يكون الدافع لهـذه الحروب هو المـال ، ومعنى الدافع هو القوة التى ترسم الخطط وتوجّه ، وهو كذلك الإحسـاس الداخلى الذى يحث المحاربين على العمل لتحقيق الأهداف التى رسمت لهم ، هـذا الدافع كان إسلامياً صرفاً ، وإذا جاء المـال فهو تابع له ولم يكن قط هدفاً لذاته ، ونضـع الأدلة لإبراز هـذا الرأى :

أولا — صـارع المسلمون الشرك فى قلب الجزيرة العربية أكثر من عشرين عاما سقط خلالهـا آلاف من خيرة المسلمين فى الغزوات وحروب

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٦٤ .

المرتدين والمتنبئين ومانعى الزكـاة ، وكانت كل هـذه الحروب تدور فى البـادية القفراء كمـا سماها الدكتور حِتىّ ، بعيدة عن الأطمـاع فى الارض التى سماهـا مواطن الخصب بالشمال . فمـا الدافع لكل هـذه الضـحايا ؟

أضف الى ذلك أن المسلمين طالما حاولوا الانتصار دون حرب ودون غنائم كمـا حصل فى فتح مكة ، وطالما حصـلوا على غنائم ثم ردوهـا لأصحابها بعد إسلامهم كمـا حصل فى غزوة حنين والطائف .

ثانياً — أى مـال كان يمكن أن يتطلع إليـه المسلمون والوصـول إليـه محفوف بالمخاطر ؟ وقد سبق أن أوردنا أن عمر بن الخطاب حينمـا دقّ بابه أحدُ الصحابة وهو نائم ليلاً هبّ عمر من نومه مذعوراً وهو يقول : مـا هو ؟ أجاءت غسان ؟ وقد عاش البـدو آلاف السنين فى هذه الجزيرة القاحلة وكانوا يعرفون الخيرات فى الشمـال ، ولكن أحـلام أحدهم لم تصـل الى أن يطمع أن يدك عروش الملوك ، وأن يجعلهـا تخضع لسـلطان البدو الذين لا سلاح لهم ولا دربة ولا عدد ، فى حين كان للروم وللفرس جيوش جرارة وعتـاد قوى ونظام كامل . وقد كان العرب لذلك يخافون حرب الروم وقد وقعت بهم الهزيمة فى غزوة مؤتة ، وترددوا طويلا عندمـا دُعوا الى تبوك ، وقد عبر عبد الرحمن بن عوف عن قوة الروم بقوله : إنها الروم وبنو الأصفر ، عزم حديد وبأس شديد .

ثالثاً — لقد حافظ المسلمون قبل أن تكتسحهم الأطماع الدخيلة على حيـاة التقشف والزهد ، وعندمـا حاصروا حصن بابليون بعد أن فرغوا من الشـام وفارس كانوا لا يزالون على بساطتهم وصفائهم ، وقد أرسل لهم المقوقس رسلا ليتعرفوا له أحوالهم ، فعـاد الرسل الى المقوقس وقالوا له : رأينـا قوماً الموتُ أحب إليهم من الحيـاة ، والتواضـع أحب إليهم من الرفعـة ، ليس لأحد منهم فى الدنيـا رغبة ولا نهمة ، جلوسهم على التراب ، وأميرهم كواحد منهم ، مـا يُعْرَف كبيرهم من صغيرهم ولا السيد فيم من العبد . . .

رابعاً — طالت حرب المسلمين مع سكان شمالى إفريقية وامتــدَّت ، وسقط فيهــا كثير من الضحايا ، وكانت الصــحراء القاحلة بهــا آنذاك أبرز من مواطن الخصب ومن الغياض •

خامساً — لقد وقعت معارك عنيفة فى داخل صــفوف المسلمين ، بدأت بموقعــة الجمل واستمرت بعد ذلك ، وســقط آلاف الضحايا فى هــذه المعــارك ، ومــا كانت تضيف أرضاً خصبة ولا هناء ولا بذخاً •

ما الدافع الحقيقى لهذه الحروب ؟؟

إنهــا العقيدة التى رخص من أجلها كل شىء ، إنهــا الرغبة فى الحصــول على إحدى الحسنيين ، وهانت من أجل هــذا كل تضحية ، لقد كانت هناك أطمــاع مالية ، ولكن هــذه بدأت متأخرة ، وكانت عند من لم يتعمق الإيمــان فى نفسه ، وكانت على العموم عاملا ثانوياً ، ومَنْ ذا الذى يحمل رأســه على يده ويقاتل أقوى جيوش الدمار والفتك لينــال من بذخ العيش فى أحضــان الهلال الخصيب ؟ والتاريخ الاسلامى مملوء بقصص البطولة ، وبهؤلاء الذين نسميهم بالفدائيين الذين يلقون بأنفسهم فى مراكز الخطر ليهلكوا وينجو الاسلام وترتفع راية هــذا الدين •

أين المــال والرخاء لهؤلاء الشهداء ؟

ويقول Stanley Lane - Poole (١) : إن تحمُّس العرب للفتوح كان يؤججه عنصر قوى من الرغبة فى نشر الدين ، فقد حاربوا لأنهم يقاتلون أعداء الله ورسوله ، وحاربوا لأن مثوبة الشهداء وكئوس الســعادة كانت تنتظر من يُقْتَلون فى سبيل الله •

وقد استمرت الحرب دائرة بين الفرس والروم أربعمائة سنة ، وكانت حروب أطماع وحروب دنيــا ، فلم يستطع هؤلاء أو أولئك أن يحرزوا نصراً مؤزراً ، لسبب واحد هو قلة العقيــدة ، فلما هاجمهم البدو بسلاح العقيدة ، فلَّ ذلك السلاحُ كلَّ سلاح ، وتهــاوت جيوش الفرس والروم تحت أقدام المهاجمين فى وقت قصير ، إنها أعجوبة الأعاجيب •

---

(١) Arabs in Spain p. 43.

المــــرأة (*)

أكرم الاسلام المرأة أعظم إكرام ، واهتم بهـا أعظم اهتمـام ، وأنقذها ممـا كانت تعانيه من عنـاء القرون فى مختلف الأمكنة • والذى يطالع القرآن الكريم يجـد عناية واضـحة جاء بها الاسلام لحماية المرأة ، قـال تعـالى :

للرجال نصيب ممـا ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيبٌ مما ترك الوالدان والأقربون ، ممـا قل منه أو كثر نصيبا مفروضا (١) •

والذى يتأمل هـذه الآية الكريمة يجد بهـا إجمالا لحقوق المرأة فى الميراث فصلته آيات أخرى ، والمهم هنـا أن هذه الآية تثبت هـذا الحق بنفس الكلمات التى تُثْبِتُ حقوق الرجال وهى « للرجال نصيب ممـا ترك الوالدان والأقربون » فهـذه الكلمات تكررت بنفسها مع النساء • ثم تستمر الآية فتقرر أن هـذا النصيب لازم فى الميراث القليل أو الكثير حتى لا يقول الرجال إن الميراث القليل يبقى للرجـال لأى سـبب من الأسباب ، وتستمر الآية لتقرر أن هذا النصيب مفروض لا مندوحة عنه •

وإذا كان الحصول على المـال فى الاسلام يجىء أساسا عن طريق الميراث وعن طريق العمل ، واذا كانت الآية السابقة قد قررت حقوق المرأة

(*) اقرا عن موضوع المراة المسلمة :
ـ فصلا عن تعليم المراة فى كتاب « تاريخ التربية الاسلامية » للمؤلف .
ـ بابا عن مجتمع الاسرة فى « الحياة الاجتماعية فى التفكير الاسلامى » للمؤلف .
ـ الباب الثانى من كتاب « الاسلام عقيدة وشريعة » لفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمود شلتوت .
ـ كتاب « المراة فى الاسلام » للاستاذ كمال أحمد عون ، وغيرهـا من الكتب .

(١) سورة النساء الاية ٧ .

فى الميراث فإن مَعَنا آيةً أخرى تقرر حقوق المرأة فى العمل والكسب ، قال تعالى :

« للرجال نصيب ممــا اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » (١) •

وقد تقررت حقوق المرأة بنفس الكلمات التى تقررت بهــا حقوق الرجل كمــا أوضحنا من قبل •

وكانت توصية القرآن بالأم أقوى من توصيته بالأب ، قال تعــالى « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنــا على وهن » (٢) وقــال ووصينا الانسان بوالديه إحسانا حملته أمه كُرها ووضعته كُرها » (٣) ففى هاتين الآيتين نجد أن القرآن يسجل مــا عانته الأم من أجل ابنهــا ليهزَّ بذلك إحساس الانسان •

أمــا توصية الرسول بالأم فكانت واضحة عندما أجاب الرجل الذى يسأل : مَنْ أحق الناس بحسن صحبتى ؟ إذ قال له الرسول : أمك ، فعاد الرجل يسأل : ثم من ؟ فقال ثم أمك • فســأل الرجل لثالث مرة : ثم من ؟ فأجاب الرسول : ثم أمك • قال الرجل ثم من ؟ فقال الرسول فى الرابعة : ثم أبوك •

وقرر الاسلام أن البنت يؤخذ رأيهــا فى الزواج (٤) •

وعند الخلاف بين الزوجين جعل الاسلام من درجات التوفيق أن يعيَّن ممثّل للزوجة وممثّل للزوج « فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلهــا » (٥) •

وصور أخرى كثيرة من تكريم المرأة سنتحدث عنهــا فيما بعد ، والذى نسرع فنورده هنــا أن الغربيين تحدثوا بإعجاب عن السبق الهائل الذى

---

(١) سورة النساء الاية ٣٢ •
(٢) سورة لقمان الاية ١٤ •
(٣) سورة الاحقاق الاية ١٥ •
(٤) انظر الحياة الاجتماعية فى التفكير الاسلامى للمؤلف ص ٣٤ وما بعدها •
(٥) سورة النساء الاية ٣٥ •

حصلت عليه المرأة المسلمة إذا قيست بالمرأة الغربية ، وفيما يلى اقتباسات من أقوال هؤلاء :

يقول غوستاف لوبون (١) : أخذ الغرب عن المسلمين أخلاق الفروسية واحترام المرأة ، واذن فليست المسيحية كما يظن بعض الناس فى الغرب هى التى أنصفت المرأة بل الاسلام •

وتقول الدكتورة لورا فينشا فاليرى أستاذة الحضارة الاسلامية بجامعة نابولى : أعطى الاسلام للمرأة حقوقا عظيمة وكرمها أجل تكريم ، واذا كانت المرأة فى أوربا قد بلغت شأوا فى السنين الأخيرة ، فان مركزها قانونا كان الى وقت قريب أقل بكثير من مركز المرأة المسلمة ، فالمرأة المسلمة تشارك إخوتها فى الميراث ، ولا تتزوج بغير رضاها ، ولا تُكْرَه على معاشرة زوج يسىء معاملتها ، والزوج مسئول عن الإنفاق عليها حتى لو كانت موسرة ، وتتمتع بكامل استقلالها وحريتها فى ادارة ممتلكاتها •

وتقول أنى بيزانت Annie Besant : كثيرا ما يرد على فكرى أن المرأة فى ظل الاسلام أكثر حرية فى ظل كل الأديان ، فالاسلام يحمى حقوق المرأة أكثر من المسيحية التى تَحْظُر تعدد الزوجات ، ولهذا يهجر الزوج المسيحى زوجته أو يطلقها اذا استطاع ، وتعاليم القرآن بالنسبة للمرأة أكثر عدالة وأضمن لحريتها ، فبينما لم تنل المرأة حق الملكية فى انجلترا إلا منذ حوالى عشرين سنة فإننا نجد الاسلام قد أثبت لها هذا الحق منذ اللحظة الأولى أى منذ عدة قرون •

* * *

تلك مقدمة لم يكن منها بد ، وبعدها نخطو خطوة أخرى فى الحديث عن المرأة فى الاسلام ، ولعل من الأفضل أن نعرض صورة سريعة للمرأة قبل الاسلام وللمرأة بعد الاسلام فى المناطق التى لم تنتفع بالاسلام ومبادئه ، وهذه الصورة ستوضح المقارنة بين المرأة فى ظل الاسلام والمرأة البعيدة عن هذا الظل :

---

(١) حضارة العرب ص ٣٣٨ .

المرأة فى الحضارات القديمة

فىالامبراطورية الرومانية :

قضت الحضارة الرومانية أن تكون المرأة رقيقاً تابعا للرجل ، لهـا حقوق القاصر أو لا حقوق لهـا على الاطلاق ، وقد اجتمع فى رومـا مجمع كبير وبحث فى شئون المرأة فقرر أنهـا كائن لا نَفْس له ، وأنها لهـذا لن ترث الحيـاة الأخروية ، وأنهـا رِجْس ، يجب ألا تأكل اللحم ، وألا تضحك ، وعليها أن تمضى وقتهـا فى الصلاة والعبادة والخدمة ، وليس لهـا الحق فى أن تتكلم ، ولمنعهـا من الكلام وضعوا على فمهـا قفلا من الحديد ، فكانت المرأة من أعلى الأسر تروح وتغدو فى الطريق أو فى دارها وعلى فمهـا قفل • هـذا غير العقوبات البدنية التى كانت توقع عليهـا باعتبار أنهـا أداة الاغواء ، يستخدمها الشيطان لإفساد القلوب [١] •

ويرى بعض الباحثين أن الخلخال الذى يزين رجلى المرأة أحيانا فى العهد الحاضر ليس إلا بقايا القيد الذى كانت المرأة توثق به ، وأن السلسلة الذهبية فى عنقهـا الآن تحويل وتجميل للسلسلة التى كانت المرأة قديما تُربط بها ، ومثل هذا يقال عن القرط والسوار •

عند اليونان :

وكانت المرأة فى أثينا تعتبر من سقط المتاع ، فكانت تباع وتشترى ، وكانت تعد رجسا من عمل الشيطان •

فى شرائع الهند :

وقضت شرائع الهنـد القديمة أن الوباء والموت والجحيم والسـم والأفاعى والنـار خير من المرأة ، كان حقهـا فى الحياة ينتهى بانتهـاء

---

(١) عفيف طيارة : روح الادين الاسلامى ص ٢٨١ •

أجل زوجهـا الذى هو سيدها ومالكهـا ، فإذا رأت جثمانه يُحرَق ألقت بنفسها فى نيرانه ، وإلا حاقت عليهـا اللعنة الأبدية •

وجاء فى شرائع منو دهر مـا ساسترا عن المرأة مـا يلى : تعيش المرأة وليس لهـا خيار ، سواء أكانت بنتـاً صغيرة ، أو شابة ، أو عجوزاً ، فالبنت فى خيار أبيها ، والمتزوجة فى خيـار بعلها ، والأرملة فى خيـار أبنائها ، إن عاشت بعد وفاته ، ولا تتزوج بعد وفاة زوجهـا أبداً بـل تهجر مـا تشتهية من الأكل واللبس والزينة حتى تموت ، ولا تملك الزوجة شيئاً ، وكل مـا تحرزه يذهب تواً لزوجها (١) •

عند اليهود فى العهد القديم :

أمـا رأى العهد القديم فى المرأة فقد وضحه سفر الجامعة فى الكلمات الآتية : درتُ أنا وقلبى لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمة وعقلا ، ولأعرف الشر أنه جهالة ، والحماقة أنهـا جنون ، فوجدت أمرَّ من الموت المرأةَ التى هى شباك ، قلبهـا أشراك ، ويداها قيود • الصالح قدَّام الله ينجو منهـا ، أمـا الخاطىء فيؤخذ بهـا (٢) •

فى الجزيرة العربية :

وفى الجزيرة العربية كانت الحيـاة كفاحاً للحصول على العيش ، وقد اضطرت المرأة أن تدخل هـذا الخضم عاملة كادحة ، ولكن كدحهـا لم يكن ينتج مـا يُعادل كدح الرجل ، كمـا أن نصيبها فى الحروب كان ضيئلا ، ولذلك غلب أن يتجه لهـا سخط المجتمع العربى ، ذلك السخط الذى عبر عنـه القرآن بقوله : « وإذا بُشِّر أحدُهم بالأنثى ظل وجهه مُسْوَدًّا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ألاساء ما يحكمون »(٣) بل دسَّه بعضهم فى التراب فعلا ،

(١) اقرأ مقارنة الاديان للمؤلف جـ ٤ ص ٧٢ و ٧٤ •
(٢) الاصحاح السابع الفقرتان ٢٥ — ٢٦ •
(٣) سورة النحل الايتان ٥٨ — ٥٩ •

حتى هتف بهم القرآن الكريم : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئـاً كبيراً » (١) فإذا نجت الوليدة العربية من الوأد وجدت غالباً فى انتظارهـا حياة ظالمة ، ليس لهـا فيها نصيب من الميراث ، وقد تكره فيها على البغاء ، أو تـعْـضـل عن الزواج •

وقد لخص المرحوم الأستاذ قاسم أمين حالة المرأة فى العصـور القديمة بقوله : ترتب على دخول المرأة فى العائلة حرمانها من استقلالها ، لذلك كان رئيس العائلة عند الرومان واليونان والجرمانيين والهنود والصينيين والعرب مالكاً للمرأة كان يملكها كما يملك الرقيق بطريق البيع والشراء ، بمعنى أن عقد الزواج كان يحصل على صورة بيع وشراء ، وكان الرجل يشترى زوجته من أبيهـا ، فتنتقل إليه جميع حقوق الأب ، ويجوز للزوج أن يتصرف فيها بالبيع لشخص آخر (٢) •

المرأة فى العصور الوسطى

تلك هى المرأة فى العصور القديمة ، فلْنَمْضِ فى حديثنا لنتكلم عن المرأة فى العصور الوسيطة والحديثة التى لم تنتفع بالفكر الاسلامى •

رأى الكنيسة الكاثوليكية :

وقد شرح الكـاتب الدانمركى Wieth Kondsren اتجـاه الكنيسة الكاثوليكية نحو المرأة بقوله : خلال العصور الوسطى كانت العنـاية بالمرأة الأوربية محدودة جداً تبعـاً لاتجاه **المذهب الكاثوليكى الذى كان يعـد المرأة مخلوقا فى المرتبة الثانية (٣) •**

فرنسا تتساءل : هل المرأة إنسان :

وفى فرنسا عقد اجتماع سنة ٥٨٦م يبحث شأن المرأة ومـا إذا كانت

---

(١) سورة الاسراء الاية ٣١ .

(٢) انظر كتاب المرأة الجديدة ص ١٨ .

(3) Feminism : Translated to English by Arthur Chater p. 200.

تـُعَدُّ إنساناً ؟ وبعد النقاش قرر المجتمعون أن المرأة إنســان ولكنهــا مخلوقة لخدمة الرجل •

وهكذا أثبت الفرنسيون فى هــذا التاريخ فقط إنسانية المرأة ، تلك الانسانية التى كانت مشكوكا فيها من قبل ، وحتى عندما أثبتوها لم يثبتوها كاملة ، وإنما جعلوا المرأة تابعاً وخادماً للرجل ، ومن أجل هذا مر الزمن حتى عصرنا الحديث والمرأة الفرنسية محرومة من أبسط الحقوق التى مَنـَحـَتـْهَا المرأة المسلمة منــذ مئات السنين ، وقد صــدر قانونٌ فى فبراير ســنة ١٩٣٨ يلغى القوانين التى كانت تمنع المرأة الفرنسية من بعض التصرفات المالية ، ويجيز لهــا لأول مرة فى تاريخهــا بدون إذن زوجها أن تفتح حساباً جارياً باسمها فى البنك ، وأن توقع بالتالى على شيكات الصرف ، وأن تمضى العقود المالية ، وتستولى على الإرث •

وينقل الدكتور على عبد الواحد فى هــذا الشأن نصَّ المادة السابعة عشرة بعد المائتين من القانون الفرنسى وهو كالآتى : « المرأة المتزوجة ، حتى لو كان زواجهــا قائماً على أساس الفصــل بين ملكيتهــا وملكيــة زوجها ، لا يجوز لها أن تهب ، ولا أن تنقل ملكيتها ، ولا أن ترهن ، ولا أن تملك بِعِوَضٍ أو بغير عوض ، بدون اشــتراك زوجهــا فى العقــد أو موافقته عليه موافقــة كتابية » ويعلق الدكتور عبد الواحد على هــذه المــادة بقوله : ومع مــا أدخل على هــذه المادة من قيود وتعديلات فيمــا بعد فإن كثيراً من آثارهــا لا يزال ملازماً لوضع المرأة الفرنسية من الناحية القانونية الى الوقت الحاضر (١) •

انجلترا فى القرن التاسع عشر :

وفى إنجلترا حرم هنرى الثامن على المرأة الانجليزية قراءة الكتاب المقدس ، وظلت النســاء حتى ســنة ١٨٥٠م غير معدودات من المواطنين وظللن حتى سنة ١٨٨٢م ليس لهن حقوق شخصية ، فلا حق لهن فى التملك الخالص ، وإنمــا كانت المرأة ذائبة فى أبيهــا أو زوجهــا •

---

(١) حقوق الانسان فى الاسلام ص ٦٠ •

انجلترا فى القرن العشرين :

وعندما كنتُ طالباً فى جامعة كمبردج فى منتصف هذا القرن لم يكن للطالبات الحق فى الاشتراك فى أندية الطلاب ولا اتحاد الطلبة بالجامعة العريقة ، ولم تُسَوِّ جامعة اكسفورد بين الطالبات والطلاب فى الحقوق إلا بقرار صـــدر فى ٢٦ يونيو سنة ١٩٦٤ (١) .

هل لنـا أن نتصـور بعد هـذا أن مـا أصاب العالم الاسلامى من سوءات وتقاليد مشينة فى موضـوع المرأة ، انحدر اليـه من الغرب ، وحمله اليه الغزاة مع مـا حملوا من آثام ؟

إننى شخصياً أميل الى هذا الرأى .

المرأة فى ظل الاسلام

ميراث الرجل والمرأة :

بكر الاسلام فقرر المسـاواة بين الرجل والمرأة فى كل شىء ، ولم يستثن من ذلك إلا مـا دعت الحاجة الواضحة الى استثنائه كالميراث ، إذ قرر للذكر مثل حظ الأنثيين ، لأن المرأة معفـاة من التكاليف المـالية قبل الزواج وبعـده ، فقبل الزواج يلتزم أبوهـا بالإنفاق عليهـا ، وبعد الزواج يصير الانفـاق عليها وعلى أولادها مسئولية الزوج ، حتى ليرى بعض الباحثين أن المرأة أوفر حظاً فى الميراث من الرجل ، فلأنْ تأخذ المرأة خمسـة وتدخرهـا ، خير من يأخذ الرجل عشرة لينفق منهـا أو ينفقهـا كلها ، على أن حديثنا عن المرأة فى الاسـلام سيتسع لشىء من الشرح آن لنـا نأخذ فيه :

القيمة الانسانية والقانون :

قضى الاسلام على مبـدأ التفرقة بين الرجل والمرأة فى القيمـة

---

(١) جريدة الاهرام ٦٤/٦/٢٧ .

الانسانية المشــتركة ، كما قضى على مبدأ التفرقة بينهما أمام القانون وفى الحقوق العامة ، وجعل المرأة مساوية للرجل فى هذه الشئون (١) •

تعال بنــا نعود الى مصــدر الاسلام الأول لنقتبس منه مــا يدعم هــذا الاعتقاد ، قال تعالى :

— ولهن مِثْلُ الذى عليهن بالمعروف (٢) •

— والمؤمنونَ والمؤمناتُ بعضهم أولياء بعض (٣) •

— وقضىَ ربكَ ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً (٤) •

— فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عملَ عاملٍ منكم من ذكر أو أنثى (٥) •

وهكذا نجد هــذه الآيات وسواهــا تجمع الذكر والأنثى تحت حكم واحد ، وتقضى قضــاء مبرماً على التفرقة بين الرجل والمرأة ، بل أن الفكر الاسلامى يجعل للمرأة نصيباً يعادل نصيب زوجهــا فى جهاده عن الوطن وسعيه للمعاش ، إذا أحسنت الزوجة العشرة ورعت غيبة الزوج ، فقد ورد فى ترجمة أسماء بنت يزيد الأنصــارية فى الاستبصار أن رفيقات لها بعثن بهــا للرسول لتقول له : إن الرجال يخرجون للجهــاد ، ويشهدون الجنائز ، ونحن فى البيوت نحفظ لهم الأموال ونربى الأولاد فهل نشاركهم فى الأجر ، فقال الرسول : يا أسماء ، أعلمى مَنْ وراءك من النســاء أن حسن تبعل إحداكن لزوجهــا ، وطلبها مرضاته ، تعدل كل مــا ذكرت • فانصرفت أسماء وهى تهلل وتكبِّر استبشاراً (٦) •

---

(١) دكتور على عبد الواحد : حقوق الانسان فى الاسلام ص ٥٢ .
(٢) سورة البقرة الاية ٢٢٨ .
(٣) سورة التوبة الاية ٨١ .
(٤) سورة الاسراء الاية ٢٣ .
(٥) سورة آل عمران الاية ١٩٥ .
(٦) عبد الحى الكتانى : التراتيب الادارية جـ ٢ ص ١١٩ .

ادعاءات وردّها :

بقيت تلك المسائل التى تكرّرَ القول فيها ، والتى ظنّها مثيروها سوءات تمس الاسلام ، فراحوا ينشرونها فى نحيب وولولة ، مدّعين أنهم يدافعون عن حقوق المرأة التى زعموا أن الاسلام هضمها وفى قمة هذه المسائل: تعدد الزوجات ، والطلاق ، والقوامة ، وتأديب الزوجة •

وطريقنا هنا لشرح موقف الاسلام من هذه المسائل جميعاً طريق واحد ، ففى رَأْيِنَا أن هناك علة واحدة قضت بهذه الأمور ، وهى علة واضحة لا تخفى إلا على من رغب فى الغموض وأغمض عينيه حتى لا يرى النور ، وتلك العلة هى أن الاسلام دين الفطرة ، ودين الطبيعة ، فهو يعترف بواقع الأمر وأخلاق الناس ، ولذلك فالاسلام يشرِّع تشريعاً مثالياً للخاصة ، ويحثّ المسلمين على اتباع هذا النهج المثالى ، ولكن الاسلام يعترف أن بعض الناس لا يقوون على الوصول لهذه الغاية المثلى ، وهؤلاء لا يدعهم الاسلام يهيمون فى الضلال ، بل يشرِّع لهم ما يوفق به بين طباعهم الشاردة وبين القيم الصحيحة ، وذلك هو أسلوب الاسلام فى هذه الشئون التى اعتبرها أعداء الاسلام ومن سار سيرتهم سوءات ، وراحوا يحاولون مهاجمة الاسلام بسببها •

فروق لا تنكر بين الرجل والمرأة :

والاسلام دين الفطرة كذلك فى اعترافه بأن الرجل يفضل المرأة فى بعض الأمور ، فهو أطول منها قامة فى المتوسط ، وهيكله العظمىّ أضخم من هيكلها ، ووزنه أثقل ، وعضلاته أصلب ، ومخه أكبر ، وكذلك قلبه ، ويعتريها — دون الرجل — عارض الحيض فيهتز جسمها بضعة أيام فى كل شهر •

ويتزوج الرجل وتتزوج المرأة وينجبان ، فلا يبدو على الرجل عارض وإنما يظل كما هو ، ولكن العوارض التى تمس جسم المرأة بسبب الزواج والحمل كثيرة ولا يمكن أن تخفى •

ولا تساوى المرأة الرجل فى أى عمل اشتراكا فيه ، ولو كان من الأعمال التى انقطعت لهــا المرأة منذ عاش الجنســان فى معيشة واحدة ؛ لا تطبخ كمــا يطبخ ، ولا تتقن الأزياء كمــا يتقنها ، ولا تبدع فى صناعة التجميل كما يبدع فيهــا (١) .

ويقول أحد علمــاء البلجيك : إنا لنرى الغرب أطلق حرية المرأة منذ أمد بعيد فى الثقافة وفى كل شىء ، ومع هــذا لم تبرز فى جنس النســاء كاتبة أو شاعرة أو مؤرخة أو قصصيه عظيمة ، بل لم ينجحن فى الطب ولا فى المحاماة ، ولا فى العمل فى دواوين الحكومة ، ومن نجحن كن بتراكيبهن الجســمية أشبه بتراكيب الرجال ، من حيث العضــلات والقوى ، وما نجح النســاء فى تولى السلطات الكبيرة ، لو لم يكن لهن مؤازرون عظماء من الرجال يعملون وتنسب الأعمال للنساء (٢) .

وكتب أحد عظمــاء الغربيين الى إحدى بناته يقول : إذا ادّعى فولتير أن النساء قادرات على أن يعملن كل مــا يعمله الرجال فمــا ذاك إلا للتقرب من قلوب بعض الغوانى ، فالنساء لم يأتين بأثر يذكر فى دروب الآداب ، فهن لم يؤلفن (الالياذة) ولا (الانياد) ولا (القدس المنقذة) ولا (فيدر) ولا (زهرة ميدى سيس) ولا (تليماك) ... ولم يخترعن الجبر ، ولا المجاهر ، ولا مضخات النار ، ولا صناعة الجوارب ، ومــا برزت امرأة عالمة لتصبح جديرة أن تعد فى صفوف العلمــاء المبرزين ، فالمرأة متمردة إذا هى أرادت التساوى مع الرجل فى كل شىء (٣) .

ونرى أن المرأة يجب ألا تضيق بتفوق الرجل عليها ، فالرجل ليس غريبا عنهــا ، وليس من كوكب آخر أو عالم آخر ، إنه أبوهــا وأخوها وزوجها وابنهــا ، فلا داعى لهــذه المنافسة التى تثار بدون أساس فما أحوج الرجل للمرأة ، وما أحوج المرأة للرجل .

---

(١) الاستاذ العقاد : حقائق الاسلام واباطيل خصومه ص ١٧٤ .
(٢) نقلا عن الاسلام والحضارة العربية لكرد على ج ١ ص ٩٦ .
(٣) Lorance : Histore de la Litterature Feminine

ومن ضـوء الميـزان الذى اعترفت به الفطرة ، وقـرره علمـاء الشرق والغرب ، نبـدأ فى دراسة هـذه المسائل ، وسنذكر عن كل منهـا كلمة موجزة ، نرد بهـا عن الفكر الاسلامى الافتراء والفضول :

تعدد الزوجات (*) :

الأصل فى الزواج فى الاسلام ، هو الزوجة الواحدة ، وهنـاك أدلة واضحة تحث على هـذا الوضع نورد منها ما يلى :

قال تعالى : فانكحوا مـا طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، **فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة** (١) .

وقال : **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النسـاء ولو حرصتم** (٢) .

ويعلق المرحوم قاسم أمين على هاتين الآيتين بقوله : لو أن ناظراً فى الآيتين أخذ منهما الحكم بتحريم الجمع بين الزوجات. لمـا كان حكمه بعيداً عن معناهما ، ولولا أن السنة والعمل جاءا بالإباحة فى الجملة (٣) .

وروى البخارى عن مسور بن مخرمة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر : إن بنى هشام بن المغيرة استأذنوا فى أن يُنكِحوا ابنتهم ، علىَّ بن أبى طالب ، فلا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن ، إلا أن يريد ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فإنما فاطمة بضعة منى ، يُريبنى مـا أرابهـا ويؤذينى مـا آذاها .

وقد أخذ العلمـاء أو فريق كبير منهم من هـذا الحديث أن الشريفة التى يؤذيهـا أن يتزوج رجلها عليها لا يحل إيذاؤهـا بالتزوج عليها ،

(*) حديثنا هنـا خاص بتعدد الزوجات فى الاسلام بصـفة عامة ، اما تعدد زوجات الرسول فقد وفينـاه بحثـا فى الجزء الاول من : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية .

(١) سورة النساء الاية الثالثة .

(٢) سورة النساء الاية ١٢٨ .

(٣) تحرير المراة : فصل تعدد الزوجات .

وبخاصة إن اشترطته على الرجل ، أو كانت تلك عادة القوم ، فعليه الوفاء (١) .

فالزوجة الواحدة هى الأصل فى الاسلام ، وقد سار على ذلك الأصل الغالبية العظمى من المسلمين ، وبلغ هؤلاء مثلا فى مصر أكثر من ٩٧٪ .

بيد أن عوامل متعددة تدفع الرجل — مسلماً كان أو غير مسلم — الى التزوج بزوجة أخرى ، وتكون هذه الحالة ملحّة أحياناً كعدم الولد ومرض الزوجة الطويل ، وعدم المقدرة على الصبر دون الاتصال الجنسى حقبة الحيض والنفاس ، وكالرغبة التى تغلب على بعض الرجال فتجعل حاجتهم الجنسية لا يطفئها إلا عدد من الزوجات ، وعن هذا النوع يقول الامام ابن القيم (٢)ومن الناس من يغلب عليه سلطان هذه الشهوة بحيث لا تحصنه المرأة الواحدة ، فيستحب لصاحبها الزيادة عن الواحدة الى الأربع . . . . . ومهما كان الباعث معلوماً فينبغى أن يكون العلاج بقدر العلة ، فالمراد تسكين النفس .

فهؤلاء وأمثالهم لم يدعهم الاسلام لقيادة الشيطان ، بل رسم لهم ما يحقق رغبتهم أو بعضها فى إطار حلال ، وهو إباحة تعدّد الزوجات .

هذا من جهة الرجل ، فإذا جئنا الى المجتمع وجدنا ظروفه كثيراً ما تجعل تعدد الزوجات وسيلة لحل مشكلة به ، فلعل تعدد الزوجات هو الوسيلة الصالحة لحل مشكلة زيادة عدد النساء على الرجال وبخاصة

---

(١) كمال أحمد عون : المرأة فى الاسلام ص ٩٠ ويلاحظ أن موقف الرسول هنا ليس موقفا تشريعيا ، ولو كان موقفه تشريعيا لما احتاج أن يصعد المنبر ويستثير عاطفة الناس ، ويتحدث عن ابنته وعما يمسها ويمسه من اجلها من آلام . انه عليه السلام — فيما نرى — يتحدث هنا كأب لا كرسول .

(٢) اعلام الموقعين عن رب العالمين جـ ٢ ص ٨٤ .

بعد الحروب والفتن حيث تصبح هـذه الزيادة كبيرة ولا نزاع أنه أكرم للمرأة حينئذ أن تتزوج متزوجاً من الرضـا بعلاقة الخليلة التى لا حقوق لهـا ولا لأولادها قبل الرجل ، وأكرم لهـا كذلك من حيـاة العانس لمـا فى هذه الحياة من حرمان وفقر •

وبهذه المناسبة أذكر أننى مرة دعيت للكلام فى حفل نسـائى عن المرأة وموقف الاسلام منهـا وشرحت ــ فيمـا شرحت ــ رأى الاسلام فى تعدد الزوجات ، وكان مما قلت للحاضرات ــ وهن يتجهن للوم الرجل على تعدد الزوجات ـــ :

إذا كنتن لا تردن تعـدد الزوجات فمـا عليكن إلا أن تتفقن فيما بينكن على ألا تتزوج واحدة منكن أى زوج متزوج ، فإن ذلك الاتفـاق وتنفيذه بدقة يجعل الرجل لا يجد سبيلا لمباشرة تعدد الزوجات ، أمـا إذا قبلت المرأة أن تتزوج مِنْ متزوج فاللوم عليهـا لا على الرجل أو على الأقل عليهـا وعلى الرجل •

وتساءلت : هل المرأة التى تتزوج متزوجا أو كما يقولون تتزوج على ضرة كانت تـُقـْدِم على ذلك لو وجدت سـواه فى مكانته ؟ الاجابة الواضحة أنهـا قبلت التزوج منه لأنهـا لا تجد غيره ، أو لا تجد من يماثله ويكون أعزب •

والنتيجة التى أنتهيت إليهـا أن صراخ النساء ضـد تعدد الزوجات سيضر النساء أكثر ممـا يضر الرجال ، ويضيع الفرصة على كثيرات منهن ، تـُقـْبِلن على هذا الزواج وتسعدن فى رحابه •

وأذكر أننى فى ذلك الحفل وجدت قبولا من كثيرات من الحاضرات اللاتى تمتزن بالحكمة والهدوء ، وأنا هنـا أعرض هذا الرأى على القارىء والقارئة ، وأرجو أن يتدبروه لا تشجيعاً على تعدد الزوجات ، ولـكن

إدراكا أن هـذا التشريع لا يخلق مشـكلة بمقدار مـا يحل مشكلات قائمة أو يمكن أن تقـوم •

بقى أن نقول عن تعدد الزوجات إنه ليس من صنع الاسلام ، وإنما هو تشريع قديم عرفته كل الحضـارات وفى مقدمتهـا التوراة ، وأقره الإنجيل إلا فى حالة واحدة هى حالة الأسقف حيث لا يستطيع الرهبنة مع تعدد الزوجات فليكتف بزوجة واحدة • وقد بقى تعـدد الزوجات معمولا به فى العالم المسيحى حتى حرمته القوانين الوضعية • ويقول الأسـتاذ محمد فؤاد الهاشمى (١) (العـالم الذى كان مسيحياً وأسـلم) : إن اعتراف الكنيسة بتعدد الزوجات بقى الى القرن السابع عشر وإن جميع الأديان ومنهـا ديانة البراهمة وبوذا وعبـاد الوثن والمجوس ، وكذلك المبـادىء الوضعية ، قد سايرت الحيـاة الواقعية ، وجارت الطبيعـة البشرية فى شئون الزواج ، ولكن كهنة المسيحيين أبوا أن يفرطوا فى مفتاح السجن لأن فى ضياع هذا المفتاح ضياعاً لسلطتهم •

ولم يقبل الاسلام تعدد الزوجات على النحو الذى عرفته حضارات الماضى ، بل حدده بعد أن لم يكن محدوداً ، ونظمه بعد أن كان لا نظـامـه ، وقيده وكان من قبل مطلقاً •

وقد أعدّت جمهورية مصر سـنة ١٩٦٣ مشروعاً للحـد من تعـدد الزوجات ، ومن الطلاق ، بعدم إباحة هـذا وذاك إلا أمام القاضى مع تقديم أسباب كافية ، وفى نوفمبر من نفس العـام رفضت اللجنة المشكلة لدراسة هـذا المشروع أن توافق عليه ، وقالت اللجنة فى أسباب الرفض : إن تعدد الزوجات موجود بنسـبة ضئيلة جداً لا تتجـاوز الآن ٢٪ ، ومن دراسـة كثير من الحالات يتبين أن أكثر من نصـف هؤلاء له دوافع مقبـولة ، وحالات الطلاق كحالات تعدد الزوجات من ناحية النسـبة والظروف ، وتقل النسـبة من تلقاء نفسها فى هـذا وذاك على مر الأيام ،

---

(١) الاديان فى كفة الميزان ص ١٠٥ — ١٠٦ •

فلا داعى لإصدار قانون لا موضـوع له تقريبـاً وبخاصة أن ذكر الأسباب فى حالة الطلاق قد يسىء الى المرأة والأسرة على العموم .

وعندما أصـدر أنور السادات سنة ١٩٧٩ قانونا فى غيبـة مجلس الشـعب يضع العراقيل أمام تعـدد الزوجات ، بأن جعل من حق الزوجة السـابقه أن تطلب الطلاق ، وجعل لهـا منزل الزوجية إذا كانت حاضنة ، حينذاك ثار الرأى العـام ضد هـذا القانون الذى أطلق النـاس عليه قانون جيهان السادات ، واتجهت الآراء للقضاء عليه عقب نهاية السادات .

الطـلاق :

يبغض الاسلام الطلاق وينفّر منـه ، ويحث على علاقة زوجيـة دائمـة يصوّرها القرآن فى صور رائعة حيث يقول الله تعالى :

— ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة (١) .

— هن لباس لكم وأنتم لباس لهن (٢) .

— وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً (٣) .

ومن أجل هـذه العلاقة القوية استهجن الاسلام الطلاق ونفّر منه ، ورسم السبل لحل الخلافات دون اللجوء إليـه ما أمكن ذلك ، اقرأ معى هـذه الآيات والأحاديث .

— وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شـيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً (٤) .

---

(١) سورة الروم الاية ٢١ .
(٢) سورة البقرة الاية ١٨٧ .
(٣) سورة النساء الاية ٢١ .
(٤) سورة النساء الاية ١٩ .

— واللاتى تخـافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضـاجع واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا (١) •

— وإن خفتم شقاق بينهمـا فابعثوا حكماً من أهله وحكمـا من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهمـا (٢) •

— وإن امرأة خافت من بعلهـا نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهمـا صلحاً والصلح خير (٣) •

— لعن الله كل مزواج مطلاق •

— تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز له العرش •

— أبغض الحلال الى الله الطلاق •

ذلك هو موقف الاسلام من الطلاق ، يكرهه ويذمه ، ولا يجيزه إلا بعد محاولات واسعة ومراحل أربع محـددة ، هى : الوعظ ، والهجر ، والضرب ، والتحكيم للصلح والتوفيق ، وسنشرحهـا بإفاضة عنـد الحديث عن التأديب ، ولكن الاسلام كمـا قلنا دين الفطرة ، والفطـرة أثبتت أن كل شركة يمكن أن تفشـل ، وأن الحب قد تعقبـه الكراهية ، وأن هـذه السبل السابقة قد تعجز عن اقامة أسرة سعيدة أو حتى عادية ، والاسلام لذلك يعترف بالأمر الواقع ، ويضع الطلاق حـلا عند الضرورة لهـذه المشكلة قال تعالى : فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسـان (٤) وقال : ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه (٥) •

إن الطلاق دواء مُرّ المذاق ، ولكن مرض الشقاق أكثر منه مرارة وقسوة ، وطالما بتر الأطبـاء عضو إنسان حرصاً على الانسـان كله •

(١) سورة النساء الاية ٣٣ •
(٢) سورة النساء الاية ٣٥ •
(٣) سورة النساء الاية ١٢٧ •
(٤) سورة البقرة الاية ٢٢٩ •
(٥) سورة البقرة الاية ٢٣١ •

البديل عن الطلاق فى الغرب :

أن الطلاق خير من الموقف المائع الذى يحصـل كثيراً فى الغرب ، عندمـا تسوء العلاقة بين الزوج وزوجته وعند مالا يبقى طريق للتوفيق بينهمـا • فإننـا نرى كلا منهما يتخذ طريقه حراً الى الخدانة ، فتتخذ المرأة خدينا غير زوجهـا ، ويتخذ هو خدينة غيرها ، لأن الزواج غير مباح لأى منهمـا قبل الطلاق ، والطلاق يصـعب الحصـول عليه ، فلتكن الخدانة الأثيمة هى الحل •

الغرب يقتبس الطلاق من الاسلام :

وقد أدركت بعض الدول الغربية مـا فى ذلك من عبث ، فيسرت أمر الحصول على الطلاق ، ومن هـذه الدول إيطاليا التى أدركت كثرة الفراق بين الأزواج ، وبالتالى كثرة الخدانة ، فأعدّت مشروعاً لجواز الطلاق ، وقد وقف رجال الحزب الديمقراطى المسيحى بحزم ضـد هذا المشروع ، وأنفقوا ملايين الدولارات فى الحملة التى أقاموهـا حتى لا ينـال المشروع أغلبية الأصوات ، ولكن هـذه الملايين ضاعت هباء ، ووافقت الأغلبيـة على المشروع سنة ١٩٧١ واتخذ طريقه الى التنفيذ ، وثار البابا ضد هـذا القانون ، وأعلن أنه سيعرض الأمر للاستفتاء الشعبى العـام ، ولكن الشعب الايطالى لم يؤيد اتجـاه البابا ، وصوت فى الاستفتاء لصـالح سريان القانون ، وعقب صدور هـذا القانون بفترة قصـيرة تمت ٦٧٫٠٠٠ ألف حالة طلاق ، **ولم يكن الطلاق آنذاك تدميراً للبيوت كمـا يقول بعض الذين لم يفهموا فلسـفة الطلاق ، وإنمـا كان تنفيذاً لأمر واقع ، فقد كان هناك شقاق بين الزوجين ، وفرقة ثابتة بينهمـا ، وكل مـا فعله القانون هو أنه قنّن هـذه الفرقة** وفتح الطريق أمام حيـاة يمكن أن تحدث وان تنجح فى زيجات جديدة ، فمن الواضح أن الرجل لا يستطيع أن يبيت مع الكراهية العميقة فى سرير واحد مع امرأة ، ولا تستطيع المرأة أن تعيش فى حيز ضيق هو البيت مع رجل أصبحت تبغضه وتخافه •

وفى بريطانيا يرخصون بالطلاق إذا طلبه أحد الشريكين وأثبت أن الآخر قد ارتكب نحوه جرائم معينة ، وفى النرويج والسويد والدانمرك واليابان والصين يعتبر عقد الزواج كأى عقد آخر يمكن فسخه إذا وافق الطرفان على ذلك ، وفى روسيا يرخص بالطلاق إذا طلبه أحد الشريكين (١) .

وفى آخر سنة ١٩٧٦ صدر بفرنسا قانون يبيح الطلاق بشروط تشبه وأن تقرؤها أنها مستمدة من الاسلام ، ففيها المراحل التى سبق الكلام عنها أو أكثرها .

ويمكننا أن نقول إن الطلاق علاج قدمه الاسلام للبشرية عندما لا ينفع علاج سواه ، وإن المدنيات الحديثة إقتبست من الاسلام هذا العلاج كما اقتبست وتقتبس منه اتجاهات أخرى من الحضارة .

وكلمة أخيرة هى أن نظام الطلاق يفيد المرأة أكثر مما يفيد الرجل ، فهى فى الغالب الجانب الضعيف ، ويستطيع الرجل فى الاسلام أن يتزوج بأخرى وفى غير الاسلام يستطيع أن يخادن بانطلاق وحرية ، ولكن المرأة لا تجارى الرجل فى هذه الأمور .

وقد امتدح بروفسور ديسلو البولندى الاسلام لأنه شرع تعدد الزوجات بحدود معقولة ، فحال بهذا دون التعدد غير المشروع الذى يسود الجماعات فى الغرب ، ولأنه كذلك شرع الطلاق عند الضرورة ، فوضع قانونا رائعا بديلا للفراق المنتشر فى الغرب بدون قانون ولا حقوق .

القوامة :

تشير الآيات والأحاديث التى اقتبسناها آنفاً الى ضرورة إقامة علاقة قوية العرى بين الزوج وزوجته ، علاقة تكوّن من الزوجين فكراً واحداً وتجعل لهما هدفاً واحداً ؛ بحيث لا يكون هناك رئيس ومرءوس أو آمر ومأمور ، **ولكن الطبيعة أثبتت أن الرياسة ضرية لكل مجتمع صغير أو**

---

(١) لويس اسكندر : الاسرة ومشاكلها الاجتماعية ص ١٠٢ — ١٠٤ .

كبير ، وأن اختلاف الرأى قد يحـدث ، ولابد أن يوجد آنذاك من يبت فى الأمر ويتخـذ فيه قراراً ، ويكون مسـئولا عنه ، ومن هنـا كانت القوامة ، وكان طبيعياً أن تكون القوامة للرجل كفـاء مسئولياته المختلفة تجـاه الأسرة ، وكفاء تفوقه الطبيعى الذى أشرنا اليه من قبل .

أمـا طبيعة المرأة فيلاحظ فيهـا إرهاف العاطفة ، وسرعة الانفعال ، وشدة الحنان ، وقد خلقت هـذه الصفات فى المرأة لتستطيع بهـا أن تؤدى وظيفتهـا الأولى وهى الأمومة والحضـانة ، واذا كانت هـذه الصـفات لازمة فى مضمار الأمومة والحضانة فقد تكون ضـارة فى مضمار القيـادة والرياسة .

أمـا الرجل فلا يندفع فى الغالب مع عواطفه ووجدانه كمـا تندفع المرأة بل يغلب عليه الادراك والفكر وهمـا قوام المسئولية ، ومن أجل هـذا — بالإضـافة الى المسئوليات المالية والأدبية — كانت القوامة للرجل ، وقد علل القرآن الكريم لقوامه الرجل بقوله : « الرجال قوامون على النسـاء بمـا فضـّل الله بعضـهم على بعض ، وبمـا أنفقوا من أموالهم » (١) .

على أن قوامة الرجل يلزم أن تكون قوامة رحيمة ، يتعاون فيهـا مع الزوجة ويرفق بهـا ، ويلزم كذلك أن تكون عادلة ، فليس له أن يطلب من زوجته مطلباً غير عادل قال تعالى : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » (٢) .

ثم إن الاسلام أعطى المرأة الحق فى التدخل فى اختيار زوجهـا ، وبهـذا تشترك المرأة فى اختيار القيم عليهـا ، ولها أن تلاحظ فيه المقدرة على القوامة الرشيدة .

وتبـدو قوامة الرجل — كمـا قلنا آنفاً — عند اختلاف وجهات النظر ، أما فى الحياة العـادية فلكل سلطاته ، وكل من الرجل والمرأة بل

---

(١) سورة النساء الاية ٣٣ .
(٢) سورة البقرة الاية ٢٢٨ .

والخادم مسئول عمـا تحت يده فى عالم الأسرة ، قال صلى الله عليه وسلم كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيتـه ، فالرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجهـا وهى مسئولة عن رعيتهـا ، والخادم راع فى مال سيده وهو مسئول عن رعيته .

التـأديب :

يقيم الاسلام العلاقة بين الزوجين على الحب والوفاء والمودة ؛ وقد اقتبسنا فيمـا سبق كثيراً من آيات القرآن التى تحث على هذا الوضع ، وتلك العلاقة هى العلاقة المثلى التى يرسمهـا الاسلام ويرغب للنـاس الانتماء إليهـا ، وقد تكونت فى ظل هـذه العلاقة ملايين الأسر الإسلامية التى حققت من التآلف والود أسمى النماذج ، ولكن الاسلام — كما قلنا — دين الفطرة ، فهو لا يهمل واقع الحيـاة ، وفى واقع الحياة خلافات تنشب بين الزوج والزوج ، ولابد من أساليب للتغلب عليهـا قبل أن تصـل الى الفرقة وهى السلاح البتـار القاسى ، وقد وضع الاسلام مراحل للتوفيق بين الزوجين ، أشرنا إليهـا آنفا ، قال تعالى : « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن ، واهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان علياً كبيراً ، وإن خفتم شقاق بينهمـا فابعثوا حكمـا من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما[1] » .

وهكذا وضـع الاسلام هـذه الخطوات الأربع وقسمها بحكمتـه السامية الى مرحلتين ، أولاهمـا المرحلة التى يسوى الزوجان خلافاتهما دون تدخل عنصر خارجى ، وفى هـذه المرحلة محاولات أو طرق ثلاثة مرتبة ترتيباً دقيقاً :

أولهـا الوعظ وهو علاج رقيق هـادىء ، يرمى الى اعـادة الحق الى نصـابه فى يسر ، ويشرح وجهـات النظر ، ويدعو لإزالة الجفوة فى حب وقرب .

---

(١) سورة النساء الايتان ٣٣ و ٣٤ .

فإذا لم ينفع هذا السلاح استعمل الزوجُ السـلاح الثانى وهو الهجر ، والهجر سلاح يجمع بين اللين والشدة ، فيه يسر وفيه زجر •

فإذا تمادت المرأة فى نشوزهـا ، ولم تستمع لهتـاف الوعظ ، ولم يثنها الهجر ، كان للزوج أن يستعمل السـلاح الثالث وهو الضرب **إذا سمحت الظروف به** ، وسنتحدث عن ظروف الضرب بعد قليل •

أمـا المرحلة الثانية فهى التى تبدأ بعد عجز الزوجين عن تسوية خلافاتهما دون تدخل خارجى ، وفى هـذه المرحلة يلجأ الزوجان لحَكَمٍ من أهل الزوج وحَكَمٍ من أهل الزوجة ، والآية الكريمة تشـير بقولها « إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما » الى أن إخلاص الحكمين يُرْجى أن تكون له نتائج طيبة •

وفى التفكير الاسلامى أن إباحة أسرار الزوجين مرحلة يلزم تحاشيها مـا أمكن ذلك ، وضربُ الزوج زوجته أيسر من كلام الناس عنهمـا ، فكل مـا يحدث بين الزوجين يمكن إخفاؤه والاعتذار عنه وإزالة نتائجه ، ولكن حديث الناس عنهما قد يمتد وقد يسبب مالا تحمد عقباه •

استعمال سلاح الضرب :

وقد انتهز أعداء الاسلام فكرة وجود الضرب فى تشريع التأديب فى الاسلام ، فراحوا يولولون ويتباكون ، لا لقسوة فى التشريع ولكن لمرض فى نفوسهم ، ونحب أن نوضّح لهم الحقائق التالية :

أولا — نضع بين يدى القارىء الأحاديث الآتية التى تشرح استهجان ضرب الزوجة وامتهان الشدة معها ، قال صلى الله عليه وسلم :

— مـا أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم •
— خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى •
— أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً ، وخياركم خياركم لنسائهم •
— استوصوا بالنسـاء خيراً •
— أما يستحى أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب البعير ؟

ثانياً — إن إباحة الضرب تخضع لظروف الزمان والمكان ، وطبيعى أن هـذا السلاح لا يُسْتَعْمَل إلا حيث يرجى منه خير ، وعلى هـذا لا يستعمل هـذا السلاح مع امرأة تفضل التحكيم عليه ، أو تفضل الطلاق عليه ، ولا نزاع انه ذو فائدة مع بعض النسـاء ، فإذا ادّعى بعض المتحذلقين عدم جدواه فإننا نلجأ للأستاذ العقـاد لنقتبس منه الرد على هـذه القولة الزائفة • يقول سيادته : وإنه لمن السخف الرخيص أن يقال إن جنس النساء قد برىء من المرأة التى يصلحها الضرب ولا يصلحهـا غيره ، ونقول إنه سخف رخيص وخيم ، لأنه ذلك السخف الذى يضر كثيراً ولا يفيـد أحداً (١) •

ثالثاً — لماذا لم يصرخ هؤلاء هـذا الصراخ ضـد القوانين العسكرية التى تبيح ضرب الجنود مع كثرة العقوبات التى يمكن إنزالهـا بالجنود المخطئين ؟ تلك العقوبات التى لا يوجد لهـا نظير فى الحيـاة الزوجية ، كالحبس وتنزيل الرتبـة ، وقطع الأجـور ، والحرمان من أنواط الشرف وغيرهـا •

رابعاً — هناك رأى لعالم أوربى من علمـاء النفس عن إحساس بعض النسـاء تجاه الضرب ، ونحن ننقله بنصـه ، لا لندعو لاستعماله ، ولكن لنعرضه للتفكير ، فربمـا صحّ أن الضرب يكون أحياناً وسيلة للإصحاح • قال G. A. Hadfield فى كتابه « علم النفس والأخلاق » مـا يلى : وغريزة الخضوع تَقْوَى أحياناً ، فيجـد صاحبها لذة فى أن يكون متسلَّطاً عليه ، ويحتمل — لذلك — الألمَ بغبطة ، وهذه الغريزة شائعة بين النساء وإن لم يعرفنها ، ومن أجلها اشتهرن بالقدرة على احتمال الألم أكثر من الرجل ، والزوجة من هـذا النوع تزداد إعجاباً بزوجهـا كلمـا ضربها وقسـا عليها • • • ولا شىء يحزن بعض النساء مثل الزوج الذى يكون رقيـق الحاشية دائمـا ، لا يثور أبداً على الرغم من تحدّيهن ، ولا يعرف شقاءَ

---

(١) حقائق الاسلام واباطيل خصومه ص ١٨٥ •

هـذه المعيشة ولا التوقَ الى الزوج الذى يستطيع أن يثور ولو مرة واحدة إلا النسوةُ اللاتى جربن الحياة مع زوج من هذا الطراز (١) .

وقريب من هذه الاتجـاه ، رأى الأستاذ محمد زكى عبد القادر (٢) الذى يقول فيه :

— المرأة تحب الرجـل العَصِىَّ . . تحب أن تصـطدم إرادتهـا بإرادته ، تحب الصراع للظفر تأكيداً لسلطانها ، وتحب أكثر من كل شىء الهزيمة أمام إرادته .

— ولكنها تغضب .

— تغضب وتملأ الدنيـا صياحاً ، وفى قرارة نفسـها حلاوة الضعف أمام قوة الرجل .

* * *

وبعد ، لا أريد أن أُطيل الحديث عن هذا الموضوع أكثر مما فعلت ، وكل مـا أريد أن أضيفه هو أن أكرر أن هـذه الموضوعات الى يتشـدق بهـا أعداء الاسلام عن المرأة لم تعـد تحتاج الى دراسـة وتعمق ، فقد غلب الخير على العـالم الاسلامى فاتجهت أغلبية المسلمين الى مثاليـة الاسلام ، فلم يعد هناك تعـدد زوجات يقلق ، وليس هنـاك عدد من المطلقات يثير الأسى كمـا سبقت الاشارة الى ذلك ، ولا يكـاد الضرب يسـتعمل على الإطلاق فى تأديب الزوجـة ، وربمـا لا يزال يستعمل فى بيئـات لا ترى فيـه غضاضة تُذْكَر ، وهـو لا يستعمل كسـلاح أسلمه الاسلام للزوج ، بل لأن البيئة تعرف الضرب وتقره سلاحاً للتأديب بين أفرادهـا على العموم ، أمـا القوامة فالتعاون بين الزوج والزوجة هدف من أهداف الاسلام أخـذ ينتشر ويمتـد وتتعمق جذوره ، وفيمـا

---

(١) نقلا عن المراة فى الاسلام ص ٧ .
(٢) مقال بصحيفة الاخبار فى ١٩٦٢/١٢/٢٧ .

يلى إحصائية تثبت ضآلة نسبة تعدد الزوجات فى جمهورية مصر العربية ، وتثبت كذلك أن هذه النسبة تقل من عام الى عام .

	سنة ١٩٣٣	سنة ١٩٤٣
الزواج باثنتين	٤ر٤٩ — ٪	٢ر٩٥ — ٪
« بأربعة	٠ر٢٩ — ٪	٠ر١٧ — ٪
« بثلاثة	٠ر٠٤ — ٪	٠ر٠٢ — ٪

وفى رأيى أن هـذه الأرقام الناطقة جديرة أن تخرس ألسنة المتكلمين فى هـذه الموضوعات وأن تمسك بأقلامهم ، وجدير بهم إن كانوا منصـفين أن يتجهوا بعنايتهم الى ما هو أجدى ، أمـا الغربيون الذين أطلقوا ألسنتهم وأقلامهم للنيل من الاسلام والمسلمين عن طريق المرأة المسلمة ، فإننـا ندعوهم ليتجهوا بعنايتهم الى مشكلة المرأة الغربية التى تمر بمأساة قاسية تهدد كيانهـا وكيان الأسرة الغربية ، وتهـدد مستقبل الجيل الجديد . إن مـا يسمونه « الأم الآنسة » فى الغرب وآلاف المواليد الذين لا يعرفون لهم آباء لمشكلة تحتاج الى حل سريع يرمى الى ضـمان نوع من الحصانة لهؤلاء المشردات ولأولادهن ، وقد ذكرت الاحصائيات الرسمية أنه بين كل تسـعة أطفال وُلِدوا فى لندن خلال عـام ١٩٦٠ واحد لم تتزوج أمه ، وتِسْعُ المواليد عدد كبير جداً (١) .

وذكرت الاحصائيات الأمريكية أن هـذا الاتجاه ينمو نموا سريعا وفاحشاً ممـا يهدد الجيل القادم ويهـدد البشرية ، فقد قررت هـذه الاحصائيات عن سنة ١٩٦٧ أنه وُلِدَ طفل غير شرعى بين كل ستة أطفال ولدوا هذا العـام فى نيويورك ، وقد كان أطفال نيويورك غير الشرعيين سنة ١٩٥٧ واحدا بين كل خمسـة عشر طفلا (٢) وهـذا يؤكد التطور الخطير نحو الخطيئة الذى حدث خلال عشرة أعوام .

---

(١) صحيفة الاخبار عدد ١٩٦٢/١/١ .
(٢) صحيفة الاخبار عدد ١٩٦٨/٧/٢ .

الرق وموقف الاسلام منه

نريد هنا أن نوضح موقف الاسلام من الرق ، ولكن يجدر بنا قبل ذلك أن نعطى فكرة عن موقف الأمم المختلفة منه ، فقد كان موقف الاسلام من الرق متأثراً باتجاهات الأمم المختلفة عند ظهور الاسلام ، كما كان مؤثرا فى هذه الاتجاهات ، كان الاسلام متأثراً بمعنى أنه وجد الرق — كما سيأتى — نظاماً شائعاً ، من أهم موارده الأسْرُ فى الحروب ، فأجاز الاسلام للمسلمين أن يأسروا من أعدائهم ما استطاعوا حتى تتحقق المعاملة بالمثل ، وبهذا أجل الاسلامُ الى حينٍ هدفه الأسمى وهو الحرية ، أو قل وصل الى الهدف خطوة بعد خطوة •

وكان الاسلام مؤثراً فى اتجاهات هذه الأمم لأنه بالتشريع الذى أجراه للرق أَبَانَ أنه مشكلة ، ولم يكن أحد قبل الاسلام يدرك أن الرق مشكلة ، بل كان عملا طبيعياً ، ووضع الاسلام الطرق لحل هذه المشكلة ، وكان ما رسمه الاسلام خطوة واسعة ، ففتح الأعين لتحرير الأرقاء ، حتى تمَّ ذلك فى القرنين الأخرين •

ما اتجاهات الأمم تجاه الرق ؟

هذا ما سنتكلم عنه فيما يلى :

الرق فى الحضارات الشرقية القديمة

لا يعرف التاريخ بداية لاستعباد الانسان لأخيه الانسان ، ومنذ عُرفت الحضارات ودوِّنَ التاريخ نجد الرق موجودا ونجده قاسياً :

ففى مصر القديمة وجدت العبودية ، وعلى أكتاف رقيق الأرض بُنِيَتْ الأهرامات ، وأقيمت المعابد ، ونحتت المسلات •

وفى الصين كان الرق منتشراً ، وكان من أسبابه الفقر الذى كثيراً ما كان يدفع بصاحبه الى أن يبيع نفسه أو أولاده تخلصاً من العوز الذى كان واسع الانتشار [1] .

وفى الهند – حيث نظام الطبقات – كان الشودرا (Sudra) والمنبوذون Outcasts يمثلان الغالبية العظمى بين السكان الأصليين للبلاد ، وكانت هاتان الطبقتان تكوّنان طبقة العبيد ، وكان للبراهمة (الكهنة Brahman) الحق فى أن يأخذوا من مال الشودرا ما يشاءون ، فهذه الطبقة وأفرادها ملك خالص للبراهمة ، أما طبقة المنبوذين فلم يكن لها الحق أن تملك شيئاً ، وكان من التفضل على أىٍّ من أفرادها أن يمتلكه أحد ، وأن يخرجه من طبقة المنبوذين الى المجتمع .

أما عند الفرس فقد انتشرت نظرية الحق الإلهى وأصبحت عقيدةً مرعيّة عند الجميع ، وبمقتضى هذه النظرية اعتقد الملوك – واعتقد الناس معهم – أن دماً من دماء الآلهة تجرى فى عروقهم ، وأنهم لذلك طبقة أخرى غير طبقة البشر ، وأن مَنْ سواهم عبيد لهم ، ولا ينال الشعب الرحمة من الآلهة إلا إذا رضى عنه الملوك ، وعلى هذا يمكن القول إن سكان فارس كانوا آلهة وعبيداً .

الرق عند اليونان :

وكان استعباد البشر للبشر مطلقاً وبكثرة فى حضارة اليونان ، وان قراصنتهم يتخطفون أبناء الأمم الأخرى فى مختلف السواحل ويبيعونهم فى أسواق أثينا وغيرها ، ولما صارت لليونان مستعمرات فى آسيا الصغرى ، صارت لهم **فيها أسواق للاتجار بالرقيق ، حتى امتلأت بيوت الإغريق بالإماء والعبيد** يستعبدهم اليونان جميعاً ، لا فرق بين غنى وفقير ، ولم تُؤْثَرْ فى تاريخهم كلمة واحدة عن أى حكيم من

---

(١) انظر كتاب تاريخ الصين القديم لمؤلفه . M. Olive

حكمـائهم باستنكار استعباد الانسان لأخيه الانســان أو للترغيب فى تحريره (١) •

وقسم الفلاسفة اليونان الجنس البشرى قسمين : حر بالطبع ورقيق بالطبع ، وقالوا إن الثـانى مـا خلق إلا لخدمة الأول ، وإن عليــه أن يقوم بالأعمـال الجسمانية ويقوم الجنس اليونانى وهو الحر بالطبـع بالأعمال الفكرية والادارية والمناصب الهامة (٢) •

وبنـاء على هذه القاعدة التى وضعها فلاسفة اليونان استباح اليونان لأنفسهم أن يتلصصوا فى البحـار فيخطفوا من يصادفهم ممن يكونون على الشواطىء والسواحل ، فيصبح هؤلاء المخطوفون أرقاء مستعبدين للجنس اليونانى (٣) •

ويرى أفلاطون فى الجمهورية الفاضلة حرمان العبيد حق المواطنة ، وإجبارهم على الطاعة والخضوع للأحرار من سادتهم (٤) •

ويوافقه تلميذه أرسطو على ذلك فهو يجعل كلمة (المواطن) مرادفة لكاملة (حر) ويرى أن وظيفة العبيد تحصيل الثروة الضرورية للأسرة والقيـام على خدمتهـا ، ذلك لأن (المواطن) حَبَتْه الطبيعة ذكـاء وشجاعة ، فبنى لنفســه مدينة وتفرّغ لسياستها وخصص حياته لخدمتها فى السلم والحرب ، فلا يتسع وقتــه للعناية بشئون معاشه ، وتَأبَى عليه كرامته أن يتنزل للأعمال اليدوية يزاولهـا فيشوّه يديه وخلقته ، ويظهر وضيعاً ، فكان لابد له أن يجـد من يتكفل بذلك دونه ، وقد أوجدت

---

(١) الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الازهر سابقا : مجلة الازهر صفر سنة ١٣٧٣ .

(٢) انظر النظم الاســلامية للدكتورين حسن ابراهيم وعلى ابراهيم ص ٣٥٩ .

(٣) انظر كتاب الرق فى الاسلام لشفيق باشا ص ١٩ .

(٤) عباس العقاد : حقائق الاسلام ص ٢١٦ .

الطبيعة شعوباً قليلة الذكاء أقوياء البنية ، فقدمت له منهـا آلات للحياة ، هى آلات حية ، وأولئك هم العبيد (١) .

الرق عند الرومان :

أمـا عند الرومان فإن النخاسين كانوا يتخذون الحروب الكثيرة التى اعتـاد الرومان أن يشعلوها مواسم لتجارتهم ، وكان النخّاسون يصحبون الجيوش لا للاصطدام بالعـدو ، بل ليشـتروا الأسرى والمغلوبين من صبيان وبنـات ورجال ونساء بأبخس الأثمـان ، حتى لقد كان الغنى من النخاسين يشترى ألف إنسـان صفقة واحدة عقب نصر كبير تعـده الانسانية خزياً ، ويعده تاريخ الاستعمار الرومانى عظمة ومجداً ، وفى مدينة روما كانت للرقيق سوق تعرض فيهـا هذه البضائع للمزاد العلنى على رابية مرتفعة : فيكون الرقيق عرياناً من كل مـا يستره ، ذكراً كان أو أنثى ، كبيراً أو حدثاً ، ولمن شـاء من الناس أن يدنو من هـذا اللحم الحى المعروض للبيع فيجسـه بيده ، ويقلبه كيف يشـاء ولو لم يشتره فى النهـاية ، والقانون الرومانى لم يكن يعتبر الرقيق إنساناً له شخصية ذات حقوق على الانسانية ، بل كان يعتبره شيئاً من الأشياء كسائر السلع التى يبـاح الاتجار بهـا (٢) .

ومن وسائل الرق عند الرومان — بالاضافة الى الحرب التى سبق أن ذكرناها — أنهم كانوا يسترقون المدين الذى لم يتيسر له الوفاء بدينه ، فيصبح المدين رقيقا للدائن (٣) .

الرق عند اليهود :

أمـا عند بنى إسرائيل فقد أباحت التوراة الاسترقاق بطريق الشراء

---

(١) دكتور ابراهيم مدكور : تاريخ الفلسفة ص ٥٦ .
(٢) الشيخ الخضر فى المرجع السابق .
(٣) انظر الرق فى الاسلام لشفيق باشا ص ٢٣ .

أو سبياً فى الحرب ، فجعلت للعبرى أن يستعبد العبرى إذا افتقر ، فيبيع الفقيرُ نفسَه للغنى ، أو يقدم المدين نفسه للدائن حتى يوفّى له الثمن ، ويبقى عبداً له ست سنين ثم يتحرر ، ففى سفر الخروج : اذا اشتريت عبداً عبرياً فستّ سنين يخـدم وفى السابعة يخرج حراً مجاناً (١) ، واذا سرق العبرى ماشية وذبحها ، أو أى شىء استهلكه ، ولم يكن فى يده ما يعوّض به صاحبه يباع السارق بسرقته ، وأباحت التوراة للعبرى أن يبيع بنتــه فتكون أمــةً للعبرى الذى يشتريها .

أما الاسترقاق سبياً فى الحروب فهو أيسر ما ينزله اليهود بأعدائهم ، وقد نصّ العهــد القــديم على ما يلى :

« حين تقرب من مدينة لكى تحل بها اســتدعها الى الصــلح ، فإن أجابتك الى الصــلح وفتَحـَت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، واذا دفعها الرب إلهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحــد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة ، كلّ غنيمتها فتغتنمها لنفسك » (٢) .

الرق عنــد المســيحيين :

ولمــا جاءت المسيحية كانت عبودية الانسان شائعة فى كل العالم ، نقل الدكتور جوزييف بوست ، أحــد رجال الجامعة الأمريكية الأولين فى بيروت (٣) ، أن المسيحية لم تعترض على العبودية من وجهها السياسى ، **ولا من وجهها الاقتصــادى ، ولم تحرض المؤمنين على منابذة جيلهم فى آدابهم من جهة العبودية ، حتى ولا على المباحثة فيها ، ولم تقل شــيئاً ضد حقوق أصحاب العبيد ، ولا حركت العبيد الى طلب التحرر ، ولا بحثت**

---

(١) سفر الخروج : ٢١ — ٢ .
(٢) سفر التثنية ، الاصحاح العشرون : ١٠ — ١٤ .
(٣) قاموس الكتاب المقدس المجلد الثانى ص ٦٠ — ٦١ طبع المطبعــة الامريكية فى بيروت سنة ١٩٠١ .

عن مضار العبودية ، ولا عن قسوتها ، ولم تأمر باطلاق العبد أصلا ، وبالإجمال لم تغير النسبة الشرعية بين السيد والعبد بشيء ، بل على عكس ذلك أثبتت حقوق السادة وواجبات العبيد • •

وأمر بولس العبيد بإطاعة سادتهم كما يطيعون السيد المسيح ، فقال فى رسالته الى أهل إفسس (١) •

« أيها العبيد ، أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح ، لا بخدمة العين كمن يُرْضى الناس ، بل كعبيد المسيح ، عاملين مشيئة الله من القلب ، خادمين بِنِيَّةٍ صالحة كما للرب ليس للناس ، عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبداً كان أو حراً » •

وأوصى بطرسُ الرسولُ بمثل هذه الوصية ، وأوجبها آباء الكنيسة لأن الرق كفارة عن ذنوب البشر يؤديها العبيد لما استحقوه من غضب السيد الأعظم •

وأضاف القديس الفيلسوف توماس الأكوينى رأى الفلسفة الى رأى الرؤساء الدينيين ، فلم يعترض على الرق بل زكّاة لأنه — على رأى أستاذه أرسطو — حال من الحالات التى خُلِقَ عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعية ، وليس مما يناقض الإيمان أن يَقْنَعَ الانسان من الدنيا بأهون نصيب (٢) •

الرق فى أوربا :

فيما عدا اليونان والرومان — وقد سبق الكلام عنهما — ليس لأوربا تاريخ قديم يذكر سوى تاريخ الجرمان ، ويقول الأستاذ شفيق

(١) الاصحاح السادس : ٥ — ٩ .

(٢) الاستاذ العقاد : حقائق الاسلام ص ٢١٥ .

(باشا) عن موقف الجرمان من الرق مـا يلى : وكانت المقامرة تخرج بالمولعين بهـا الى حد أنهم يقامرون على نسائهم وأولادهم ، بل وعلى حرياتهم الشخصية ، فكان ذلك عند الجرمان مصدرا من مصادر الرق[1] ٠

ولما بدأ تاريخ أوربا العـام يظهر فى العصـور الوسطى ، ظهر معه نظام الأمراء والاقطاع ، أى نظام السـادة من جانب والأرض ورقيق الأرض من جانب آخر ، فقد كان المزارعون عبيداً للملاك يباعون مع الأرض اذا بيعت الأرض ،وليس لواحد منهم الحق فى الخروج من أرض الى أرض أخرى ، لأنه كان كالآلة تابعاً للأرض مملوكاً لصاحبها ، **ولم يلغ الرق فى أوربا إلا فى القرن التاسع عشر ، وكان فى الحقيقة إلغـاء لاسترقاق الأوربيين فقط ، وتحويلا لنشـاط التسلط تجـاه آسيا وإفريقية** ، وقد كان الاسترقاق فى آسيا منتشراً باسم الاستعمار ، أمـا فى إفريقيـة فكان استرقاقاً سافرا ، وكانت أسواق النخاسين التى فتحهـا الأوربيون تتمتع برواج عظيم وتفيض بربح وافر على تجارهـا ، وفى القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر تحالف تجـار الرقيـق البيض مع بعض زعمـاء القبائل الافريقيين وأخذوا يهجمون على مساكن الافريقيين ويخطفون أطفالهم ويعرضونهم للبيع فى أسواق العبيد ٠

الرق عند العرب :

انتشر الرق عند العرب قبل الاسلام انتشاراً كبيراً ، وكانت وسيلته الحروب التى لا تنقطع فى الجزيرة العربية ، وكان الغالب يأسر من المغلوبين من يستطيع ليصبحوا عبيداً ، ومن وسائل الرق عند العرب القوة فإذا قابلت قبيلة قوية قبيلة ضعيفة استسلمت القبيلة الضـعيفة للقوية وخضعت لهـا وأصبح أفرادهـا عبيداً ٠ ومن وسائل الرق عند العرب الهجوم السريع ، فالشخص الذى يمشى وحده ، أو الجمـاعة من الناس

---

(١) الرق فى الاسلام : ص ٣١ ٠

دون أن تستطيع حماية نفسهـا كانت عرضة للخطف نتيجة هجوم سريع ، فيصبحون بذلك عبيداً .

* * *

وننتقل الآن الى نقطة مهمـة جديرة بالإيضاح ، هى أن الرق عند هـذه الأجناس جميعاً يشمل الجسم والعقل ، فالرقيق يتبع سـيده فى دينه وتفكيره كمـا يعمل له بجسمه ، ولا حق للرقيق أن يفكر أو أن يتبع تفكيراً آخر غير تفكير سـيده وللسيد أن يُنْزل برقيقه من العقـاب مـا يشاء لأنه يملكه ملكاً كاملا .

تلك المقدمة القصـيرة عن الرق فى الدول المختلفة نستطيع بهـا أن نعرف بوضوح مكانة التفكير الاسلامى فى مسألة الرق .

الاسلام والرق

نبـدأ حديثنا عن الاسلام والرق بأن نسأل سؤالا هاماً هو : مـا موقف الاسلام من الرق ؟ وهل ألغاه ؟

أمـا موقف الاسلام من الرق فيلخصه قوله عليه السـلام « شر الناس من باع الناس (١) » . وأمـا من ناحية إلغائه فنقرر أن الاسلام — إن كان لم يُلْغِ الرق إلغاء صريحاً مباشراً — فقد وضـع نظاماً يكفل إلغاء الرق ، فيمكن القول بأن الاسلام ألغى الرق بطريق غير مباشر .

لمـاذا لم يلغ الاسلام الرق بطريق مباشر ؟

وما هو هـذا النظام الذى وضعه الاسلام ليلغى الرق بطريق غير مبـاشر ؟

هذا ما سنتكلم عنه فيما يلى بتفصيل كافٍ .

---

(١) كتاب العلل مخطوط ببرلين رقم ٨٣٢٧ ورقة ٢٠٦ جـ نقلا عن آدم متز : الحضارة الاسلامية جـ ١ ص ٢٧٧ .

أمـا الاجابة عن السؤال الأول ، وهو لمـاذا لم يلْغِ الاسلام الرق بطريق مباشر ، فإنها تنحصر فى سببين •

١ ــ التكافؤ فى المعاملة ، فقد كانت هناك حروب بين المسلمين وغير المسلمين وكان غير المسلمين يستحلون استرقاق المسلمين ، فكان لابد أن يعاملهم المسلمون بالمثل حتى يقتنعوا بالفكر الإسلامى تجاه هذا الموضوع •

٢ ــ للإسلام فلسفته فى معالجة كل مسألة ليست أساساً من أسسه : ففى معالجة هـذه الشئون ، تقضى فلسفة الاسلام ، أن تُعالج برفق وأناة ، حتى يصـل الاسلام الى هدفه بدون أن يحـدث اضطرباً بين معتنقية ، فشرب الخمر ، والرق ، وتعـدد الزوجات ، للإسلام تجاهها هدف ، ولكنه يعمل لكى يصل الى هدفه بيسر ، وبعدّة خطوات أحيانا بدلا من خطوة واحدة ، أمـا الأمور الرئيسية فى الاسلام كتوحيد الله وترك عبـادة الأصنام ، فإن الاسلام يواجهها مواجهة صريحة مباشرة ، ليقطع دابرها من أول الشوط •

ونجىء بعد ذلك للسؤال الثانى وهو : ما النظام الذى وضعه الاسلام ليلغى الرق بطريق غير مباشر ؟

فى الاجابة عن هذا السؤال نقرر أن ذلك النظام ينحصر فى مبدأين مهمـين :

١ ــ تضييق المدخل •

٢ ــ توسيع المخرج •

وسنشرح فيما يلى كلا من هذين المبدأين •

١ ــ تضييق المدخل :

جاء الاسلام وللرق وسائل أو مداخل كثيرة سبق أن ذكرناهـا ، **ومنهـا البيع ، والمقامرة ، والنهب ، والسـطو ، ووفاء الديون ، والحروب**

مهمــا كانت أنواعهــا وأسبابها ، والقرصنة ، والطبقية ، . . . فألغى الاسلام جميع هــذه المداخل ، ولم يُبْقِ منهــا إلا مدخلا واحداً ، وضيَّقه الاسلام حتى لم يعد ينفذ منه الى الرق إلا القليل النادر أشــد الندرة ، وذلك المدخل هو الحرب الدينية ، أى التى يُقْصَد بهــا الجهاد فى سبيل الله لرد اعتداء يقوم به غير المسلمين على المسلمين ، بشرط ألا يكون الأسير وقت أسره مسلماً ولو كان فى جيش الأعداء ، وأن يضرب الإمام عليه الرق .

يقول الشيخ عبد العزيز جاويش إن الشرع لا يبيح أن يُسْتَرَقَّ مسلم أصلا ، ثم إنه لا يبيح بعد ذلك إلا استرقاقَ أسرى حرب شرعية قامت لإعلاء كلمة الله ، ويُراعى فيها أن تكون مسبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم ، **وقد سدَّ الاسلام بذلك ، تلك الأبواب التى ذكرناها والتى كانت مصادر للرق فى الأمم المختلفة قبل الاسلام وبعده .**

ومن الأدلة الواضحة على أن الاسلام يضيق مدخل الرق ويميــل للتحرير مــا ذكره الفقهاء من أنه إذا وُجد طفل ادعى رجل نصرانى أنه ابنهُ وادعى مسلم أنه عبــده ، فإنه يُقضَى به للنصرانى حتى لا يدخل الطفل باب الرق ولو كان فى رقِّه إسلامه (١) .

ومن تضييق المدخل أن الاسلام وضع تنظيمــا لأسرى الحرب لم يكن معروفاً قبل الاسلام ، فقد كان الأسرى فى الأمم المختلفة يعتبرون أرقاء بمجرد وقوعهم فى الأسر ، ولكن الاسلام اشــترط لاعتبارهم أرقاء أن يضرب الامام عليهم الرق كمــا سبق القول : أمــا قبل أن يضرب الامام الرق على الأسرى فيمكن أن تتم نحوهم التصرفات الآتية :

١ ـــ تبادل الأسرى ، وذلك بأن يرد المسلمون من أسراهم عدداً

---

(١) دكتور محمد يوسف موسى . مجلة « المسلمون » العدد الاول ص ٨ .

الى الاعداء نظير إطلاق عدد مقابل من أسرى المسلمين الذين وقعوا في أيدي الأعداء .

٢ — المنّ على الأسرى أو على بعضهم وذلك بإطلاقهم من غير مقابل لسبب من الأسباب .

٣ — قبول الفداء منهم ، وذلك بإطلاقهم نظير مقابل مادى أو أدبى ، كما فعل الرسول صلى عليه وسلم فى أسرى بدر ، فقد أطلق بعضهم نظير مقابل مالى ، وجعل للقارئين منهم أن يفتدوا أنفسهم بتعليم القراءة والكتابة لعدد من أبناء المسلمين (١) .

نص قرآنى يمنع الرق :

يقول الله تعالى « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منًا بعدُ وإما فداء » (٢) .

ويفهم من هذه الآية أنه لا رق فى الاسلام ، وأن الأسْرَ يزول بطريق المن أو الفداء عقب انتهاء الحرب ، **ويقرر ابن القيم (٣) أن الرسول لم يسترقّ رجلا حراً قط** ، وكان استرقاق الرجال مقصورا على الأرقاء الذين يؤثرون البقاء تحت ظل الاسلام على عودتهم لسادتهم ، ويميل أكثر المفكرين المسلمين الى اتخاذ هذا النص أساساً للحكم فى الأسرى ، وأنه هو الأصل الدائم لهذه القضية ، ويعدون ما وقع بالفعل من قتل بعض الأسرى أو استرقاقهم أحداثاً حصلت لمواجهة حالات خاصة ، وهذا ما نميل اليه ، وبناء على ذلك يكون الرق لا أصل له فى الظروف العادية فى التفكير الاسلامى .

---

(١) المبرد : الكامل ص ١٧ .
(٢) سورة محمد الاية الرابعة .
(٣) زاد المعاد ج ٣ ص ٢٩٠ وانظر (الجهاد فى التفكير الاسلامى للمؤلف) .

وتنفيذا لهـذا الاتجاه كان الرسول يبذل أقصى الجهـد لإطلاق الأسرى كمـا حدث فى غزوة بنى المصطلق وغزوة حنين والطـائف (١) وبنـاء على ذلك أيضا رفض عمر بن الخطاب اعتبار أهل الشـام والعراق بعد انتصـار المسلمين أرقاء . وقرر بقاءهم أحرارا وأن يدفعوا الجزية اذا لم يدخلوا الاسلام (٢) .

تبادل الأسرى وافتداؤهم :

وقد ذكرت لنـا المراجع التـاريخية صورة جميلة لتبادل الأسرى وافتدائهم مع الروم ، ونحن نوردهـا فيمـا يلى :

كانت عملية الفداء تتم بصـورة منتظمة تقليدية ذات روعة خاصة ، فيقف المسلمون على الضفة الشرقية لنهر اللامس وتقف الروم على ضفته الغربية . واللامس نهر صغير ضيق كأنه ترعه ويمـد جسران من القوارب بين الضفتين ، وكلمـا أطلق الروم أسيراً مسلماً أطلق المسلمون أسيراً روميـاً معادلا له من حيث المكانة والسن وسلامة البدن ، وكلمـا وصل الى المسلمين أسـير من أسراهم صاحو : الله أكبر ، وعندمـا يصل الى الروم أحد أسراهم يصيحون صياحاً مماثلا ، فاذا بقيت لأحد الجانبين بقية من الأسرى افتديت بالمال (٣) .

وتوضح لنـا المراجع التاريخية كذلك أن المسلمين كانوا يتقربون الى الله بإطلاق الأسرى تبرعاً ، وفى الحروب الصليبية نجـد صلاح الدين الأيوبى ورجاله يتبارون فى هـذا المجال .

٢ — توسيع المخرج :

أمـا أولئك الذين استرقوا بطريق أو بآخر ، فإن الاسلام يفتح

---

(١) انظر الجزء الاول من موسوعة التاريخ الاسلامى للمؤلف .
(٢) دكتور شلبى : الاقتصاد فى الفكر الاسلامى ص ١٨٨ .
(٣) انظر تاريخ التمدن الاسلامى لجورجى زيدان ج ١ ص ٢١٦ (تعليق النـاشر) .

لهم الأبواب ليعيــد الحرية لهم أو ليعيدهم الى الحرية ، إذ أن الاسلام يعتبر الرق عارضاً ويعمل على إزالته ، وفيمــا يلى ذكر لهذه الأبواب :

١ — جعل الاسلام العتق مرغوباً فيه ووعد بالثواب العظيم من الله لمن يعتق رقبة ، قال تعالى : « ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة ومــا أدراك ما العقبة فك رقبة (١) » .

وقال : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المــال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والســائلين وفى الرقاب (٢) » .

٢ — جعل الاسلام العتق كفارة للحنث فى اليمين ، وكفارة لكثير من الخطايا ، قال تعالى : « ولكن يؤاخذكم بمــا عقدتم الأيمــان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط مــا تطعمون أهليكم ، أو كســوتهم ، أو تحرير رقبة » (٣) .

وقال : « ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة . . . » (٤) .

وقال فى نفس الآية : « وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثــاق فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة » (٥) .

وقال : « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لمــا قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » (٦) .

٣ — مكاتبة العبد ليتحرر بدفع مــال يقدمه لسيده ، ويرى بعض

---

(١) سورة البلد الاية ٨ — ١٤ .
(٢) سور البقرة الاية ١٧٢ .
(٣) سورة المائدة الاية ٨٩ .
(٤) سورة المجادلة الاية الثالثة .
(٥) سورة التوبة الاية السادسة .
(٦) سورة النور الاية ٥٨ .

الفقهــاء أن المكاتبة واجبة إذا طلبها العبد وكان هناك أمل فى أن يوفى بمــا وعد • والمكاتبة عقد بين السيد والعبد لإعادة الحرية لذلك العبــد نظير دفعه مالا للسيد •

وقد اعتمد الفقهاء الذين قالوا بالوجوب ، على قوله تعالى : « والذين يبتغون الكتاب ممــا ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً » [1] ، وبعد المكاتبة يُعْطَى العبدُ حق التجارة والعمل كمــا يعطى حق التملك والحرية ليعمل لنفســه ، فلا يعمل لسيده ، بل يتحرر للكسب لسداد النجوم (الأقساط) ، وبالإضــافة الى عمل المكاتَبِ ليحصل على المــال اللازم للسداد نجد الاسلام يجعل من حقه نصيباً من الزكاة ليســاعده على السداد ، قال تعالى : « إنمــا الصدقات للفقراء والمساكن والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى **الرقاب** [2] • كمــا يُلْزِمُ الاسلامُ السيدَ أن يحطّ عنه بعض النجوم ، أو أن يساعده بمــال ليوفّى بمــا وعد به ، قال تعالى : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » •

٤ — التدبير : وهو أن يوصى السيد بأن يكون عبده حراً بعد موته ، وسمى كذلك لأن السيد تدبر أمر دنيــاه فأبقى العبد ليعــاونه فى الدنيا ، وتدبر امر آخرته فأوصى بعتق العبد عقب موته ليســاعده ذلك فى الآخرة بتكثير حسناته ، والتدبير موصى به ويحث الشرع عليه ، ولا يجــوز بيع المدبَّر ولا هبته ولا رهنه فى أصح القولين لقوله عليه السلام : « إن المدبر لا يبــاع ولايورث ولا يوهب وهو حر من الثلث » •

٥ — إذا أصاب السيدُ أمته فحملت منه ووضعت ما تبين منه شىء من خلق آدمى حَرُمَ عليه بيعهــا وهبتهــا وعتقت بموته ، وكان ولده منهــا حراً ، وهذا بخلاف النظام الذى كان متبعاً عند العرب قبل الاسلام والذى كان يقضى أن تظل الأمَةَ أمَةً وإن ولدت لسيدها ، وأن يكون ابنها

---

(١) سورة النور الاية ٥٨ .
(٢) سورة المائدة الاية ٨٩ .

منه عبداً ، وقد كان عنترة العبسى ابن أمة وكان عبداً لأبيه ، وحدث أن هوجمت عبس ولم يهتم عنترة بالدفاع عنها ، فقال له أبوه : كرّ يا عنترة ، فأجاب : إن العبد لا يعرف الكر ، وإنما يعرف الحلاب والصرّ (الشدّ على الناقة) فقال له أبوه : كر وأنت حرّ . وهكذا لم ينل عنترة الحرية إلا عندما احتاجت القبيلة الى كفاحه ، وقبل ذلك كان عبداً لأبيه .

٦ — إن من أعتق بعض عبد يملكه ، عتق كله ، فان كان يملك بعض العبد وله شريك يملك باقيه فأعتق نصيبه عتق العبد كله وقُوّم عليه نصيب الشركاء ان كان موسراً ودفع لهم ثمنه ، قال عليه السلام : « من اعتق شركاً له فى عبد وكان موسراً قوم عليه ثم يعتق كله » . فإن كان معسراً سعى العبد فى قيمة الباقى لأنه هو الذى انتفع بالحرية ، ويرى بعض الفقهاء فى هذه الحالة عدم عتق الباقى .

٧ — إن مَلَكَ واحداً من والديه أو مَلَكَ بعض أولاده عتق فى الحال.

ويتضح من ذلك تمام الوضوح أن الاسلام أنهى الرق من الناحية العملية فالمرأة ينتهى رقها إذا أصابها سيدها وحملت منه ، وهذا يجعل عنصر النساء قريباً جداً من الحرية ، أما الرجال فقد فتحت لهم الأبواب المتعددة التى ذكرناها ، وأبرزها باب المكاتبة الذى يلتزم السيد أن يقبله وأن يساعد عبده على الوفاء بما التزم .

معاملة الرقيق فى الاسلام :

على أن الرق إن بقى بعد ذلك فان الاسلام كفل زوال أثره عملياً ، وذلك بمحو الفوارق ، والتوصية بالأرقاء حتى وُجِدَ من يؤثر الرق على الحرية كما سيأتى عند الحديث عن الرق الصناعى ، وأبرز ألوان المعاملة التى أتاحها الاسلام للأرقاء ، هى أن الرق يتصل بالعمل الجسمانى ولا يتصل بالعقل ، فالرقيق يعمل لسيده ويطيعه فى حدود هذا الوضع ، ولكنه حر فى تفكيره يعتنق الدين الذى يرتضيه ، وليس ملزماً أن يتبع سيده

فى افكاره وليس للسيد أن يطلب من عبده أن يرتكب إثمـا أو يقتل نفساً بغير حق ، وللعبد أن يعارض ذلك وأن يقف فى وجه سيده قائلا : لا ،هـذا لايجوز . وقد عد العرب فى مطلع الاسلام هذا التفكير الذى يقضى بتحرير عقل الأرقاء ثورة عارمة ، وقتلوا عبيدهم وعذبوهم حينما صـاح هؤلاء العبيد فى وجوه سادتهم قائلين : لقد اعتنقنا الاسلام وليس لكم سلطان على عقولنا ، وسلطانكم محدود بالأعمال الجسمانية التى لا تنافى الأديان أو الأخلاق ، وفى ذلك يقول ابن القيم (١) والسيد لا حق له فى ذمة العبد ولا فى إنسانيته ، وإنما حقه فى بدنه .

وخطوة أخرى خطاهـا الاسلام فى معاملة الرقيق هى مسـاواته بالأحرار فى أكثر الشئون ، وقد روى الشيخان قوله عليه السـلام : من قتل عبده قتلناه ، ومن جوع عبده جوعناه ، ونقل الاسـلام التفاضل الى مقيـاس جديد هو التقوى ، قال تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وبنـاء على هـذا المقياس الجديد زوج الرسول ابنـة عمته زينب بنت جحش من مولاه زيد ، وولى زيداً هـذا قيادة جيش المسلمين الذاهب لمحـاربة الروم فى موقعة مؤتة وكان بين جنوده كثير من عظماء الاسلام ، وولى بعد ذلك أسامة بن زيد قيـادة جيش المسلمين لحرب الروم أيضـا وبين جنوده شيوخ المسلمين وعظماؤهم . وقد قرر الاسـلام للأرقاء ألا يُطْلَبَ منهم أن يعملوا مـا فوق طاقتهم ، وأن يكون من حقهم أن يأكلوا ممـا يأكل سادتهم منه ، بل أن يلبسوا من لباسهم ، ولعل هـذا أرقى درجات المسـاواة ، وقد ورد فى الحديث : إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ممـا يأكل ، وليلبسه ممـا يلبس ، ولا تكلفوهم مـا يغلبهم .

وقال : من لاءمكم من خولكم فأطعموه ممـا تأكلون واكسوه ممـا تلبسون ، ومن لا يلائمكم فبيعوه ، ولا تعذبوا خلق الله عز وجل .

---

(١) اعلام الموقعين جـ ١ ص ٣٥١ .

وقال تعالى : واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجُنُبِ والصاحب بالجَنْبِ وابن السبيل وما ملكت أيمانكم (١) .

ورأى رسول الله عبد الله بن مسعود وهو يضرب عبده فصاح به ، يا ابن مسعود ! إن الله أقدر عليك ، منك على هذا .

ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا : بلى . قال : من أكل وحده ، ومنع رفده ، وضرب عبده (٢) .

ورأى رسول الله رجلا يركب دابة وخلفه عبده يجرى فصاح به : يا عبد الله ، احمله خلفك ، إنما هو أخوك ، روحه مثل روحك .

ومن نتائج هذه التعليمات ما حصل لابن عمير ، فقد روى عنه أنه قال : كنت فى رهط من أسرى بدر ، فكان المسلمون إذا قدموا غذاءهم أو عشاءهم خصونى بالخبز وأكلوا التمر ، لوصية رسول الله إياهم بنا .

ويحدثنا التاريخ أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه جاء الى بيت المقدس ومعه غلامه، ولم يكن معهما إلا ناقة واحدة ، فكانا يركبانها على التناوب الى أن اقتربا من تلك المدينة ، وكانت النوبة للغلام ، فأركبه عمر وسعى خلفه ماشياً حتى وصلا ، ولما لامه أبو عبيدة على ذلك قائلا : إنى أراك تصنع أمراً لا يليق ، فالأنظار متجهة إليك . أجاب ابن الخطاب فى قوة وإيمان بالله وبنفسه قائلا : قد كنا أذل الناس ، وأقل الناس ، فأعزنا الله بالاسلام ، ومهما نطلب العزة بغيره يذلنا الله .

---

(١) سورة النساء الاية ٣٥ .
(٢) الكامل جـ ١، ص ٥٩ .

ومن نتائج هـذه التعليمات وتلك الوصايا كذلك أن أصبح الرقيق صديقاً لمالكه فى كثير من الأحيـان ومزاملا له فى الدراسـة ، بل أحلّه بعضـهم محل الابن يقول سعد بن هاشم الخالدى فى وصف غلام له :

مـا هـو عبد لكنـه ولد
خوّلنيـة المهيمن الصـمدُ

شـدّ أزرى بحسـن خدمته
فهـو يدى والذراعُ والعَضدُ

ويرثى كشاجم غلامه مبشراً بقوله :

يـا ناصحى إذ ليس لى ناصح
ويـا أمينى إذ يخون الأمـين(١)

ولم تكن معاملة الرقيق فضـائل يتخلق بهـا مالك الرقيق بل جعلها الشرع الاسلامى واجباً يلتزم المالك أن يقوم به ، فإذا جار مالك على عبده أو ظلمه ظلماً بيّنـاً كان جزاؤه أن يَعتق الحاكم عليه ذلك العبـد ، وقد روى ابن عمر عن الرسول قوله : من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه .

ويروى ابن سعد فى الطبقات (٢) أن عبداً روميـاً اسمه الأزرق خرج مع عبيد آخرين الى الرسول يوم الطائف وشكوا ظلم سادتهم فأعتقهم رسول الله .

وسار المسلمون على هـذا فى عصور مختلفة ، فقد روى أن زنباغا أبا روح ابن زنبـاغ الشـهير ، عاقب عبداً له على خطأ ارتكبه العبـد ، فقسـا عليه ، فشكا العبد للرسول فأعتقه الرسول . وأنزل رجلٌ عقاباً قاسياً على أمَةٍ فأعتقهـا عمر وأوجعه ضرباً (٣) .

---

(١) انظر آدم متز : الحضارة الاسلامية جـ ١ ص ٢٩١ — ٢٩٢ .
(٢) الطبقات الكبرى جـ ٣ ص ١٧٦ .
(٣) ابن القيم : اعلام الموقعين عن رب العالمين جـ ٢ ص ٢٦ والدكتور الطيب النجار : الموالى فى العصر الاموى ص ١٥٨ .

وعمل بذلك أيضاً باى تونس سنة ١٢٦٢هـ (١٨٤٥م) وكان جريئاً فيمـا عمل ، فقد رأى أغلب المالكين لا يحسنون معاملة الأرقاء ، فاتخذ قراراً بتحرير الأرقاء جميعا ووافق رئيس الفتوى فى تونس على ذلك [١] •

ونختم هـذا البحث بجملة لباحث مسلم تحدث قليلا عن معـاملة الاسلام للرقيق ثم قال : على هـذا المنوال عالج الاسلام قضية الرق من ناحيتهـا العملية الى أن يجـد لهـا حلا من ناحيتها الدولية ، وفى هـذا الجانب وحده كانت مراعاة الاسلام لواقع الأمر فى البشرية يوم جاءها ، وبعد أن جاءها لم يعد لعهـد الرق وجود فى الوطن الاسلامى لأن معالم عهـد الرق وخصائصه قد بهتت فى الحيـاة الاجتماعية الواقعية بحكم تعاليم الاسلام فى معاملة الأرقاء الذين قضت الضرورة أن يبقـوا على الرق فترة من الوقت حتى يتهيـأ عقد ميثاق دولى عام لتحريرهم وللقضاء على الرق قضاء تاما [٢] •

وقريب من هذا ما ذكره Stanley Lane - Poole [٣] وهو يتحدث عن الأرقاء بأسبانيا عقب الفتح الاسلامى للأندلس ، قال : أمـا فرح العبيد بمـا طرأ على نظام الحكم من التغيير فقد كان عظيمـا حقـاً ، بعد أن لاقوا من ضروب العسف والقسـوة من القوط والرومان مـا تقشعر له الأبدان ، فإن الرق فى رأى المسلمين نظام إنسانى رقيق ، **حتى أن النبى صلى الله عليه وسلم حينمـا لم يجد بداً من الإبقـاء على هذا النظام العتيق الذى يعارض مبادىء الاسلام بذل كل جهد لتخفيف ويلاته فى كثير من الوصايا والأحاديث** •

ويقول الأستاذ العقـاد [٤] : إن العتق هو الذى شرعه الاسـلام

---

(١) الشيخ الخضر : مجلة الازهر صفر سنة ١٣٧٣ •
(٢) انظر ص ٢٦ — مجلة المسلمون — السنة الثالثة — العدد الخامس •
(٣) العرب فى أسبانيا ص ٤٠ •
(٤) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه ص ٢٢١ •

فى أمر الرق ، وأمـا نظام الرق بأنواعه فقـد وجده الاسلام مشروعا فحرّمه ، ولم يبح منـه إلا مـا هو مباح الى اليوم فى نظام الأسرى وتسخيرهم فى أعمـال من يأسرونهم من المتقاتلين ، وسبق الاسلامُ القوانين الدولية بتقريره إلزامَ الدولة واجب السعى فى إطلاق أسراهـا وإعتاقهم بالفـداء ، وشفع ذلك بالوسائل الفردية فيمـا تنتقل به الذمة الى الأفراد من مالكى الأرقاء بعد وفاء الدولة بذمتهـا ٠

ولا يقال هنـا إنه عمل" كثير أو قليل ، بل يقـال إنه العمل الوحيد الذى كان ممكنـا فى محاربة نظام الرق ، ولم تستطع أمم الانسـانية مـا هو خير منه فى علاج هذه المسألة الى الآن ٠

الرق الصناعى أو رق لا يقرّه الاسلام :

هناك نوع يسمى الرق وليس فى الحقيقة رقـاً ، وقد انتشر هـذا النوع فى العالم الاسلامى فى فترة من الفترات ، وحَسِبهُ الناس رقاً إسلامياً والاسلام فى الحقيقة منـه براء ، وهـذا النوع من الرق هـو انتكاس وعود للهـوة التى انتشل الاسلام العالم منهـا ، إذ وُجِدَ من الناس من يستعذبون الرق ويفضلونه على الحرية ، فزجوا بأنفسـهم أو بذويهم الى هـذا الرق من باب غير البـاب الذى فتحه الاسلام ، واختاروا لذلك وقتـاً ضعف فيه الوازع الدينى فأتيح لهم أن يضمنوا بعض النجاح فيمـا قصدوا إليه ، فكـان ذلك الذى نسـميه : « الرق الصـناعى » ٠

وقصة ذلك أن اصطناع الرق أو التظاهر به كان وسيلة لكسـب السلطة ، ورغد العيش والنفوذ للرقيق ، وقصـور الخلفاء والعظمـاء هى بطبيعة الحـال البيوت المفتوحـة لتحقيق ذلك للأرقاء والرقيقـات ، فلهؤلاء فى هـذه القصور سلطان وجاه واستمتاع بنعيم الحيـاة فى ظل مـا ضمنه الاسلام للرقيق من حقوق ، وكل هـذا جعل بعض الأحرار

والحرائر يتوقون لدخول هـذه القصور ولو باسم الرق وفى ستر منه ، وكانت هـذه القصور ترحب بالعبد الكفء ، أو القينة الجميلة الماهرة ، ولهذا عمد بعض الآباء الى تدريب أبنائهم وبناتهم على الحرف التى تعجب أصحاب هـذه القصور ، كالموسيقى والغنـاء والرقص والشعر وغيرها ، وعرض هؤلاء أولادهم للبيع على أنهم أرقاء ورقيقات ، عرضوهم مباشرة أو بواسطة النخاسين الذين تخصصوا فى الاتجـار بالأرقاء ، ووصل كثيرون من هؤلاء الى القصور من هـذا الطريق ، وهـذا هو السر فى انتشار هـذا النوع فى بعض الفترات التى لا حروب فيها ، يقول الأستاذ جميل نخله مدور : إن بيع الرقيقـات لم يكن مظهراً من مظاهر العبودية والاسترقاق بالمعنى المألوف ، بل إن كثيراً من الفتيـات كُنَّ يأتين السوق مختارات ليُبَعن حتى يتمتعن بحيـاة الترف والنعيم فى بيوت الخلفـاء والأمراء (١) .

وطبيعى أن كثيرات من هؤلاء الرقيقـات كن يفضلن الرق عـلى الحرية ، وممـا يروى فى ذلك أن عمر بن عبد العزيز لمـا ولى الخلافة ، وزهد فى متـاع الدنيا ، واتجـه للقيـام بمسئولياته الكبيرة جمع جواريه وقال لهن : إنه قد نزل بى أمر شغلنى عنكن ، فمن اختـارت منكن العتق أعتقتها ، ومن اختارت البقاء فليس لهـا علىَّ شىء . فبكين بكـاء شديداً يأساً منـه (٢) .

ولعل الرق القليل الذى لا يزال موجوداً فى بعض القصـور هو من بقايا هذا النوع من الرق الصناعى .

وكان إقبـال الشبان على الرقيقات عظيمـا مما جعل أثمانهن ترتفع ارتفاعاً كبيراً فأصبح ثمن الواحدة يعـادل مهر عدة من الحرائر ، والسبب فى هـذا الإقبال أن الشاب يختار الجارية بعد خبرة ، فيرى جسمهـا

(١) حضارة الاسلام فى دار السلام ص ٩٨ .
(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٤٧ .

وصوتها ، ويختبر تجاربها وعلمها وذكائهــا ، ولكنه حين يختار زوجة لم يكن يتــاح له أن يتعرف عليهــا ، وغاية مــا يستطيعه أن يرى وجههــا ويديها إن استطاع أن يقابلها مقابلة قصــيرة .

ومن الرق الصــناعى الذى لا يقره الاسلام مــا يوجد فى بعض القصور من بقايا النخاسة الأوربية التى كانت تلتقط الأطفال والشــبان من إفريقية وتدفع بهم الى مزارع أمريكــا ومصانعها ، وتنحرف ببعضهم أحياناً فتلقى بهم فى قصور الشرق للخدمة أو الحراسة .

وبعد ، لقد وضع الاسلام منــذ جاء الأساس المتين لإلغــاء الرق وتحرير الأرقاء ، وقد ظل صوت الاسلام يزمجر حتى استجاب له العالم بعد عدة قرون من تشريعه الحكيم ، إن زوال الرق هو أحد الهدايا التى قدمها الاسلام للإنسانية .

لمحة عن النظم السياسية فى الاسلام(*)

الاسلام دين ودولة :

اتجهت الأديان والفلسفات التى سبقت الاســلام الى الكلام عن العقيدة ، ولم تعن بشــئون الدنيا قط ، أو عنيت بهــا عناية محدودة ، وحتى عند العناية بهــا كانت التشريعات أشــبه بنصائح غير ملزمة فى الغالب ، ومن ثم لم ترد بهــذه الأديان دراسة كافيــة عن التنظيم الســياسى •

أمــا عن الاسلام فان الحقيقة الواضحة أنه دين ودولة ، ذلك لأنه نظم شئون الدين وشئون الدنيــا جميعا ، فكمــا تكلم الاسلام عن الله والملائكة والأنبياء والجنــة والنار والعبادات وغيرهــا من شئون الدين ، تكلم كذلك عن البيع والشراء والزواج والطلاق والميراث وغيرهــا من شئون الدنيــا ، ووضع الاسلام لهــذه وتلك ، القوانين والنظم ، وألزم المسلمين بإتباعها وحدد عقوبة المخــالفين والعصــاة تحديداً مفصــلا أو تحديداً مجملا ترك تفصيله لاجتهــاد أئمة المسلمين ، وقد تكلمنا من قبل عن « الله » وعن « العبادات فى الاسلام » وغيرها من شئون ولنقتبس الآن من القرآن الكريم بعض آيات عن تنظيم شئون الدنيــا ، قال تعالى :

— وأحل الله البيع وحرم الربا (١) •

— ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على النــاس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون (٢) •

— حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم (٣) •

(*) هذا الموضوع مختصر من كتاب « السياسة فى الفكر الاسلامى » للمؤلف .

(١) سورة البقرة الاية ٢٨٥ .

(٢) سورة المطففون الايتان ١ — ٢ .

(٣) سورة النساء الاية ٢٣ .

— الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان (١) •

— والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف (٢) •

— يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل (٣) •

وآيات أخرى كثيرة تشمل كل شئون الدنيا تقريبا وهى واجبة الاتباع ، ومن خالفها فقد نظّم الاسلام العقوبة التى تقع عليه ، قال تعالى :

— السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا ، نكالا من الله (٤) •

— الزانية والزانى فاجلدوا كل واحدة منهما مائة جلدة (٥) •

وكان الرسول فى حياته يتولى تنفيذ هذه الأحكام ، قال تعالى :

— إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما (٦) •

— وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ،ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً (٧) •

— ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون (٨) •

---

(١) سورة البقرة الاية ٢٢٩ .
(٢) سورة البقرة الاية ٢٣٣ .
(٣) سورة البقرة الاية ٢٨٢ .
(٤) سورة المائدة الاية ٤٢ .
(٥) سورة النور الابة الثانية .
(٦) سورة النساء الاية ١٠٤ .
(٧) سوة الاحزاب الاية ٢٦ .
(٨) سورة المائدة الاية ٤٧ .

وهكذا لا يقتصر الاسلام على تنظيم العلاقة بين الانسان وربه ، ولو كان الاسلام دينا فقط أى تنظيما للعلاقة بين المخلوق والخالق لا غير ، لكان من الممكن أن تترك شئون هذا الدين لله ، يراقبها ، ويرضى عن المطيع ويسخط على العاصى ، ولكن بالإسلام جانبا كبيرا ينظم علاقة الإنسان بالإنسان ، ويرتب سبل العيش فى مختلف شئون الحياة أو أكثرها ، ويلزم المؤمنين بأن يتبعوا هذه النظم ، وأن يبطلوا ما يخالفها ، وينزلوا العقوبة بالمخالفين .

ولكن جماعة المسلمين كلها لا يمكن أن تشرف على تنفيذ أحكام الله ، لانشغال كل فرد بعمله ، ولعدم كفاءة البعض ، ثم لأنه ليس من الحكمة ترك مسئوليات جسام شائعة دون أن يحدد نفر لرعايتها وتنفيذها ، ثم كان من الطبيعى كذلك أن كل جماعة لابد أن يكون لها رائد ، يرشدها ، ويكون مسئولا عن تنفيذ أحكام الله فيها ، ويقول ابن تيمية فى ذلك (١) : يجب أن يعرف أن ولاية الناس من أعظم واجبات الدين ، بل لا قيامة للدين إلا بها ، فان بنى آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع ، لحاجة بعضهم الى بعض ، ولابد لهم عند الاجتماع من رأس ، حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم : إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم . وجاء فى مسند أحمد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا يحل لثلاثة يكونون فى فلاة من الارض إلا أمروا عليهم أحدهم . فأوجب الرسول تأمير الواحد فى الاجتماع القليل العارض فى السفر ، تنبيها بذلك على سائر أنواع الاجتماع ، ثم إن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة ، ومثل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، سائر ما أوجبه الله من الجهاد والعدل وإقامة الحدود وغيرها مما لا يتم إلا بالقوة والإمارة ، ولهذا روى أن السلطان ظل الله فى الارض ، وروى كذلك : ستون سنة مع امام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان .

---

(١) السياسة الشرعية فى أصلاح الراعى والرعية ص ١٧٢ — ١٧٣ .

وعلى هـذا فالحكومة فى الاسلام ضرورية للغـاية ، وفى مطلـع الاسلام كان الرسول ـ بجانب تبليغ رسالة الله ـ حاكمـاً يشرف على تنفيذ قوانين الله ، وكان يساعده فى هـذا العمل مجموعة من الصحابة والقادة ، ومن هؤلاء كانت تتكون الحكومة الاسلامية الأولى ، وبعد وفاة الرسول اختير الخلفـاء ومثلوا هم ومعاونوهم الحكومات الاسـلامية بعد وفـاة الرسول .

ومن الواضح أن القرآن الكريم لم يفصل المشكلات الخاصة بالحكومة الاسلامية ، لأن الحكومة وطرق اختيارها ومسئوليتها وعزلهـا وغير ذلك من شئونها لمـا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ، ومن أجل ذلك تكلمت المصـادر الاسلامية الأولى عن الحكومة الاسلامية بالاجمـال ، وتركت التفاصيل ليضعها البشر بمـا يلائم حاجتهم فى حدود الاطار العـام الذى رسمه الاسلام ، وقد تكونت لدينـا من المصادر وممـا أضافه العلمـاء والباحثون مادة نستطيع بهـا أن نعطى صورة واضحة عن النظم بالحكومة الاسلامية ، وهو ما سنشرع فيه :

تكوين الحكومة الاسلامية :

نقلنا عن ابن تيمية فيمـا سبق ضرورة وجود الرياسة ، وقد إقتبس ابن تيمية فى خلال كلامه أحاديث صحيحة تبين ضرورة اختيـار الرئيس ، ويجب أن نضيف الى هـذا الاقتباس أن جماعة المسلمين فى اختيارهم للرئيس لابد أن يمتثلوا تعليمات الاسلام التى تقضى بأن يُختار للرياسة أصلح المسلمين للقيـام بهذه المهمـة وملء هـذا الفراغ الكبير .

وقد سئل رسول الله مرة : متى الساعة ؟ فأجاب : إذا أُسند الأمر لغير أهله فانتظروا الساعة .

وروى عن الرسول قوله : إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من

العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلمـــاء حتى إذا لم يبق عالم ، اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا •

وروى عن أبى سعيد الخدرى أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن أحب الناس الى الله وأدناهم منـــه مجلساً يوم القيامة إمام عادل ، وأبغض الناس الى الله وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر •

وقد روى عن عمر بن الخطاب قوله : لا اسلام إلا بجماعة ولا جماعة إلا بإمارة ، ولا إمارة إلا بطاعة ، فمن سوّده قومه على فقه (علم) كان ذلك حيـــاةً له ولهم ، ومن سوده قومه على غير فقـــه كان هلاكاً له ولهم •

وهكذا نجد صفات الحاكم تتضح من خلال هذه الأحاديث والمأثورات ، فتبدو لنـــا ضرورة أن تتوافر فيه صـــفات القوة والعلم والفطنة والعدالة ، بالاضـــافة الى صفات جســـمانية وعلقية أخرى ذكرهـــا الماوردى (١) كســـلامة الحواس وسلامة الأعضـــاء من نقص يمنع من استيفاء الحركة وسرعة النهوض ، وكالرأى المفضى الى سياسة الرغبة • وبنـــاء على التفكير الاسلامى لا يجوز لمن لم تجتمع فيه صـــفات الرئيس أن يتقدم لمنصب الرياسة ، كمـــا لا يجوز للمسلمين أن يختاروا غير الصـــالح ، بل عليهم أن يسندوا الأمر لأهله ، وأن يحسنوا استعمال الســـلطة التى منحت لهم لاختيار امام المسلمين •

ومن الواضح أن الامام المنتخب ليقود جمـــاعة المسلمين ، لا يمثل وحده الحكومة الاسلامية ، ولا يقـــوى وحده أن ينهض بكافة الأعبـــاء ، ولذلك ترك له أن يختـــار من بين المسلمين من يعاونه فى هـــذه المهـــام الجســـام ، على أن هـــذا الحق المعطى للامام مقيد باختيار الصالح ، فقد روى عن الرسول قوله من وَلِىَ من أمر المســـلمين شيئاً فولى رجلا وهو يجـــد من هو أصلح للمسلمين منه ، فقد خان الله ورسوله • وفى

---

(١) الاحكام السلطانية ص ٥ .

رواية من قلد رجلا عملا على عصـــابة واهو يجد فى تلك العصابة من هو أرضى منه فقد خان الله ورسوله ، وخان جماعة المسلمين • وعن أبى ذر أنه قال : قلت يا رسول الله ألا تستعملنى ؟ فضرب الرسول بيده على منكبى ثم قال : يا أبا ذر ، إنك ضعيف ، وإنها أمانة ويوم القيامة خزى وندامة ، إلا من أخذها بحقها وأدّى الذى عليه فيهـا •

ومن هنا يتضح أن التفكير الاسلامى يقضى بأن يختـار الشعب الرئيس الأعلى فقط ، ويترك لهـذا الرئيس حق اختيار معاونيه ، فليس للشعب أن يختـار معاونى الرئيس ، بل ذلك الحق للرئيس نفسـه ، ليمكن التناسق بين أعضـاء الحكومة ، إذ لو اختار الشعب معاونى الرئيس لكـان من الممكن أن يختـار الشعب شخصا لا تتفق ميوله مع الرئيس فلا يتم بينهمـا التعاون المنشود ، على أن الشعب إن فقد سلطة اختيار معاونى الرئيس ، فان له حق الاعتراض على من يختارهم الرئيس أو على بعضهم متى كان للاعتراض أسباب معقولة •

ومن الرئيس وأعوانه تتكون الحكومة الاسلامية ، وهـذه الحكومة واجبة الطاعة • قال تعالى : « يا أيهـا الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (١) ، ولكن وجوب الطـاعة محدود بأن تكون الطـاعة فى خير وبرّ ، قال صلى الله عليه وسلم : لا طـاعة لمخلوق فى معصـية الخالق •

ولا يهتم الاسلام بالألقـاب التى تمنح لأعضاء هـذه الحكومة ، وقد عُرِفَ فى الاسلام لقبُ الخليفة والامام والسلطان للرئيس ، وعرف لمعاونيه لقب الوزراء والأمراء ، ولا بأس من استعمال هـذه الألقاب أو غيرها ممـا يمثل طبيعة العمل الذى يقوم به كل من أعضـاء هذه الهيئة ، والمهم فى الإسلام هو اجتماع هـذه الشروط وحسن سـير العمل ، أمـا

---

(١) سورة النساء الاية ٥٩ .

الألقاب فليست ممـا يحرص عليه التفكير الاسلامى ، ولا يعرف التفكير الاسلامى مسألة توارث السـلطة ولا حصرها فى جماعة دون جماعة •

عمل الحكومة الاسلامية :

مجمل خصائص الحكومة الاسلامية أنهـا تعمل لخدمة الشعب الذى اختارهـا ، فالتاريخ يؤكد لنـا أن كل من حكموا المسلمين حكماً إسلامياً بدءوا هـذا الحكم أغنياء وتركوه فقراء ، وعرفوا قبله راحة البـدن والمتع المبـاحة ، فلمـا أسند لهم هذا العمل بعدوا عن المتع ولم يعرفوا طعم الراحة ، وحسـبك أن تستعرض حيـاة الرسول وأبى بكر وعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وصلاح الدين الأيوبى لترى صوراً رائعة للحكومة الاسلامية •

فإذا أردنا أن نعطى مزيداً من التفاصيل عن عمل الحكومة الاسلامية ، قلنـا إن على الحكومة الاسلامية أن تضمن الأمن فى الداخل ، وأن تعـد العـدة لحماية الدولة من أى اعتداء خارجى ، وعلى الحكومة الاسلامية أن تتبع نظم الاسلام وأحكامه التى جاء بهـا فى أمور السياسة والاقتصاد والاجتماع وغيرها ، وأن تُلْزِم المسلمين بذلك ، وعليهـا أن تقترح النظم والقوانين المتمشية مع روح الاسلام للمشكلات التى لم يرد لهـا ذكر فى مصـادر الاسلام الأولى ، وأن يكون هدفهـا فى الأحكام التوفيق بين النصوص وبين مصالح العبـاد •

والنصوص التـالية تبين مسئولية الحكومة الاسلامية :

قال تعالى : الذين إن مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور (١) •

وقال عليه الصـلاة والسلام : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته •

---

(١) سورة الحج الاية ٤١ •

وقال : من ولاه الله شيئا من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم (حاجتهم) وفقرهم ، احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيـامة •

وفى تدبير مشكلات المجتمع الاسـلامى ، وفى تقوية الصـلة بين الحاكمين والمحكومين نذكر هنـا آيتين كريمتين تتم بهمـا صورة عمـل الحكومة فى إطار الشورى الذى يطلق عليه تجوزاً كلمـة « الديمقراطية » فى الاصطلاح الحديث ، وهاتان الآيتان همـا :

— وأمرهم شورى بينهم (١) •

— فبمـا رحمـة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظـاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر (٢)•

وهاتان الآيتان تبينان أن اختيار الحكومة ليس معناه تسليم كل الأمور إليهـا وانقطاع رأى الشعب ، بل توضحان أن واجب الحاكم أن يستشير ليس فقط أهل الحل والعقد ، بل أن يستشير جماعات أوسع من المسلمين كلمـا حزب أمر ، بل يستشير المسلمين جميعاً فى مهـام الأمور إذا أمكن ذلك ، بطريق الاستفتاء العـام ، أو أى طريق آخر ، والآية الأولى تصوغ هـذه الفكرة صياغة رائعـة ، فهى لا تتجه الى أسلوب الأمر بالمشاورة ، وإنمـا توضح أن المشكلات إنمـا هى مشكلات الأمة ، وأن الأمور أمورهـا ، فطرح هـذه المشكلات للأمة للتشاور ، ولرغبة الوصول الى حل سليم ، أمر عادى هو فى الحقيقة وضع للأمور فى نصابها ، وإعطاء الحـق لصاحبه •

أمـا الآية الثانية فلم تكتف بالأمر بالمشـاورة ، وإنمـا رسمت أخلاق الاسلام وروحه التى يجب أن يتحلى بها الحاكم ، فأوصته بالرحمة ،

---

(١) سورة الشورى الاية ٣٨ •
(٢) سورة آل عمران الاية ١٥٨ —

ولين الجانب ، والعفو ، والتسامح ، والدعاء للمسلمين بالمغفرة ، وكل هذه المظاهر تمهيــد للمشاورة ، وهى تجعل الشعب يحس بحرية تامة فيبدى رأيه بصراحة ووضوح فى المشكلات التى يعرضها الحاكم للتشاور .

ممن تستمد الحكومة الاسلامية سلطانها :

الحكومة الاسلامية تستمد سلطانها المباشر من الشعب لا من الله ، لأن الشعب هو الذى اختارها ، فتسلمت السلطة بنــاء على هذا الاختيار ، ولولا اختيار الشعب لهــا مــا نالت هذه السلطة . وفى ذلك يقول الشاعر مخاطباً عمر بن الخطاب :

أنت الامام الذى من بعد صاحبه

ألقى إليك مقاليــدَ النهى البشرُ

وقد حصــل الشعب على هذه السلطة من الله ، فالبشر خلفاء الله فى أرضه . قال تعالى : « وعد الله الذين آمنــوا وعملوا الصــالحات ليستخلفنهم فى الارض كمــا استخلف الذين من قبلهم » (١) . وقال : « هو الذى جعلكم خلائف الارض (٢) » ، وبنــاء على هذه السلطة اختار المسلمون الحكومة أو اختاروا رئيسها واختار هــذا الرئيس معاونيه ، وبذلك تعمل الحكومة باسم الشعب وتتحدث باسمه (٣) .

عزل الحكومة :

من القواعد المقررة أن من يعطى السلطة يستطيع أن يسحبهــا ، والشعب — كمــا قلنا — هو صاحب السلطان ، وهو الذى اختــار

---

(١) سورة النور الاية ٥٥ .
(٢) سورة فاطر الاية ٢٩ .
(٣) اقرأ تفصيلا شاملا عن هــذا الموضوع فى كتاب « السياسة فى الفكر الاسلامى » للمؤلف .

الحكومة ، ومنحها قوة تستطيع بهـا أن تشرف على أموره وأن تتحدث باسمه ، فمن حق هـذا الشعب أن يسترد هذه السلطة إذا عجزت الحكومة عن الاستمرار فى القيـام بواجبها ، أو إذا أساءت استعمال السـلطة المخوّلة لهـا ، ويقول الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية سابقـاً : إن كتب الكلام مطبقة ومتفقه على أن الخليفة أو الامام هو وكيل الأمة ، وأنهم هم الذين يولونه تلك السلطة ، وأنهم يملكون خلعه واعزله (١) • وقد وضّح أبو بكر ذلك المعنى فى الخطاب الذى ألقـاه عقب توليتـه الخلافة ، حيث جاء فيه : أطيعونى مـا أطعت الله ورسوله ، فإن عصيته فلاطاعة لى عليكم •

فاذا لم تستجب الحكومة لرغبة الشعب فى عزلهـا ، أو إذا قاومت قرار العزل ، جاز للشعب أن يثور عليهـا ، وقد روى عن الرسول قوله • إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخـذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده ، ولكن يشـترط فى الثورة أن تؤمن عواقبهـا ، وألا تنقلب الى فتنة وإراقة دماء ، فاذا لم تؤمن عواقبهـا لا يجوز القيام بهـا عمـلا بقوله عليه السلام : الامام الجائر خير من الفتنة ، وكلٌ لا خير فيه ، وفى بعض الشر خيار • وجاء فى مقالات الإسلاميين للأشعرى أنه لا يجوز الخروج على الامام الجائز إلا لجمـاعة لهم من القوة والمنعة مـا يغلب على ظنهم معها أنهـا تكفى للنهوض وإزالة الجور (٢) •

هذا عن عزل الحكومة كلهـا ، أما عزل عضـو من أعضائها فهـو أمر هيِّن" يستطيعه الرئيس إذا لمس من هـذا العضـو تقصيراً أو رأى فى عزله صلاحاً •

الحكومة الاسلامية بين الحكومات المعروفة :

الحكومة الاسلامية نظام خاص بين نظم الحكومات ، له طابعه ، وله

---

(١) حقيقة الاسلام واصول الحكم ص ١٧ •
(٢) مقالات الاسلاميين جـ ٢ ص ٤٦٦ •

مميزاته وخصائصه التى تجعله لا يدخل تحت أىٍّ من النظم الأخرى للحكومات المعروفة فى الوقت الحاضر .

فليست الحكومة الاسلامية دكتاتورية أو فاشية أو شيوعية أو ما يماثلها من النظم الاستبدادية ، لأن هذه النظم تتنافى مع الشورى التى هى ركن هام من أركان الحكومة الاسلامية كما سبق القول ، ولأن الشعب لم يولِّ هذه الحكومات ، ولا يستطيع عزلها ، وإنما فرَضَتْ هذه الحكومات نفسها بالقوة ، ولا يزيلها من مكانها إلا قوةٌ تدبَّر فى الظلام كتلك التى جاءت بها .

وليست الحكومة الاسلامية حكومة تيوقراطية ، لأن سلطة الحكومة الاسلامية مصدرها الشعب ، ولكن الحكومة التيوقراطية تدعى أن سلطتها من الله ، وليس للحكومة الاسلامية ولا لرئيسها ما للبابا من سلطان روحى يستطيع به أن يشرِّع وأن يغفر السيئات ، فليس الخليفة إلا منفذاً لأحكام الدين ، وسلطةُ تفسير الآيات القرآنية والأحاديث متروكة للعلماء (١) ، كما تُرِكتْ لهم سلطة اقتراح الحلول للمشكلات الجديدة .

ويقول مولانا محمد على فى ذلك (٢) : والخليفة شخص مسلم عادى ، وعضو فى جماعة المسلمين ، ولا يتمتع بأى امتياز من الناحية الدينية .

ومن الأستاذ الامام محمد عبده نقتبس بعض العبارات فى هذا الموضوع ، قال رحمه الله :

ليس فى الاسلام ما يُسَمَّى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه ، .... والخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم ولا هو مهبط الوحى ، ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة ، ......

(١) Sir Thomas Arnold : The Caliphate pp. 10, 14.

(٢) Early Caliphate p. 20.

وهو وســائر طلاب الفهم من المسلمين سواء ، يتفاضلون بصــفاء العقل وكثرة الاصابة فى الحكم ، فالخليفة حاكم مدنى من جميع الوجوه ، ومن هنا لا يجوز لصحيح النظر أن يختلط عنده الخليفة عند المسلمين بمــا يسميه الافرنج (تيوقراطيك) أى صاحب سلطان إلهى ، فانه عندهم هو الذى ينفرد بتلقى الشريعة عن الله وله حق الأثرة بالتشريع (٣) •

وليســت الحكومة الاسلامية ديمقراطية على النحــو المعروف فى الغرب ، وأول مــا نوضحه أن كلمة (ديمقراطية) كلمة خداعة ، تدعيهــا كل الدول فى عصرنا الحديث ، تدعيهــا دول الغرب وتدعيهــا كذلك الدول الشرقية ، وعلى كلٍّ فالديمقراطية فى أحسن نظمهــا مخالفــةٌ للنظم الاسلامية ، صحيح أنهــا تتفق معهــا فى بعض الأسس الهامة ، كحق الشعب فى اختيار الحاكم ، وكالمشورة ، وحق الشعب فى عزل الحكومة ، ولكنهــا تختلف عنهــا فى أساس مهم يجعل الفرق بينهمــا واسعاً ، وذلك الأساس هو أن الاسلام قدّم للمسلمين كثيراً من الأحكام التى لا يمكن إهمالهــا ، والتى هى ليست موضع شورى أو نقاش ، كنظام الميراث ، وكالمحرمات فى الزواج وتعدد الطلقات وغيرهــا ، كمــا وضع الاسلام للمسلمين مقاييس الفضــائل والرذائل • فى حين أتاحت الديمقراطية لأصحابها أن يضعوا كل الأحكام ، وأن يرسموا لأنفسهم تلك المقاييس •

وعلى هذا فالحكومة الاسلامية طابع فريد ، عناصره الرئيسية منحة من الله ، وقد اقتبَسَت منه بعض النظم الحديثة بعض مميزاته ، والنظام الاسلامى بدون شك يحقّق لأتباعه استقرارا وحياة طيبة حميدة •

(٣) الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ٦٥ — ٦٧ •

لمحة عن النظم الاقتصادية فى الاسلام(*)

الاتجاهات الاقتصادية قبل الاسلام :

لم تعرف الأديان السابقة على الاسلام الاقتصاد بمفهومه الصحيح ، أى على أنه تنظيم لحقوق الفرد فى ضوء احتياجات المجتمع ، فالبوذية كرهت الثروة ، وجعلت على الراغب فى دخولها أن يتنازل عن ماله وعقاره ويحمل كشكوله للسؤال ، حتى يتاح له أن ينضم للجماعة ، وقد تسربت هذه الفكرة الى المسيحية حيث يروى متى ومرقص ولوقا عن عيسى أنه قال لشاب غنى أراد أن يدخل المسيحية : بع أملاكك وأعط ثمنها للفقراء وتعال اتبعنى . فلم يقبل الشاب . فقال عيسى : يعسر أن يدخل غنى ملكوت السموات ، وأقول لكم أيضا إن مرور جمل فى ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى ملكوت الله (١) . ويروى متّى أيضا عن عيسى قوله . لا تكنزوا لكم كنوزاً على الارض حيث يفْسِد السوس والصدأ ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون (٢) .

ولكن أغلب البوذيين والمسيحيين لم يقنعوا بهذا الاتجاه فى هذين الدينين ، فراح أتباعهما يشرّعون التشريعات الدنيوية التى ترضى شغفهم بالمادة ، وهكذا اتجه أتباع المسيحية والبوذية الى الرهبنة ، أو الى التشريع الدنيوى الذى اهتم بالمال على أنه كسب شخصى دون أن يبين دوره فى خدمة المجتمع .

أما اليهودية فقد وضعت للمال أساساً عنصرياً خطيراً ، ففرقت بين التعامل مع اليهودى وبين التعامل مع غيره ، فأباحت التوراة الربا

(*) هذا الموضوع مختصر مما كتبه المؤلف عن النظام الاقتصادى فى الاسلام فى كتابة « الاقتصاد فى الفكر الاسلامى » للمؤلف .

(١) اديان الهند الكبرى للؤلف ص ١٧٢ — ١٧٣ وانجيل متى ١٩ : ٢١ — ٢٤ وانظر هذا ايضا فى مرقص الاصحاح العاشر ولوقا الاصحاح الثانى عشر .

(٢) الاصحاح ٦ : الفقرة ١٩ .

مع الأممى وحرمته مع اليهودى (١) ، كما أباحت بروتوكولات حكماء صهيون أن يعامل اليهود غير اليهود بالخديعة والنفاق والكذب ، وسرقة الأموال وإتلافها كلما أمكنهم ذلك (٢) .

ويمكن ان نقارن هذا الاتجاه بالاتجاه الاسلامى الرشيد فقد رُوِىَ أن عمر رأى شيخاً يهودياً يسأل الناس . فسأله عمر : ما الذى حملك على السؤال ؟ فأجاب الرجل . الحاجة والسن ، فأخذه عمر بيده وذهب الى منزله فأعطاه عطاء سخياً ، ثم أرسله الى خازن بيت المال مع رسالة قل فيها : انظر هذا وضُرباءه ، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ، إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، وهذا من مساكين أهل الكتاب (٣) .

تلك لمحة يسيرة نحو سياسة المال كما رأتها الأديان والأفكار التى سبقت الاسلام ، وسنبدأ الآن فى التعريف بإتجاهات الاسلام الاقتصادية ، وسنرى منها أن الاسلام نظر الى المال نظرة اجتماعية لم تنس الفرد ، فهو يعترف بالملكية الفردية ولكن على ألا يكون فيها حرمان المجتمع أو إنزال الجور به ، فلنأخذ الآن فيما اتجهنا إليه :

تقديم عن الاتجاه الاقتصادى فى الاسلام :

كما أن للاسلام نظمه الخاصة فى السياسة ، كذلك له نظمه الخاصة فى الاقتصاد ، تلك النظم التى لا تنضوى تحت أى من النظم الاقتصادية المعروفة .

وهدف النظم الاقتصادية هو أن تخلق بين المسلمين جواً من الحب

---

(١) اقرأ سفر الخروج الاصحاح الثانى والعشرين الفقرة ٢٥ .
(٢) اقرأ باب « مصادر الفكر اليهودى » بكتاب اليهودية للمؤلف .
(٣) أبو يوسف : الخراج ص ١٥٠ .

والتعاون والإيثار ، ووسيلتهـا لذلك تحقيق العدالة الاجتماعية ، بحيث لا يولجد جائع بجوار متخم ، ولا عار يرى الآخر وهـو يرفل فى الحرير والديبـاج •

ولا يحارب الاسلام الغنى ، ولا يحاول أن ينتقص من ثروة الأغنياء ، مادام الأغنياء قد حصلوا على المال بطريق مشروع وليس على حساب الآخرين ، ويقضى الاسلام أن يؤخذ من مـال الغنى مـا يفى بحاجة الفقير أو بحـاجة الدولة ، وفى ظل التفكير الاسـلامى الاقتصـادى طالما اختفى الفقر وتجمعت ثروات طائلة للاغنياء ، حتى كان الغنى يبحث عن من يتسلم منه الزكاة فلا يكاد يجده •

وللاسلام ــ كمـا أشرنا من قبل ــ فى سياسة المـال فلسفة خاصة ليست بالرأسمالية ولا بالشيوعية ولا بالاشتراكية الأوربية وهاك ملامح هـذه الفلسفة :

١ ــ مبدأ الملكية الفردية :

يقر الاسلام حق الملكية الفردية للمـال الذى حصل عليه المسلم بالطرق المشروعة ، وقد نسب القرآن الأموال للناس فى الآية الكريمة « إنما أموالكم وأولادكم فتنة (١) » ويقر الاسلام التفاوت فى الغنى بقدر الجهد الذى يبذله كل مسلم ، وبقدر التوفيق الذى يصـادفه ، وقد ورد فى القرآن الكريم ما يقرر هذا التفاوت ، قال تعالى « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق (٣) » وقـال « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحيـاة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات (٤) » •

وعلى هـذا فالاسلام يجيز الملكية الفردية ، ويشـمل ذلك ملكية

(١) سورة التغابن الاية ١٥ .
(٢) سورة البقرة الاية ٢٧ .
(٣) سورة النحل الاية ٧١ .
(٤) سورة الزخرف الاية ٣٢ .

الاراضى الزراعيـــة ، كمـــا يشمل ملكية المتـــاجر والمصانع ، ويحرس الاسلام هــذه الملكية وينقلهـــا الى ورثة المالك عن طريق نظـــام الميراث فىالاسلام ، ولا يجيز الاسلام للحكومة التدخل فى هــذه الملكيات إلا إذا تعارضت مع الصالح العــام ، ويكون تدخل الحكومة حينئذ لا بالإلغــاء كمــا تفعل الشيوعية ، بل بالتوفيق بين حــق الملكية الفردية الذى يقره الاسلام ، وبين المصلحة العامة التى هى أيضـــا اساس من أسس التشريع الاســـلامى ٠

ولا نزاع أن التفاوت فى الثروات طبيعى جداً ، لأن الناس متفاوتون فيمـــا هو أفضل من المال وأنفس منـــه ، إنهم متفاوتون فى الصـــحة ، والقوى العقلية ، والذكاء ، ومتفاوتون فى الجمـــال ، واللون ، والصوت ، ومتفاوتون فى مقـــدار توفيقهم فى الزواج ، أو الجوار ، أو الصحبة ، ومتفاوتون فى مدى صلاح الأولاد ونجاحهم ، ولم يقل أحد بوجوب محاربة هـــذا التفاوت وضرورة أن يصبح الناس سواسية فى صحتهم وعقولهم وأولادهم عدداً ونوعاً وتوفيقاً ٠ ٠ وغير ذلك ٠ فالنهج الاسلامى فى إباحة التفاوت فى الغنى نهج طبيعى واضح ٠

٢ ـــ التقريب فى المظهر بين المتفاوتين فى الغنى :

لكلٍّ نصـــيبه من الغنى ، ولكن ذا الحظ الأوفر فى المـــال يجب ألا يتخذ ماله وسيلة للفتنة بأن يظْهرهُ ويفخر به ، وذا الحظ الأدنى يجب ألا يَظْهر بمظهر الذلة فيضع نفســـه بذلك بحيث يحســـد الغنى أو يكرهه ، ومن أجل تحقيق التقريب المنشـــود ذم الاسلام الترف ، وحث الغنى على عدم التظاهر بمـــا أوتيه من مال ، كمـــا حث الاسلام قليل المـــال على حسن المظهر وبخاصة فى المجتمعات اقرأ هـــذه الأحاديث التى توجه الغنى حتى لا يتظاهر بماله فيجعله سبباً للفتنة :

ـــ كل ما شئت ، والبس مـــا شئت ، ما خطتك اثنتـــان ، سرف ومخيـــلة ٠

ـ لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا من آنيـة الذهب والفضـــة •

ـ تكون إبل للشياطين وبيوت الشياطين ، فأما إبل الشـــيطان فقد رأيتهــا ، يخرج أحدكم بنجيبات معه قد أسمنها فلا يعلو بعيرا منهــا ، ويمر بأخيه قد انقطع فلا يحمله ، أمــا بيوت الشياطين فلا أراها إلا هـــذه الأقفاص التى تســـتر الناس بالديباج •

واقرأ الآية الكريمة التى تحث على حسن المظهر : « خذوا زينتكم عند كل مسجد (١) » • وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : إذا آتاك الله مالا فَلْيُـرَ أثَرُ نعمته عليك •

٣ ـ المـــال مال الله •

يقرّ الاسلام حق الملكية الفردية كمــا سبق القول ، ولكن المقصود من هـــذا التعبير هو ملكية الفرد بالنسبة للأفراد الآخرين ، أو قل : ملكية الظاهر ، أو ملكية الانتفـــاع ، أمـــا المالك الحقيقى لكل شىء ، فهـــو الله سبحانه وتعالى قال تعالى : « لله ملك السموات والأرض وما فيهن » (٢) : وقال : « هو الذى أنشــأكم من الارض واستعمركم فيهــا (٣) » ويترتب على هـــذهالفكرة وهى أن المـــال مال الله ، نتائج ذات بال ، فلا يجـــوز للغنى أن يكنز المال ، بل لابد أن يطلقه للتعامل ، لينتفع به الصانع والعامل والزارع والتاجر ، ولا يجوز أن يستعمله فى رشوة ، ولا أن يسرف فى استعماله ، أو يبخل به على المحتاج ، ولا يجوز أن يستعمله فى ربا أو احتكـــار •

---

(١) سورة الاعراف الاية ٣١ .
(٢) سورة هود الاية ٢٢ .
(٣) سورة المائدة الاية ١٢٠ .

٤ ـ مبدأ حق الفقير فى مال الغنى :

هـذا المبدأ من أهم المبـادىء فى التشريع الاسلامى ، ويهمنـا أن نبرز فيه كلمة « حق » بمدلولهـا الكامل ، فالذي يسـتحقه الفقير أو الدولة فى مال الغنى ليس منحـة وليس عطاء وليس تَفَضُّلاً ، ولكنه حق ، فاذا نكص الغنى عن تسليم ذلك الحق ، ألزمه الحاكم بذلك وأرغمه عليه وإن احتاج الأمر للتدخل المسلح والحرب ، وقد روى عن أبى بكر قوله : والله لو منعونى عقـال بعير كانوا يعطونه لرسول الله لحاربتهم عليـه .

وكلمة « حق » هـذه وردت فى القرآن بهـذا النص إبرازاً للمعنى الذى شرحناه .

قال تعـالى :

ـ وآت ذا القربى حقه والمسكينَ وابن السبيل (١) .

ـ وآتوا حقَّه يوم حصاده (٢) .

ـ وفى أموالهم حق معلومٌ للسائل والمحرومْ (٣) .

وكثير من الناس يظنون أن الزكاة هى الحق الوحيد الذى يجب فى مال الغنى ، ويهمنا أن نوضح قصـور هذا الرأى ، ويهمنـا أن تذاع الحقيقة فى هـذا الموضوع بين الناس ليعرفوا التشريع الاسلامى على وجهه الأكمل ، فالحقيقة أن فى مال الغنى نوعين من الحقوق همـا :

(أ) حق **محدد** ، **ثابت** ، **دائم** ، وهو الزكاة ، فهى مقادير محدَّدة ، وتجب فى وقت معين ، وتدفع فى جميع الظروف ، وهـذا الحق هو الحدُّ الأدنى فى مـال الغنى .

---

(١) سورة الاسراء الاية ٢٦ .
(٢) سورة الانعام الاية ١٤١ .
(٣) سورة الذاريات الاية ١٩ .

(ب) **حق غير محدد ، وغير ثابت ، وغير دائم** ، وذلك القسم هام جداً فى التفكير الاسلامى ، وهو غير محدد أى يزيد وينقص حسب الحاجة وحسب مقدار الثروة ، وغير ثابت أى ليس له وقت معين بل يطلب عند الحاجة ، وغير دائم أى يدفع عند حاجة الناس أو الدولة ويسقط إذا لم توجد هذه الحاجة .

وبجانب هذين النوعين الواجبين هناك نوع مندوب وهو نفقة التطوع ، وهو الإعطاء تفضلا مع عدم حاجة المعطى إليه ، كأن تعطيه مزيداً من الملابس ، أو تحسّن داره أو مركبه ، أو تزوجه وهو فى غير حاجة ماسة الى زواج ، أو نحو ذلك من غير الضروريات ، وقد عد الله سبحانه هذا المنح قرضاً له وألزم نفسه بسداده . قال تعالى :

من ذا الذى يقرضُ الله قرضاً حسناً فيضاعفهُ لهُ أضعافاً كثيرة والله يقبضُ ويبسط (١) .

— وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين (٢) .

— إنْ تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم (٣) .

وقد اتضح مما سبق أن الاسلام يقرّر ما يسمّى الآن الضريبة التصاعدية ، وكذلك ما يسمى العلاوة الاجتماعية ، فكلما زاد الغنى زادت النسبة الواجب إخراجها من المال ، وكلما كثرت التبعات زاد ما يلزم أن يُعْطى للمحتاجين (٤) .

---

(١) سورة البقرة الاية ٢٤٥ .
(٢) سورة سبأ الاية ٣٩ .
(٣) سورة التغابن الاية ١٧ .
(٤) انظر تفصيل هذه النقطة فى كتاب « المجتمع الاسلامى » للمؤلف .

الاقتصاد الاسلامى بين المبادىء الاقتصادية الحديثة

قلنـــا إن للاسلام فى سياسة المـــال فلسفة خاصة ليست بالشيوعية ، ولا بالرأسمالية ، ولا بالاشتراكية الأوربية ، وقد بَيَّنَّا بإيجاز ملامح الفلسفة الاسلامية ، ونريد أن نعرف هنا مكانها بين مختلف الاتجاهات •

الاقتصاد الاسلامى والشيوعية :

يبعد الاقتصاد الاسلامى عن النظم الشيوعية بعداً واســـعاً ، فقد سبق أن قررنا أن الاسلام يقر الملكية الفردية ويقر التفاوت فيهـــا ، ويشمل ذلك ملكية الاراضى الزارعية وملكية المتاجر والمصـــانع ، ولا يجيز الاسلام التدخل فى هـــذه الملكية إلا إذا تعارضت مع الصـــالح العام كمـــا سبق ، ويحرس الاسلام هـــذه الملكية وينقلها لورثة المالك ، والاسلام بذلك يعارض الشيوعية التى لا تدع للانســـان إلا « حق الامتلاك الشخصى للدخل الناتج من عمله ومدخراته ، والمنزل الذى يســـكنه بأثاثه وأمتعته ، والأدوات المخصصة لاستعماله الشخصى وتوفير الراحة له ، وحق توريث هـــذه الملكية الشخصية [1] •

ومن الحق أن نوضح أن الشيوعية أدركت بعدهـــا عن العقل والمنطق السليم فى نظامها الاقتصادى ، فأدخلت ولا تزال تدخل بعض الأفكار على أسسها ، تحاول بذلك الجمع بين الماركسية التى هى دين الشيوعيين وبين الحكمة وحاجات المجتمع •

الاقتصاد الاسلامى والرأسمالية :

الفرق بين الاقتصاد فى الاسلام والاقتصاد فى النظم الرأسمالية عظيم للغـــاية ، فمع أن كِلاَ النظامين يبيح الملكية الفردية والتفـــاوت فيها ،

---

(١) دستور الجمهوريات السوفيتية .

وإرثهـا ، إلا أن الهوة بعد ذلك تبـدو واسعة بين النظامين ، فالملكية فى النظم الرأسمالية مطلقة لا قيود عليهـا ، ولكن الملكية فى النظام الاسلامى مقيـدة ، فلا يجوز للمالك فى النظام الاسلامى أن يحتكر ، أو يسرف ، أو يكنز ، الى غير ذلك ممـا سبق إيضاحه ، لأن المالك الحقيقى هو الله ، وقد حدد للمالك المؤقت وهو الانسـان طرق الاستعمال ، وهـذا بخلاف النظام الرأسمالى ، فللمالك فيه أن يحتكر ويكنز ويسرف وغير ذلك مما هو فى الحقيقة طبيعة الرأسمالية •

ومن طبيعة الرأسمالية كذلك اعتبار الانسـان آلة تتحرك لتجنى الخير لأصحاب رءوس الأموال ، فالعامل عند الرأسماليين جهاز يعمل لهم حتى إذا سقط أو مرض طرحوه ، ولم ينل العمـال بعض الحقوق من أصحاب رءوس الأموال إلا بعد جهاد طويل وشاق ، ولم تعترف الرأسمالية بهـذه الحقوق إلا بعد ضغط شديد •

والرأسمالية عدوة المجتمعات ، فهى لا تفكر إلا فى مضاعفـة ثروات أصحابها على حساب المجتمع الذى تعـده سوقاً لهـا ، تغريه وتخدعه لتتشرب ثرواته وتأخذ دخله بطريق أو بآخر •

« وقد أدركت الرأسمالية كراهية الجماهير لهـا واحتمال ثورتهم فى وجهها ، فأعدت العـدة للتضييق على الجماهير وكبت ثورتهم ، وذلك عن طريق اتصالها بسلطان الحكم ، إمـا بوصول بعض كبار أصحاب رءوس الأموال الى مناصب الحكم فى الدول الرأسمالية ، وإمـا بالتأثير فى رجال الحكم بسبب نفوذهم المـالى والاقتصادى ، وبذلك خرجت المشـاريع الرأسمالية من كونهـا مشاريع اقتصادية بحتة الى مشاريع لها أثر واضح قوى فى الحيـاة السياسية والدولية ، وبذلك ازدادت سلطة الرأسمالية وأصحاب الأعمال على العمال ، وعلى مختلف الطبقات العاملة ، كمـا ازداد التنافس والتطاحن بين الدول [١] •

---

(١) دكتور قهر الدين يونس : الانسـانية ص ٢٤ •

ومن هنـــا يتضح أن النظام الرأسمالى لا يعيش إلا فى جو سياسى معين ، أو قل إن هــذا النظام يتدخل فى شئون السياسة والحكم ، وذلك أيضـــاً عنصر آخر يبعده عن النظام الاقتصادى فى الاسلام •

الاقتصاد الاسلامى والاشتراكية الأوربية :

وتختلف اشتراكية الغرب عن اشتراكية الاسلام ، فاشتراكية الغرب تقوم على أساس من حرب رأس المــال ونضال الطوائف ، أما الاشتراكية الاسلامية فتقوم على أساس التعاون والاخاء •

ومن الواضح كذلك أن الاشتراكية الغربية ترمى للقضاء على الثروات الكبيرة ، وتقف موقف العداء من الملكيات العظيمة ، وتحــاول أن تفتتهــا بسبب وبدون سبب ، وليس كذلك الاسلام ، فهو لا يتصدى لحرب مع الملكيات الكبيرة مــا دامت هذه الملكيات قد تكوّنت على أساس ســليم ومــا دامت بعد تَكَوُّنها تابعة لروح الاسلام ، عاملة لخير المجتمع وغير ضارة به ، وإنما يُنْتَفَع بها فيما يَنْفَع المجتمع الاسلامى ويعود عليه بالخير ، ويضع الاسلامُ وسيلة هامة يصــل بها الى هدفه الرئيسى وهو إزالة الطبقية الثابتة وعدم تكديس الأموال فى أيد قليلة ، وهــذه الوسيلة هى نظام الميراث الذى من طبيعته أن يفتت الثروات •

والاشتراكية الغربية تكْثِر من التأميم ، فتقرب بذلك من الشيوعية التى تعمل على أن تملك الدولة كل شىء ، أمــا التفكير الاسلامى فانه يســعى لتوزيع الثروة على الأفراد ، كمــا يقصد أن تنتقل الثروات بين الناس تبعاً للجهد والتوفيق •

والملكية فى الاشتراكية الغربية ملكية كاملة ولكنها فى الاسلام وظيفة اجتماعية ليس غير •

تلك فكرة موجزة عن النظام الاقتصــادى فى الاسلام ، ذلك النظام الذى حقق لتابعيــه فى الفترات التى اتبع فيهــا أسمى ألوان اليمن والبركة واليســار •

مجتمع متعاطف

فيما يلى نموذج لحـــال المجتمع الاسلامى ، ومـــا يجب أن يعمّه من حب وتعاطف وتعاون ، وهو نموذج من واقع الحيـــاة ، لا من نســـج الخيال ، نموذج للمجتمع الاسلامى فى عهد عمر ، عندما أَلَمَّتْ بالمسلمين نازلة ، وحلت بهم كارثة أو كوارث متعددة .

كيف تصرف الراعى ؟ وكيف تصرف القادة ؟ وكيف تصرفت الرعية ؟ وكيف كان الإيثـــارُ ، والتضحية ، والتعاطف ، خُلُقَ هذه الجمـــاعة وهدفهـــا ؟

إننـــا نقدم بفخر هذا النموذج الرائع ، راجين أن يكون مثلا يحتذى فى عالمنا الاسلامى الحاضر :

حدثت فى عهـــد عمر حادثة جسيمة ، أو قل أحداث جســـام ، تلك هى المجاعة القاسية ، ومـــا جرّته من أوبئة فتاكة ، وموت ذريع ، وقد استمرت هـــذه الأحداث عدة شهور ، جاوزت العـــام ، ولكنها كانت وثيقة الدلالة على تعاطف هـــذا المجتمع ، الذى تكوّن منه جسم واحد ، إذا شكا منـــه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

تسعة شهور تبتدىء من أواخر السنة السابعة عشرة للهجرة ، لم يَهْطِل المطر خلالهـــا فى شبه الجزيرة ثم تحركت الطبقات البركانية بداخل الارض فاحترق سطحها ، ومـــا عليه من نبات ، وكثر الرماد الناعم الذى تحمله الرياح ، حتى سمى هذا العام (عام الرّمادة) .

والجزيرة العربية تعيش على المطر ، إنه يهطل فيشرب النـــاس ، ويزرعون ويحصدون ، وينمو العشب فترعى الماشـــية ، وتربّى اللحم والصـــوف ، وتدرّ اللبن ، فاذا توقّف المطـــر وطال توقفه الى هـــذه المدة ، جف الزرع والضرع ، وعمّ الجوعُ والبلاء ، وهلكت الماشية ، أو أصبحت عجفاء هزيلة . وهذا مـــا حصل فى هـــذا العام ، فان المـــاء

نضب ، فنضب معين الرزق ، وجفت الماشية ، حتى أصبح العربى يذبح منها ، ثم يعافها لقبحها وهزالها •

وقد شملت هــذه البلوى الحضر وشملت بادية الجزيرة العربية بوجه خاص ، وهرع أهل البادية الى المدينة حيث يعيش الخليفة يطلبون إليه أن يدبر أمرهم ، ويلتمسون عند أهل الحضر شيئا ممــا تعودوا أن يختزنوه •

وأحس عمرُ بجوع النــاس وحرمانهم ، فحلف ألا يذوق لحمــاً ولا سمناً ، حتى يحيــا الناس ، ووضــع دستوره العادل : « كيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يمسنى مــا يمسهم ؟ » •

قال عياض : رأيت عمر عام الرماد ، وهو أسود قد تغيَّر لونه من الحرمان ، وأكل الزيت •

وقال يزيد بن أسلم : لو لم يرفع الله المَحْلَ عام الرمادة لظننا عمر يموت همــا بأمر المسلمين •

وكتب عمر الى الوُلاة فى الشــام وفلسطين والعراق ، يستنجدهم ويطلب منهم العون ، وكانت عبارته لهم قصــيرة عميقة التأثير : « سلام عليك ، أمــا بعد ، أفترانى هالكا ومَنْ قِبَلى ، وتعيش ومَنْ قِبَلَكَ ؟ فياغوثاه ! يا غوثاه ! » • لم يصدر عمرُ — مع قوته — أوامر ، وكل ما فعله هو هذه المقارنة التى تقرر ضرورة التعاون فى السراء والضراء ، وأن من العدل أن يقتسم الناس الخير والشر ، وليس من الاسلام أن يجوع ناس ويشبع آخرون أو يتخمون •

وسارع المسلمون فى كل مكان يلبّون دعــوة إخوانهم فى الجزيرة العربية ، وانهــال العطاء من كل جانب بكثير من السخاء والكرم ، وكان أبو عبيدة بن الجراح أسرع الأمراء استجابة لنداء عمر ، فقدم من حمص فى أربعة آلاف راحلة محملة طعاماً ، وبعث عمرو بن العاص الطعــام من فلسطين على الإبل وفى الســفن ومعهــا خطاب يقول : أرسلت لك عيراً أولهــا عندى وآخرهــا عندك ، وبعث معــاوية ثلاثة آلاف بعير من الشــام ، وبعث سعد بن أبى وقاص ألف بعير من العراق تحمل الدقيق ،

هـذا عدا الأكسية الكثيرة التى أرسلها هؤلاء وكان عمر يرسل مِنْ قِبَلِه مَنْ يستقبل العير ويميل بهـا للمحتاجين ، وكان حريصاً على أن يسد بها خلة الناس ويزيل عنهم الجوع ، فكان يقول لكل من مندوبيه : أما ما لقيت من الطعـام فمل به الى أهل البـادية ، فأما الظروف فاجعلها لحفـا يلبسونها ، وأمـا الإبل فانحرها لهم يأكلون من لحومهـا ويخزنون من ودكهـا ، ولا ترض أن يقولوا : ننتظر بها الحيا ، أمـا الدقيق فيصنعون ويُحْرِزون حتى يأتى الله بالفرج •

وكان عمر يُعدُّ الطعام فى بيتـه ويقدمه للوافدين من البادية وغيرهم ممن ليست لهم بيوت بالمَدينة ، وقد بلغ من طعمـوا على موائده ذات ليلة ، عشرةَ آلاف شخص ، وأمـا المرضى والضعفاء ، فكـان يرسل لهم طعامهم حيث هم ، بخلاف أسرٍ أخرى بالمدينة كانت تأخذ الدقيق والأدم وتتولى الطبخ بنفسها •

ووضع عمر دستور التعـاون الذى لا نعتقـد أن المدنيّة فى أسمى مراحلهـا تستطيع أن تصل إليه ، قال : لو لم أجد للناس ما يَسَعُهُمْ إلا أن أُدْخِلَ على أهـل كل بيت عدَّتهـم فيقاسموهم طعـامهم حتى يأتى الله بالحيا ، فعلتُ فانهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم •

ومـا إن انتهى هذا القحط ونزل المطر ، حتى روَّع المسلمين حادثٌ آخر ، ليس أقل خطراً من الجدب والمجاعة ، ذلك هو الوباء الذى انتشر فى أرض الشـام • وانتقل منهـا الى العراق ، وقد حصد هذا الوباء عدداً كبيراً من المسلمين ، وكان يصـيب الرجل فيسقط سريعاً ، وكان أبو عبيدة بن الجراح على جند الشـام فى ذلك الحين حيث انتشر الوباء واستفحل خطره ، وأبو عبيدة حبيب الى نفس عمر ، وهو أمين هـذه الأمة كمـا لقبه الرسول ، وكان عمر يفكر فى أن يستخلف أبا عبيدة بعده ، ومن أجل هـذا فكر فى إبعاده عن الشام ومـا فيه من وباء وموت •

ولكن عمر كان يدرك أن أبا عبيدة يحرص على أن يبقى مع جنده

يصيبه مـا يصيبهم أو تحميه عين الله ، ولذلك نجـد عمر يكتب لأبى عبيدة لا ليعلن له مـا يضمره بشأنه ، بل يكتب له قائلا : « أمـا بعد ، فإنى قد عرضَت لى إليك حاجة أريد أن أشافهك فيهـا ، فعزمت عليك إذا نظرت فى كتابى هـذا ألا تضـعه من يدك حتى تقبِل الى » •

ولكن أبـا عبيـدة أدرك بذكائه مـا أراده عمر ، وعزّ عليـه أن يخْلَى جنده فى منطقته الخطر ويفرّ بنفسه فأجاب الخليفة قائلا : « إنى قد عرفت حاجتك الى ، وإنى فى جند من المسلمين لا أجد بنفسى رغبـة عنهم ، فلست أريد فراقهم حتى يقضى الله فىّ وفيهم أمره وقضاءه ، فحلّلنى من عزمتك يا أمير المؤمنين ودعنى فى جندى » وقرأ عمر الكتـاب فبكى ، فسأله من معه : هل مات أبو عبيدة ؟ فأجاب : لا وكأن قد • ومات أبو عبيدة عقب ذلك فى وسط جنده وفى وسط البلاء •

* * *

وبعد ، ذلك هو الاسلام الذى جاء بحق ليكون خاتم الأديان ، وجاء رسوله ليكون خاتم الأنبياء ، وقد حمل الاسلام بين دفتيه سعادة الدين والدنيـا لمن تبعه وسار فى ضوئه ، كمـا تسربت منه لغير معتنقيه ألوان من المعـارف والثقافات والاتجاهات الخلقية لم تكن البشرية تعرفهـا من قبل ، وقد استطاع هـذا الدين أن يحمى نفسه من الترهات والأباطيل خلال القرون الحالكة التى مرت بالمسلمين ، فلما جاء عهـد النور خرج للناس بآلائه وصـفائه كإشراقة الصبح وبسـمة الأمل ، ولا نزاع أن البشرية لن تجـد إلا فى ظلاله سعادتها واستقرارها ولا نزاع أنه سيكون دين المستقبل ، لقد انتشر الاسلام فى طول الارض وعرضهـا حتى يوم كان المسلمون مغلوبين على أمرهم ، والآن وقد استعاد المسلمون مكانتهم وتحررت بلادهم وعقولهـم ، لابد أن زحف الاسـلام سيكون أقوى ، وانتشاره سيكون أشمل : « إن الدين عند الله الاسلام » (١) •

---

(١) سورة آل عمران الاية ١٩ .

الكفـة الراجحة

هـذا العنوان استعرناه من باحث فى الأديان ، باحث مرَّ بتجربة مهمـة يجدر بنـا أن نعرضها وأن نتدارسها ، إنهـا تجربةُ تحوّله الى دين الاسلام ، وهو يصف هـذه التجربة أبلغ وصف وأدقّه ، وبذلك استحق أن نقتبس منه معالم هـذه التجربة ، لنعرضهـا ، لعل فيهـا هدى ونوراً لبنى الانسان ، ذلك الباحث اسمه الآن « محمد فؤاد الهاشمى » وهو مؤلف كتاب « الأديان فى كفة الميزان (١) » ، ووصفهُ لتجربة تحوّله الى الاسلام يدل على هدوء وعلم وعمق ، وربما رأيت الآلاف ممن تحوّلوا الى ديننا الحنيف ، أو قرأتُ لبعضهم ، ولكن الوصف الذى دونه الأستاذ الهاشمى تحت عنوان « الكفة الراجحة » يفوق كل وصف ، فيه إحاطة ، واتزان ، وعمق ، وفيه دقة فى تصـوير الانفعالات النفسـية ، فلنفسح هنا المجال لموجز لهـذا المقال مع بعض التصرف فى العرض :

يولد الانسان على دين آبائه ، ويشب على مبادئهم ، وربمـا فاقهم فى التطرف والتمسك بهذا الدين ، فاذا شبَّ عن الطوق ، مرت به من حين الى حين ساعات من الصـفاء الروحى والحياد العقلى (٢) ، فيأخذ فى التأمل فيمـا يدين به ، ومناقشة مـا يتلقى من تعاليم ، وكثيراً مـا يُسْلِمه هـذا الى الشكوك والصراع الفكرى ، لمـا يظنه متناقضات فى معتقَده ، وهـذا يسلمه مرة أخرى للبحث والتنقيب عن الحقائق (٣) .

. . . .

---

(١) من ١٧٨ — ١٨٢ بتصرف .

(٢) هذا اذا كان يميل للفكر والبحث ، أما اذا كان بسيطا أو من العامة ظل على التقليد طول عمره ، وفى ذلك السلامة لامثاله . (شلبى)

(٣) عند ضعف الشخصية واختفاء مظان البحث ، يستسلم بعض الناس فى هذه المرحلة الى الشكوك وربما يصلون الى الالحاد . (شلبى)

وفى غمرة البحث والتنقيب عن أسرار دينـه ، قد تطرأ عليه الرغبة الملحة التى تبلغ به حد التطفل ، فيسترق السمع فى غفلة من دينـه الذى ولد وشب عليه ، الى دعوة تدعو الى دين آخر ، وقد يسرع فيسـتبعد هـذا الفكر الطارىء ، وقد يرحب به ويتوغل فى بحثـه ودرسه ، وهو يميل الى هـذا الاتجاه الأخير إذا كان عقله الفطرى قد بلغ غايتـه من التحرر ، فلم يعد ينظر الى الأبوة أو البنوة أو العشـيرة أو الأموال ، بل تكون هـذه كلها قد اضمحلت قيمتها أمام إلحاح الفطرة التى تدفع الناس دفعاً قوياً للبحث عن الحقيقة •

وكلمـا كان الدين الجديد واضحاً لا تعقيد فيه ولا تكلف ، وكلما كان متفقاً مع الفطرة التى فطر الله عليهـا خلقه ، كلمـا كان التمسك به أقوى ، دون حاجة الى دعاة يستعملون أساليب الكياسة والفطنة والمنطق الخلاب ليجذبوا لدعوتهم النـاس ، لأن الحقائق ليست بضاعة تتعلق بمطالب الجسـد ، إنما هى مطلب الروح والعقل ، والروح والعقل يبغيان الحقائق الواضحة التى لا التواء فيهـا ولا دوران •

وبعد هـذا التقديم الذى أوجزناه يقوم الأستاذ محمد فؤاد الهاشمى بوصف حالته وتطبيق هـذه الانفعالات على نفسه فيقول :

وقد صادفتنى هـذه الحالات ، ودرت فى فلكهـا ، واصطليت فى آتون الفكر ردحاً من شبابى ، فقد ولدت على دين من أديان أهل الكتاب ، ونشأت أقلد أبوىّ وأترسم خط أجدادى فى أداء الطقوس والشعائر ، حتى بلغت الرشـد ونلت حظاً من العلم ووُجهت الى تعلم هـذا الدين ، لأكون دعامة من دعائم الدعوة له ، وربمـا قائداً من قادته •

وقادتنى الدراسة الى إرهاف السمع الى عدة نداءات وصلت الى سمعى نتيجة الثغرات التى أوجدتها الريبة والشك فيما لم يستطع العقل قبوله ،وما لم يطمئن إليه الضمير لحظة الطهر الوجدانى ، فكان لتلك النداءات حظ من الانصات الذى أعقبه التفكير فى الأديان السـابقة على دينى ، فكنت كالمستجير من الرمضـاء بالنـار ، إذ وجدت بعد التمحيص أن أغلال دينى أخف وطأة من قيود ما سبقه من أديان الطغيان الكهنوتى والكنسى •

وبعد أن أكملت دراستى — دون أن أصيب مــا بحثت عنه — تحولت الى البحث فى الدين الاسلامى ، وفى هذه المرة لم تكن بغيتى الفرار من دينى ، ولكن كان قصــدى من البحث فى الاسلام استخراج العيوب ، وتلمس الأخطاء ، والوقوف على المتناقضات التى أوحى الىّ بها أساتذتى وأهلى ، ولكنى لم أكد أطرق الباب وأمسك بأول الخيط حتى دخلت باب المقــارنة بين ذلك الدين ومــا سبقه من أديان ، ولم أخرج من تلك المقارنة إلا وقد استولى علىّ سحر الحقيقة الناصعة ، والمبادىء الوضاءة والتعاليم الصريحة ، التى لا اعوجاج فيها ولا التواء ، ولا سلطان لكاهن ولا طغيان لاحبــار .

وجدت لكل سؤال جوابا ، ووجدت فصل الخطاب فيمــا لم يستطعه دين سابق ، ســواء كان وضعيا ، أو مبدأ من المبــادىء الفلسفية ، أو منحدراً من الأديان السماوية ، وقولى منحدراً يرجع الى أن رجال الدين خرجوا بالأديان السماوية عمــا جاءت من أجله ، ولقد وجدت أن مــا زعموه فى الاسلام عيوباً هى فى الحقيقة مزايا ، ومــا ظنوه متناقضات هى حِكَمٌ فصلت لأولى الألباب ، وأن مــا عابوه على الاسلام كان علاجاً للبشرية التى طالمــا تردّت فى بيداء الظلمات حتى أخرجهــا الاسلام الى النــور ، فأخذ الاســلام بلبى وقبض عــلى عقلى ، ومن واضــح أحكامه ونور تعاليمه وصدق رسالته حُمِلتُ على الإيمــان به والتصديق بمــا جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وانقدت إليــه دون إكراه أو ضغط أو إغراء ، ولكنى آمنت به عن تعقل وتفكر ودراســة وتمحيص ومراجعة ، وبهــا كلها رجحت كفة الاسلام وشالت كفة سواه ، « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنــا من لدنك رحمــة ، إنك أنت الوهاب (١) » « ربنــا وآتنــا مــا وعدتنا على رســلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد (٢) .

---

(١) سورة آل عمران الاية الثانية .

(٢) سورة آل عمران الاية ١٩٤ .

صورة أخرى

من صور التحوّل للإسلام

يصف الدكتور نظمى لوقا أحداث تحوّله من المسيحية الى الاسلام بقوله : « عندما اشتدت علاقتى بشيخى (الشيخ سيد البخارى) الذى كان يعلمنى اللغة العربية والأدب العربى فى السويس ، اتّجه كثير من المسيحيين الى أبى يلومونه أن وكّلنى الى هـذا الشيخ ، ويخوّفونه من النتيجة ، فاتجه والداى لتعليمى فصولا من الإنجيل ؛ كمـا اهتما بارسالى الى الكنيسة من حين الى حين ، وجُعلَتْ أسرارُ العقيـدة المسيحية تُصَبُّ فى دماغى صبّاً ، فاستعصى علىَّ فهمُ الكثير منهـا ، وحاولتُ المناقشةَ لأفهم مـا أتلقّى ، فقيل لى : إن الإمعـان فى التفكير يسوق الى الكفر ، وإن المناقشة سبيلُ الشكّ ، ومن دخل الشكُّ فى قلبه فارقتْه نعمةُ الإيمان ، وبغير نعمةِ الإيمان يهلِك المرء ، ولا يدخل ملكوت السمـاء .

« ومن ناحيةٍ أخرى رأيت مرةً حشداً من الأقبـاط يستمعون لواعظ منهم ، ولكن عظاته كلهـا كانت تنديداً بطائفـة البروتستانت ، وسمّاهم الذئاب الخاطفة ، وحضّ على اختصامهم ، وأنه لا يحـلُّ لقبطىٍّ أن يصافح واحداً منهم ، أو يردّ عليه السلام .

« وعلى العكس من ذلك كان الشيخ يشرح لى كل شىء ويعلّل لى كل ما لا أفهمه ، وكان يعلمنى حب الآخرين وان اختلفوا معى فى الرأى أو العقيدة . وهكذا دبّرت أمراً فأعلنت اسلامى » (١) .

---

(١) دكتور نظمى لوقا : محمد الرسالة والرسول ص ٤٠ — ٤١ .

آراء المفكرين الغربيين
فى الاسلام ورسول الاسلام

ليست هناك كتب ذات بال باللغات العالمية عن الاسلام ، وهذه خطيئة سيحاسب عليها كل مسلم ، وبخاصة أولو الأمر وأغنياء المسلمين ، ويوم تنتشر أمثال هذه الكتب بين شعوب العالم سينجذب الكثيرون الى الاسلام .

وفى هذا المعنى يقول الدكتور بول دى ركلا ما يلى : آن لنا أن نعرف ويعرف العالم أجمع جوهر هذا الدين ، لأن معلوماتنا عنه ليست قليلة فحسب . بل هى سيئة جدا .

والمسلم الذى يقرأ هذا الكلام يحس بمسئوليته تجاه تقديم الاسلام لكل المجتمعات .

وأكثر أتباع الديانات الأخرى يحكمون على الاسلام بما يجدونه فى المسلمين من تخلف ، ونحب أن نقول لهؤلاء إن الاسلام ينبغى أن يؤخذ من مراجعه الدقيقة ، وليس من سلوك المسلمين ، فكثير جدا من المسلمين انحرفوا عن الاسلام لأسباب خارجية أو داخلية ، وبالتالى أصابهم الضعف ، **فالصراعات الداخلية ، والمغول ، والصليبيون ، والاستعمار الأوربى ، والصهاينة ، وجمود الكثيرين من القيادات الدينية ، والبدع والخرافات فى العالم الاسلامى** كل هذه أنزلت الكوارث بالمسلمين ، وأضعفت شأنهم فى كثير من المجالات ، ولكن صحوة بدأت فى العالم الاسلامى ، وهى صحوة يرتجى أن تعيد الدراسات الاسلامية الى مجدها ، وأن تعيد المسلمين الى الاسلام الصحيح ، وبالتالى الى مكانهم فى هذا العالم .

وفى كلمات موجزة نذكر أن الاسلام خاتم الاديان ، يعترف بالأديان السماوية السابقة وبكتبها المقدسة الصحيحة ، ويقرر ما لا يزال صالحا من مبادئها التشريعية ، ويضيف اليها ما تحتاجه البشرية الى يوم الدين

والذى يدخل الاسلام من أتباع الديانات السماوية السابقة لاينتكر

لدينه » ولا ينسى نبيه ، فالاعتراف بالأنبياء السابقين واجلالهم واجب إسلامى •

وفى الاســـلام مبدءان مهمان ويسيران همـــا : علاقة الانســـان بربه ، وعلاقة الانسان بالانسان والمجتمع ، ويحوى المبدأ الأول العبادات ، ويحوى المبدأ الثانى المعاملات بكل أنواعها ، كما يشمل مكارم الأخلاق •

* * *

وهناك صـــفوة من المفكرين الغربيين أتيح لهـــم بطريق أو بآخر أن يتعرفوا على الاسلام ، وأكثرهم اعتنقه نتيجة لهـــذا التعرّف ، وبعضهم أجلّه وأثنى عليه ، وإن حالت ظروف خاصة دون اعتناقه •

ومن هؤلاء وأولئك نقتبس ما دوّنوه عن الاسلام ونبى الاسلام :

رسول الاسلام فى رأى الغربيين

لا تبعية ولا اطمـــاع :

يقول « كارليل » : ان الأفكار التى جاء بهـــا محمد ليست مقتبسة من فكر بشرى ، فهو لم يغترف من مناهل غيره ، وكان فى فؤاد هـــذا الرجل ابن القفار والفلوات أفكار لا تعرف مـــا كان شائعا من طمع دنيوى ، أو طلب للسلطة والجـــاه •

ونضيف أن محمدا أهمل الدنيا تماما ، واذا كان الاسلام لا يحرّم زينة الله التى أخرج لعبـــاده والطيبات من الرزق (الأعراف ٣١) فان محمدا أهمل هـــذه الزينة ، وان كان لم يأمر أتباعه بإهمالهـــا ، وكان هذا من أهم أسرار عظمته ، لأن أتباعه لم يروا فيه طمعـــا ، ولا حرصـــا على أى مال أو متاع ، فأدركوا أن دعوته تتجه للصالح العام دون أن يخص نفســـه بشىء ، بل انه لم يشبع قط كمـــا قالت الســـيدة عائشة ، وهذا هو أهم سرّ للعظمة فى الزعماء •

لا خوارق :

يقول « إيتان دينيه » : اننا نرى من بين جميع الأنبياء الذين أسسوا

ديانات أن محمدا هو الوحيد الذى لم تكن معجزاته خوارق مادية ، فهو قد قدم رسالة تعتمـد على الفطرة والوضوح ، وعلى بلاغة القرآن الإلهيـة ، واستغناء محمد عن الخوارق هو فى ذاته معجزة كبرى .

ونضيف هنا الآية الكريمة « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بهـا الأولون » (الاسراء ٥٩) .

ولا قوى غيبية :

وكان محمد حريصا على النص بأنه مجرد بشر رسول ، أصطنعه الله لإبلاغ الوحى ، ولم ينسب لنفسه قط أية صفة ربانية أو قوى غَيْبِيَّة .

شىء من أخلاقه :

ويقول ايتان دينيه كذلك : كان محمد لا يغرق أبدا فى الضحك ، وإذا اشتـد به المرح حجب فمـه بيده ، وكان هادىء الطبع ، لا كبر فيـه ولا خشونة ، يحب الأطفال ويلاعبهم ، سواء فى ذلك أولاد الأشراف أو أولاد العبيد ، وكانت طبيعته « محبة » وجنانا .

ويضيف وليم ميور لأخلاق محمد قوله : ان من صفات محمد الجديرة بالتنويه ، الرقة والاحترام اللذين كان يعامل بهما كل أتباعه ، فان التواضع ، وإنكار الذات ، والرأفة ، والأناة ، والسماحة ، والسخاء ، تغلغلت فى نفسه فأحبه كل من حوله .

أعظم رجل بكل المقاييس :

ويقول الشاعر لامرتين : ان محمدا هو أعظم رجل بجميع المقاييس التى وُضِعَت لوزن العظمة الإنسانية ، فإذا كان مقياس العظمة الإنسانية هو اصـلاح شعب متدهور ، فمن ذا الذى يطـاول محمدا فى هـذا المضـمار ؟

واذا كان مقياس العظمة هو توحيد الانسانية المفككة الأوصال ، فان محمدا أجدر الناس بهذه العظمة لأنه جمع شمل العرب بعد تفكك شامل .

واذا كان مقياس العظمة هو اقامة حكم السماء فى الارض ، فمن ذا الذى ينافس محمدا الذى محا مظاهر الوثنية وثبت عبـادة الله وقوانينه فى عالم الوثنية والقـوة .

تسـامحه :

ويقول واشنجتون ارفنج : ان من أبرز صفات محمد التى حققت فوز الاسلام تسامحه مع خصومه ، ولسنا نعرف فى التاريخ رجلا كمحمد فى هذا المضـمار ، لقد تسامح فى أوقات كان الزعماء فى أمثالها ينكلون بمن كانوا معارضين لهم تنكيلا بشـعا ، ولكن تسامح محمد مع خصومه ومع معارضيه حقق له سيادة وتفوقا على كل الزعماء والقادة عبر القرون .

أستاذة إيطالية تتحدث عن تعدد زوجات الرسول :

تقول الدكتورة لورا فيتشا فاليرى أستاذة اللغـة العربية والحضارة الاسلامية بجامعة نابولى : لقد حاول أعداء الاسلام أن يظهروا النبى فى صـورة رجل تظهر فيه الرغبة الجنسية ، واتخذوا من تعدد زوجاته حجة لذلك ، وفاتهم أن النبى أيام فتوته وعنفوان شبابه لم يتزوج إلا من امرأة واحدة هى السيدة خديجة ، وعاش معهـا حتى جاوز الخمسين ، وبعد وفاتها تزوج من أخرى كمـا عقد زيجات مختلفة كانت فى أغلب الأحيان لدوافع اجتماعية أو سياسية .

محمد فى انجيل برنابا :

وفى انجيل برنابا الموجود مخطوط به باللغـة الايطالية بالمكتبـة الامبراطورية فى فيينا التى ترجمهـا Lonsdale and Laura Ragg الى الانجليزية يسأل رجل "عيسى عليه السلام هذا السؤال :

ماذا سيكون اسم المسيح الذى تبشر به ؟ ومن الذى سماه ؟

فأجاب عيسى : اسم المسيح محمد (باللغة الانجليزية Admirable) وقد سماه الله عندما خلق روحه فى الأمجاد السماوية .

دين الاسلام فى نظر الغربيين

بين يدى كتاب عنوانه « لماذا أسلمنا » وهو يشمل مجموعة مقالات لنخبة من رجال الفكر فى مختلف الأقطار عن سبب اعتناقهم دين الاسلام وقد نشرته رابطة العالم الاسلامى بمكة المكرمة ، وهذا الكتاب جدير بالتقدير لأنه ينقل للقارىء العربى أفكار الغربيين عن دين الاسلام ، ولكنى كنت أفضل أن تترجم هذه المقالات الى اللغات الحية وأن يكون الكتاب الجامع لها واحداً من الكتب التى تقدّم الاسلام لغير المسلمين ليتعرفوا عليه ، ولا تزال الفرصة سانحة ، وأرجو أن تتحقق فى المستقبل إذا كنا لم نستطع تحقيقها فى الماضى •

وسنقتبس من هذا الكتاب بعض فقرات قصيرة توضح سبب انتقال هؤلاء المفكرين من أديانهم الى دين الاسلام ، كما سنقتبس فقرات أخرى عن دين الاسلام من مفكرين لم يدخلوا الاسلام لسبب أو لآخر •

ولن نتبع التسلسل التاريخى لهؤلاء المفكرين ، وإنما سنورد أقوالهم مصنفة حسبما نرى أهميتها :

برنارد شو والاسلام :

يقول برنارد شو : « إن الاسلام دين يستحق كل احترام وإجلال لأنه أقوى دين على هضم جميع المدنيات ، وهو خالد خلود الأبد ، وإنى أرى كثيرا من بنى قومى العلماء قد دخلوا هذا الدين على بينة من أمرهم ، ومستقبلا سيجد هذا الدين مجاله الفسيح فى كل أنحاء أوربا •

« ولقد درست سيرة محمد فوجدته بعيدا عن مخاصمة المسيح ، ويمكن بحق أن نعتبر محمدا « منقذ الانسانية » وأعتقد أن رجلا مثله لو حكم العالم بإيثاره وخلقه لجلب للعالم السلام والسعادة •

دين لكل الاجناس :

وقد برهن الاسلام من ساعاته الأولى على أنه دين الأجناس جميعا ،

إذ ضم سلمان الفارسى وبلالا الحبشى وصهيبا الرومى ، كمـا ضم مجموعات من النصـارى واليهود وعبدة الأوثان . وانصهر الجميع فى بوتقة واحدة دون فروق على الاطلاق ، ولم يحس أى منهم أنه غريب عن هـذا الدين ، وبعدفترة اتصل هـذا الدين بأجناس متعددة بينهـا الأسود والأصفر والأبيض ، وكانوا جميعا فى رحابه متساويين سعداء .

دين المساواة :

ويذكر الدكتور عمر رولف بارون (النمسا) فى هذا المضمار أن من أهم مـا استرعى انتباهه فى الاسلام روح الأخوة الشاملة بين عبـاد الله جميعا مهمـا تباينت سلالاتهم أو طوائفهم أو لغاتهم .

ويوضح مستر Mellma الهولندى هذا الموضوع فيقول : بالاضافة الى الوحدانيـة والصـلة المباشرة بين الله والخلق والى التسـامح الاسلامى ، أدهشنى مبدأ الاخوة فى الاسـلام ، هـذه الاخوة التى تشـمل كل البشر بغير اعتبار للونٍ أو جنسٍ أو عقيدة ، وينفرد الاسلام بين كل الأديان فى أنه الوحيد الذى طبق هذا المبدأ عمليا .

الاسلام أسلوب حيـاة :

ويقول ليوبولد فايس (محمد أسد) : ان الإنسـان فى الاسلام غير مُجْبَرٍ على أن يرفض الدنيـا ، وليس ثمة حاجة الى تقشف يفتح به الانسـان بابا سرياً الى التطهر الروحى ، فالاسـلام ليس عقيـدة صوفية ، ولا هو فلسفة ، ولكنه أسلوب حياة .

دين المستقبل :

ويقول الدكتور جيرمانوس أستاذ الأدب العربى بجامعة بوخارست : اننى شديد التعلق بالاسلام على الرغم من أنى أوربى خال من كل دم دخيل ، وذلك لاعتقادى أن مستقبل العالم وخلاصه من خطر الاصطدام الاجتماعى الذى يهـدده لن يكون إلا فى المزاوجة بين الحضـارة بدرسها وعلمهـا ، وبين الروح الإسلامية التى تنطوى عليها عقائد الاسلام .

دين العقل :

ويقول البروفسور هارون مصطفى ليون البريطانى : ان من مفاخر الإسلام أنه مبنى على العقل ، ولا يطالب معتنقيه أبداً بتجميد طاقاتهم الفكرية ، وهو بهـذا يخالف العقائد الأخرى التى تلزم تابعيها بالاعتقاد **دون تفكير على أساس أن التفكير هو حق الكنيسة وحدها ، أمـا الاسلام فيحث المسـلمين على النظر والتدبر ، ليكون ذلك وسيلة للتصـديق والإيمـان •**

ومثل ذلك ما قالته السيدة سيسيليا كانولى (استراليا) فقد ذكرت أنهـا سألت الكثيرين عمـا يقوله رجال الكهنوت ولـكن الإجابة كانت واحدة : ليس لنـا أن نناقش تعاليم الكنيسة ، ويجب أن نؤمن بهـا دون تفكير • وبدأت" بذلك أتمرد على هـذه الاتجاهات وأدرس الاسلام فوجدت أن الدين قد التقى تماما بالعقل •

حرية التدين :

ويقول Lane - Poole : إنه فى الوقت الذى كان التعصـب الدينى قد بلغ مداه جاء الاسلام ليهتف « لكم دينكم ولى دين » وكانت هـذه مفاجأة للمجتمع البشرى الذى لم يكن يعرف حرية التدين وربمـا لم يعرفهـا حتى الآن ، وسار محمد على هذا المنوال مسيرة" لم تعرف التردد •

ارتفع بالانسان :

يقول العلامة سنكس الفرنسى : ان الاسلام خلّص الانسـان من الوثنية ، وعبادة الانسان ، والأشجار ، والأنهار ، ودفعه أن يراجع نفسه ليتعرف على خالقه الحقيقى •

دين العلم :

ويقول ليوبولد فايس : ان الاسلام لم يقف يوما سدا فى وجه التقدم والعلم ، فانه يقدّر الجهود الفكرية فى الانسـان الى درجة يرفعه بهـا فوق الملائكة ، ومـا من دين ذهب أبعد من الاسلام فى تأكيد غلبة العقل ، وبالتالى غلبة العلم على جميع مظاهر الحياة •

أكثر الناس مسلمون :

هــذه نقطة مهمة وقد وضحهــا كثير من الكتاب ايضاحاً يُبْرِزُ أن الاسلام دين الفطرة ، وأن الفطرة الطيبة تجعل صاحبها مسلماً بدون شك وفى ذلك تقول الكاتبة البريطانية (ايفلين كوبلت) لقد سألنى كثيرون كيف ومتى أســلمت ؟ وجوابى على ذلك أنه يصــعب علىّ تعيين الوقت الذى سطعت فيه حقيقة الاسلام أمامى فارتضيته دينــا ، ويغلب على ظنى أننى مسلمة منــذ نشأتى الأولى ، فالاسلام دين الطبيعة الذى يتقبله المرء فيمــا لو تُرِكَ لنفسه ٠

وفى هــذا المعنى يقول اللورد هيدلى : Lord Headly **إننى** أعتقد أن هناك آلافاً عديدة من الرجال والنســاء مسلمون لأن الطبيعة السليمة هى الاسلام ، ولأن الدراسة العاقلة تقود للاسلام ، ولكن كثيرين من هؤلاء لا يعلنون إسلامهم مراعاة للعرف أو تحاشيا للنقد ٠

وينقل توماس كارليل فى كتابه « الابطال وعبــادة البطولة » أن جيته بعد أن درس الاسلام كان يقول : إذا كان هذا هو الاسلام ، ألسنا جميعاً نعيش فيــه ؟

المقارنة بين المسيحية والاسلام دفعت للاسلام :

يقــول الطبيب الدكتــور على بنويست Ali Benoist **: لم أستطع قبول دعوى القساوسة الكاثوليك أن من سلطانهم مغفرة الذنوب ، ولم أصدق أبدا ذلك الطقس الكاثوليكى عن العشــاء الربانى والخبز المقدس ، فهو فى الأصل طقس طوطمى يعــود للعصور البدائيــة حيث كان الناس يتخذون لهم شعارا مقدســا يحرم عليهم الاقتراب منه ، ثم يلتهمون جسد هذا المقدّس بعد موته لتسرى فيهم روحه ٠ وكان يباعد بينى وبين المسيحية أيضــا أنها لا تحوى فى تعاليمهــا شيئا يتعلق بالنظــافة ولم تعترف المسيحية بالغرائز الفسيولوجية فى الانسان » وكان الاسلام هــو الدين الوحيد الذى انفرد بمراعاة الطبيعة البشرية ٠**

ويقول الاستاذ مكباركلي Mcbarklie : لقد اقنعتنى نظرية الاسلام المنطقية فى الجزاء بعكس نظرية الفداء فى المسيحية .

الأناجيل والقرآن :

ويقول لورد برنتون Lord Brunton إن اضطراب الأناجيل هى التى دفعتنى لدراسة عقيدة الإسلام فوجدت فى القرآن الحكمة وفصل الخطاب ، وصدق الله العظيم الذى يقول « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » فالقرآن من عند الله فليس فيه خلافات ولكن الأناجيل كتبها البشر فكثرت الخلافات فيها .

سبق الاسلام فى تحريم الخمور والمخدرات :

ويَعُدُّ الأستاذ Malema تحريم الإسلام للخمور والمواد المخدرة بين الأشياء التى جذبته للإسلام ، ويذكر أن المسيحية لم تُحَرِّم الخمور والمخدرات التى يحاربها العلم الآن ، فكان موقف الإسلام من هذه المواد سبقا عظيما .

الاسلام والحضارة :

يوضح الأستاذ جورج سارلون أن الاسلام شجع الفكر الحضارى فى العلوم التجريبية فى حين وقفت المسيحية ضد هذا الفكر ، فابن النفيس قد اكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل أن يعرف ميخائيل سرفيت الأسبانى ذلك بمائتين وخمسين عاما ، ولقد عرف المسلمون فضل ابن النفيس ولكن سرفيت أُحْرِقَ علنا فى جنيف عام ١٥٥٣ .

أما التشريح فقد كان فى أوربا ممنوعا ألبتة ، ولكن صناعة التشريح بلغت أعظم مدى فى المستشفيات الاسلامية ، وما يقال عن التشريح يقال عن أمراض العين ، فان المسلمين كانوا حتى القرن الثالث عشر قادة العالم فى أمراض العيون .

وعن مدى الفائدة التى عادت على الغرب من ترجمة الفكر الاسلامى فى العلوم التجريبية يقول روجيه غارودى : ان نهضة الغرب لم تبدأ

فى ايطاليا مع أحيــاء الثقافة اليونانية والرومانية ، بل بدأت فى أسبانيا مع اشعاع العلوم والثقافة العربية والاسلامية ، ولكن النهضة الغربية لم تأخذ من العلوم العربية الاسلامية سوى المنهج التجريبى والقوانين العلمية ، وتركت الايمان الذى يوجهها نحو الإله ويسخرها لخدمة البشر .

التشريعــات :

وقدم الاسلام للمجتمع الاسلامى تشريعات عظيمة ، تسربت الى الكثير من الجماعات والثقافات بطريق أو بآخر ، فقد حرم الاســلام وأد البنات وعَضْلَ المرأة عن الزواج . وتعدد الأزواج للمرأة الواحدة ، وقرر الميراث للمرأة ، وجعل لهــا الحق فى اختيار زوجهــا ، وجعل المهر للمرأة ، وأباح تعدد الزوجات بحدود معقولة فحــال بهــذا دون التعدد غير المشروع الذى يسود الجماعات الغربية .

ويقول اسماعيل ديسلو (بولندا) إنى رجل متخصص فى الدراسات النظرية لعلوم الحضــارة والاجتماع ، وقد أدهشتنى النظم الاجتماعية التى قررهــا الاسلام ، وعلى الاخص الزكاة وتشريع المواريث وتحريم الربا وتحريم الحروب العدوانية ، وفريضــة الحج ، واباحة تعدد الزوجات فى الحدود المرسومة وشتان بين هــذا وبين مبدأ الزواج من واحدة الذى تؤمن به الشعوب الأوربية شكلا ولكن دون وفاء .

التحرير والاستعباد :

ويقول العلامة البريطانى أرنولد توينبى ان الغرب قبل المسيحية وبعدهــا اتجه لاستعباد الدول وسلب ثرواتهــا ، ولكن الاسلام اتجــه لتحرير الدول والإنســان ولم يكن الزحف الاسلامى قط اســتعمارا ولا استعبادا ولا استيلاء على ثراء ، بل كان عدالة مطلقة ، ولقــد تحررت البلدان الشرقية بالزحف الاسلامى من الاستعباد الرومانى المسيحى ، وقد امتد هــذا التحرير من سوريا الى أسبانيا عبر الشمال الافريقى ، وقد كانت تلك البلدان تحت الحكم الاغريقى أو الرومانى نحو ألف من السنين منــذ زحف الاسكندر المقدونى حتى التحرر فى العهــد الاسلامى .

ومثل هـــذا يقال عن الجانب الشرقى للجزيرة العربية فقد تحررت العراق بعد طول استعباد الفرس لهـــا ، وكذلك تحررت فارس والهـــند من ربقة الكهنوت والبراهمة .

لورد هاملتون ورحلته الى الاسلام :

ونختم هـــذه الدراسة بكلمات للورد هاملتون ، ففى ســـنة ١٩٧٦ أعلن اللورد الانجليزى « دوجلاس هاملتون » اعتناقه الاسلام ، وخصص خمسة ملايين جنيه من ثروته لخدمة الاسلام ونشره وغيَّر اسمه فأصـــبح « عادل هاملتون » وهو يقول عن رحلته الى الاسلام :

« بدأت منـــذ فترة طويلة بالتأمل والبحث عن الحقيقة ، ونتيجة لهـــذا البحث والتأمل فى الكون قادنى تأملى الى حقيقة باهرة هى أنه لابد من وجود خالق لهـــذا الكون ، ثم واصلت تأمّلى فاقتنعت بواحدانية الله ، وأنه الإله الرحمن الرحيم ، وعندما وصلت الى هـــذه النتيجة ارتبطت بالإسلام لأنه الذى يعلن الوحدانية ، وبدأتُ قراءاتى عن الاسلام ، فاقتنعت به ، ثم تقدمت الى المركز الاسلامى فى لندن مشهراً إسلامى .

« وأسرتى بدأت تقتنع بالاسلام ، فابنتى « سيورنا » التى تبلغ من العمر أربعـــة عشر عاماً تناقشنى فيه باستمرار ، وأعتقد أنها ستشهر اسلامهـــا قريباً ، أما زوجتى « ميراند » فقد قاربت على الانتهـــاء من دراسة الاسلام وتعاليمة على يد أحد الباكستانيين ، وهو حاليـــا يعمل بمنظمة المؤتمر الاسلامى ، وأعتقـــد أن الاسلام سيجذب الكثيرين من خريجى الجامعـــات وبخاصـــة هؤلاء الذين أعيتهم وأثقلتهم الارتباكات العقـــائدية » .

* * *

يارب ، وجّه المسلمين ليعودوا لدينهم ، وليبشروا به النـــاس ، ووجّه المجتمع البشرى لتفهّم هـــذا الدين الذى يضمن السعادة للناس فى الدنيـــا والآخرة .

مراجع الكتــاب

١ — القرآن الكريم .
٢ — كتب الاحاديث الستة .
٣ — الكتاب المقدس .
٤ — مجموعة من كتب الفقه .
٥ — مجموعة من المجلات العلمية والصحف .
٦ — كتاب « لماذا اسلمت » نشرته رابطة العالم الاسلامى .
٧ — Eucyclopaedia of Religions Ethics.
٨ — Encyclopaedia of Islam.
٩ — Encyclopaedia Britannica.
١٠— دائرة معارف وجدى .
١١— قانون الجمهوريات السوفييتية .
١٢— دكتور ابراهيم بيومى مدكور — تاريخ الفلسفة .
١٣— دكتور احمد شلبى — موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية (من العرب قبل الاسلام حتى العهد الحاضر فى العالم الاسلامى كله — عشرة اجزاء)
١٤— « « « — تاريخ التربية الاسلامية
١٥— « « « — السياسة فى الفكر الاسلامى — الاقتصاد فى الفكر الاسلامى
١٦— « « « — المجتمع الاسلامى
١٧— « « « — مقارنة الاديان (اليهودية — المسيحية — أديان الهند الكبرى)
١٨— « « « — الجهاد والحياة العسكرية فى الفكر الاسلامى
١٩— المشير أحمد عزت . — الدين والعلم .
٢٠— آدم متز — الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى
٢١— الباقلانى — اعجاز القرآن
٢٢— Berry — Religions of the World
٢٣— البلاذرى — فتوح البلدان
٢٤— Thomas Arnold — Preaching of Islam

٢٥– Thomas of Marga — Books of Governers

٢٦– ابن تيمية — السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعيــة .

٢٧– جميل نخلة مدور — حضارة الاسلام فى دار السلام

٢٨– دكتور جوزيف بوست — قاموس الكتاب المقدس

٢٩– جورجى زيدان — تاريخ التمدن الاسلامى

٣٠– دكتور حامد الغوابى — الطب الحديث يترسم خطا الاسلام

٣١– دكتور حسن ابراهيم ودكتور على ابراهيم — النظم الاسلامية

٣٢– ابن حزم الاندلسى — المحــلى

٣٣– أبو الحسن الندوى — ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين

٣٤– Dinson — Emotions as the Basis of Civilization

٣٥– دوايت دونلدش — عقيدة الشيعة

٣٦– Stanley Lane-poole — Arabs in Spain

٣٧– الشريف المرتضى — تنزيه الانبياء

٣٨– الشهر ستانى — الملل والنحل

٣٩– الطبرى — تاريخ الامم والملوك

٤٠– دكتور الطيب النجار — الموالى فى العصر الأموى

٤١– عباس محمود العقاد — الله

٤٢– عباس محمود العقاد — حقائق الاسلام وأباطيل خصومه

٤٣– » » » — ما يقال عن الاسلام

٤٤– ابن عبد الحكم — سيرة عمر بن عبد العزيز

٤٥– عبد الحى الكتانى — التراتيب الادارية

٤٦– عبد الرازق نوفل — القرآن والعلم الحديث

٤٧– دكتور عبد العزيز اسماعيل — الاسلام والطب الحديث

٤٨– عفيف طبارة — روح الدين الاسلامى

٤٩– الغزالى — احياء علوم الدين

٥٠– غوستاف لوبون — حضارة الهند

٥١– Fage and Roland — A Short History of Africa

٥٢– قاسم أمين — تحرير المراة.

٥٣ــ قاسم أمين	المراة الجديدة
٥٤ــ دكتور قهر الدين يونس	الانسانية
٥٥ــ ابن القيم	زاد المعـــاد
٥٦ــ « «	اعلام الموقعين عن رب العالمين
٥٧ــ Kirk	A Short History of the Middle East
٥٨ــ ابن الكلبى	كتاب الاصنام
٥٩ــ كمال أحمد عون	المرأة فى الاسلام
٦٠ــ الماوردى	الاحكام السلطانية
٦١ــ المبرد	الكامل فى اللغة والادب
٦٢ــ الشيخ محمد بخيث	حقيقة الاسلام وأصول الحكم
٦٣ــ دكتور محمد حسين هيكل	حياة محمد
٦٤ــ محمد شفيق (باشا)	الرق فى الاسلام
٦٥ــ السيد صادق الصدر	الشـــيعة
٦٦ــ محمد صادق الرافعى	اعجاز القرآن
٦٧ــ الامام محمد عبده	رسالة التوحيد
٦٨ــ الامام محمد عبده	الاسلام والنصرانية مع العلم والمينة
٦٩ــ M Oite	تاريخ الصين القديم
٧٠ــ مولانا محمد على	Early Caiphace
٧١ « « «	The Religion of Islam
٧٢ــ الدكنور محمد عبد الله دراز	الدين
٧٣ــ الدكتور محمد عبد الله دراز	النبأ العظيم
٧٤ــ محمد عبد الغنى حسن	مجازات القرآن
٧٥ــ الشيخ محمد الغزالى	خلق المسلم
٧٦ــ محمد فؤاد الهاشمى	الادبان فى كفة الميزان
٧٧ــ الاستاذ الاكبر محمود شلتوت	الاسلام عقيدة وشريعة
٧٨ــ « « « «	الفتـــاوى
٧٩ــ « « « «	من نوجيهات الاسلام
٨٠ــ « « « «	منهج القرآن فى بناء المجتمع
٨١ــ I. A. Hazard	Psychology and Ethics
٨٢ــ Harry. W. Hadfield	Atlas of Islamic History

٨٣— ابن هشام — السيرة

٨٤— هوبير دبشان — الديانات فى افريقيا السوداء (مترجم عن الفرنسية)

٨٥— Isle Lictenstadter — Islam and Modern Age

٨٦— Khnda Bakhsh — Introduction of the Islamic civilization

٨٧— F. Hitti — Histor' of the Arabs

٨٨— weith - Knadsen — [illegible]ism

٨٩— wells — A Short Historp of the World

٩٠— Willian Paoouu — Great Religions ef the World

رقم الايداع ٢٣٢٤ / ١٩٨٥

مطبعة النهضة العربية

١٣ شارع الفجالة - القاهرة ٩٠٦٧٨٠

COMPARATIVE RELIGIONS

3

ISLAM

BY

AHMAD [illegible]HALABY

B. A. (H[illegible].) Ca[illegible]ro University,

Ph.D. C[illegible]mbrid[illegible] University,

Professor and Head o[illegible] the Department

of Islamic [illegible]istory [illegible]nd Civilization,

Faculty of Da[illegible] El U[illegible]m, Cairo University

Published by :

[illegible]HE RENAISSANCE BOOKSHOP

9 Adly Street, Cairo.



دكتور أحمد شلبى

تلقى دراساته فى الأزهر وفى كلية دار العلوم (جامعة القاهرة) وفى جامعة لندن وجامعة كمبردج.

ز[illegible] الولايات المتحدة الامريكية كما زار اكثر دول أوربا وآسيا وافريقيا، ومثّل مصر فى عدة مؤتمرات دولية.

درس مجموعة من اللغات الأجنبية وجيد الانجليزية والاندونيسية.

اشتغل بالتدريس بجامعة القاهرة حتى وصل الى درجه أستاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية، وقد حاضر منتدبا وزائرا ومُعارا في جامعة الأزهر، وعين شمس، واندونيسيا، والسودان، وماليزيا، والمملكة العربية السعودية، وليبيا، وفى معهد الدراسات الاسلامية، ومعهد البحوث والدراسات العربية، ومعهد الدراسات لدبلوماسية.

مؤلفاته تزيد عن خمسين كتابا ظهرت الطبعة الحادية والعشرون من بعضها وأهم هذه المؤلفات:

١ ــ موسوعة التاريخ الاسلامى فى عشرة مجلدات

٢ ــ موسوعة الحضارة الاسلامية فى عشرة أجزاء.

٣ ــ مقارنة الأديان فى أربعة أجزاء.

٤ ــ كيف تكتب بحثا أو رسالة.

٥ ــ المكتبه الاسلامية لكل الاعمار (١٠٠ جزء من السِّيَر والتاريخ وقصص القرآن للأولاد والشبان والسيدات والرجال.)

٦ ــ ISLAM: BELIEF, LEGISLATION, MORALS

٧ ــ HISTORY OF MUSLIM EDUCATION

كت[illegible] بعض كتبه بالانجليزية والاندونيسية، وتُرجمت أكثر [illegible] الأوردية، والتركية، والاندونيسية، والماليزية [illegible]ة.